

مكتبة دار الفکر

مفهوم الاستبصار والاستبصار في

في القرآن الكريم

دراسة مطابقة وتفسير موضوعي

تأليف

د. مصطفي أوعيشة



دار السنين

الطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

رسالة دكتوراه

مفهوم الاستبصار والاستضعاف

في القرآن الكريم

دراسة مطبوعية وتفسير موضوعي

تأليف

د. مصطفى أوعيشة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للمنشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترحمة

لصاحبها

عبدلغفور محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

أوعيشة ، مصطفى .

مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم:

دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي / تأليف مصطفى

أوعيشة . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة

والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٤ م .

٣٤٤ ص ٢٤٤ سم .

تدمك ٦ ١٨١ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - التكبير في القرآن .

أ - العنوان .

٤١٧٩٨ ، ٢٢٩

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار

الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

أَصِلْ هَذَا الْكِتَابَ

رسالة علمية نال بها صاحبها درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من كلية الآداب
بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بالمملكة المغربية ، تحت إشراف أ.د. الشاهد البوشيخي

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المنفرج من شارع نور الدين بهجت -

الوازي لامتداد شارع مكرم عبد - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٠٧٨ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرج من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)

المكبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ - فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٢ +)

بريدياً : القاهرة : ص.ب ١٦١ النورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م ٢٠٠٠

أسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت

على جائزة أفضل ناشر للتراث الثلاثة

أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،

٢٠٠١م هي جفر الجائزة تبرعها لعقد

ثالث مضي في صناعة النشر

ش.م ٢٠٠٠

ش.م ٢٠٠٠

ش.م ٢٠٠٠

ش.م ٢٠٠٠

ش.م ٢٠٠٠

ش.م ٢٠٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَهْرِسُ الْمَحْتَوَاتِ

١١	مقدمة
	الباب الأول
	مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم
٢١	دراسة مصطلحية
٢٣	* الفصل الأول: التعريف
	المبحث الأول: مفهوم الاستكبار والاستضعاف: دراسة معجمية لغوية
٢٥	واصطلاحية
٢٥	المطلب الأول: مفهوم الاستكبار: دراسة معجمية لغوية واصطلاحية
٢٥	أولاً: في اللغة
٢٦	ثانياً: معاني الاستكبار في معاجم الاصطلاح
٢٧	المطلب الثاني: مفهوم الاستضعاف: دراسة معجمية لغوية واصطلاحية
٢٧	أولاً: في اللغة
٢٨	ثانياً: معاني الاستضعاف في معاجم الاصطلاح
	المبحث الثاني: مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم: إحصاء
٣٠	وتصنيف وتعريف
	المطلب الأول: مفهوم الاستكبار في القرآن الكريم: إحصاء وتصنيف
٣٠	وتعريف
٣٠	أولاً: إحصاء وتصنيف
٣٠	أ - بحسب الجذور
٣١	ب - بحسب أحوال الورود

٣١	١ - زمن الورد
٣١	٢ - شكل الورد
٣٢	ثانيًا: تعريف مقترح للاستكبار في القرآن الكريم
٣٢	ثالثًا: تحليل التعريف إلى عناصره والاستدلال عليه
	المطلب الثاني: مفهوم الاستضعاف في القرآن الكريم: إحصاء وتصنيف
٤٤	وتعريف
٤٤	أولًا: إحصاء وتصنيف
٤٤	أ - بحسب الجذور
٤٥	ب - بحسب أحوال الورد
٤٥	١ - زمن الورد
٤٦	٢ - شكل الورد
٤٧	ثانيًا: تعريف مقترح للاستضعاف في القرآن الكريم
٤٧	ثالثًا: تحليل التعريف إلى عناصره والاستدلال عليه
٥٣	* الفصل الثاني: علاقات الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم
٥٥	المبحث الأول: علاقات الاستكبار
٥٥	المطلب الأول: علاقات الائتلاف
٥٥	العلو
٦١	العتو
٦٨	الكفر
٧٢	الفسق
٧٥	التكذيب بآيات الله
٨١	الظلم
٨٤	الإباء
٨٧	الإدبار

٨٩ الاستكاف
٩٢ الإصرار
٩٧ الجحود
١٠٠ المكر السيئ
١٠٣ النفور
١٠٤ الإجرام
١٠٨ الهوى
١١٢ الترف
١١٦ القوة
١١٧ المطلب الثاني: علاقات الاختلاف
١١٧ الاستضعاف
١٢٦ الإيمان والعمل الصالح
١٣٠ المبحث الثاني: علاقات الاستضعاف
١٣٠ المطلب الأول: علاقات الائتلاف
١٣٠ أولاً: الألفاظ ذات العلاقة مع الاستضعاف بما هو فعل المستضعفين
١٣٠ العلو
١٣١ الإفساد
 ثانيًا: الألفاظ ذات العلاقة مع الاستضعاف بما هو فصل واقع على
١٣٣ المستضعفين
١٣٣ التبعية
١٣٥ المطلب الثاني: علاقات الاختلاف
١٣٥ الاستكبار
١٣٥ الظلم

- * الفصل الثالث: ضمانم الاستكبار والاضعاف في القرآن الكريم ١٣٩
- المبحث الأول: ضمانم الاستكبار ١٤١
- المطلب الأول: ما ضم إلى المصطلح ١٤١
- الاستكبار في الأرض ١٤١
- الاستكبار بغير الحق ١٤٩
- الاستكبار في النفس ١٥٥
- الاستكبار عن الآيات ١٥٩
- الاستكبار عن عبادة الله تعالى ١٦١
- الاستكبار بالبيت الحرام ١٦٤
- المطلب الثاني: ما ضم إليه المصطلح ١٦٥
- ﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾، ﴿ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، ﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ ١٦٥
- ﴿ أَلَمْ لَأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ ١٦٧
- ﴿ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ١٦٩
- المبحث الثاني: ضمانم الاضعاف ١٧١
- المطلب الأول: ما ضم إلى المصطلح ١٧١
- الاضعاف في الأرض ١٧١
- المطلب الثاني: ما ضم إليه المصطلح ١٧٣
- ﴿ قَلِيلٌ مُتَضَعِّفُونَ ﴾ ١٧٣
- ﴿ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا ﴾ ١٧٤
- * الفصل الرابع: مشتقات الاستكبار والاضعاف في القرآن الكريم ١٧٧
- المبحث الأول: مشتقات الاستكبار ١٧٩
- المستكبر ١٧٩
- المستكبرون ١٨٣
- المتكبر ١٩٠

٧	فهرس المحتويات
١٩٤	المتكبرون
١٩٦	كبراء
١٩٧	أكابر
٢٠٠	المبحث الثاني: مشتقات الاستضعاف
٢٠٠	المستضعفون
٢٠٢	الضعيف
٢٠٤	الضعفاء

الباب الثاني

مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم

٢٠٩	تفسير موضوعي
٢١١	* الفصل الأول: أسباب الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم
٢١٣	المبحث الأول: أسباب الاستكبار
٢١٣	المطلب الأول: التعصب للجنس
٢١٥	المطلب الثاني: مخالفة الرسالات لأهواء المستكبرين
	المطلب الثالث: التبعية العمياء للأباء والأجداد والجمود على العادات والتقاليد
٢١٧	
٢٢٠	المطلب الرابع: الاعتزاز بالقوة والخوف على فقد الرياسة
٢٢٣	المطلب الخامس: الترف
٢٢٦	المبحث الثاني: أسباب الاستضعاف
٢٢٦	المطلب الأول: ضعف القوة المادية
٢٢٨	المطلب الثاني: مخالفة المستضعفين للمستكبرين في العقيدة
٢٣٢	المطلب الثالث: الاستكانة بدعوى الخوف على المصلحة

- * الفصل الثاني: مظاهر الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم ٢٣٥
- المبحث الأول: مظاهر الاستكبار ٢٣٧
- المطلب الأول: الاستعلاء ٢٣٧
- المطلب الثاني: تكذيب الرسل والتنقيص من شأنهم وشأن أتباعهم ٢٣٨
- المطلب الثالث: الصد عن سبيل الله ٢٤١
- المبحث الثاني: مظاهر الاستضعاف ٢٤٤
- المطلب الأول: الاستهزاء والسخرية ٢٤٥
- المطلب الثاني: التضييق في الأرزاق وسبل العيش ٢٤٩
- المطلب الثالث: الإغراء ٢٥١
- المطلب الرابع: السجن والتنكيل ٢٥٥
- المطلب الخامس: النفي والتشريد ٢٥٨
- المطلب السادس: الإعدام (الفردي والجماعي) ٢٦١
- * الفصل الثالث: جزاء المستكبرين والمستضعفين في القرآن الكريم ٢٦٥
- المبحث الأول: جزاء المستكبرين ٢٦٧
- المطلب الأول: الجزاء الدنيوي ٢٦٨
- أولاً: الطرد من رحمة الله والصغار واللعنة ٢٦٨
- ثانياً: الريح العاتية ٢٦٩
- ثالثاً: الرجفة ٢٧٠
- رابعاً: الإهلاك غرقاً ٢٧٢
- خامساً: الخسف ٢٧٣
- المطلب الثاني: الجزاء الأخروي ٢٧٥
- المبحث الثاني: جزاء المستضعفين ٢٧٨
- المطلب الأول: جزاء المستضعفين الظالمين ٢٧٨
- المطلب الثاني: جزاء المستضعفين المؤمنين ٢٨٠

٢٨٣	* الفصل الرابع: سبل مقاومة الاستكبار وعلاج داء الاستضعاف في القرآن الكريم
٢٨٥	المبحث الأول: الإيمان بالله واتباع الهدى
٢٩١	المبحث الثاني: الهجرة
٢٩٤	المبحث الثالث: الجهاد
٣٠٠	المبحث الرابع: بيان عاقبة الاستكبار والاستضعاف في الآخرة
٣٠٨	المبحث الخامس: تعبئة أبناء الأمة ليصبحوا حملة رسالة
٣١٣	خاتمة
٣١٧	الفهارس
٣١٩	فهرس الآيات القرآنية
٣٢٧	فهرس الأحاديث النبوية
٣٢٨	فهرس المصادر والمراجع
٣٣٥	السيرة الذاتية للمؤلف
٣٣٧	من إصدارات دار السلام



مُقَدِّمَةٌ

موضوع البحث ودوافعه:

إن أولى ما نتجنح إلى تحصيله الهمم العالية وأحق ما وجب صرف الجهود لدرسه والأخذ بعنانه ما كان موصلًا للتقرب به إلى الباري سبحانه وطلب الزلفى منه، وذلك العلم النافع الذي يهدي إلى تقوى الله تعالى ويرسم معالم السلوك إليه سبحانه. ولا جدال أن أشرف العلوم وأولاها بالدرس تبيينًا وبيانًا ما كانت قضاياها مستوحاة من كتاب الله العزيز، ولا سبيل إلى فهم كلام الله والتدبر في آياته بله الاستنباط منه وإصلاح حال الأمة به إلا بفقهِ مصطلحاته التي هي مفاتيحه التي لا تفتح أبوابه إلا بها.

وحفظ الله أستاذنا الدكتور الشاهد البوشيخي إذ يقول: « وما لم يتجدد فهم الأمة للقرآن فلن تتجدد الأمة، ولن يتجدد فهم القرآن حتى يتجدد فهم مصطلحات القرآن، مفاهيم ونسقًا، ذلك بأن الوحي قرآنًا وسنة مجموعة من المفاهيم، إذا حصلت حصلت كليات الدين وإذا لم تفقه لم يفقه الدين، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين »^(١).

ورحم الله الراغب الأصفهاني الذي اعتنى بتحقيق الألفاظ المفردة في القرآن، فكان في ذلك رائد زمانه، إذ جمع بين اللفظ اللغوي والمعنى القرآني في نسق علمي محكم. يقول رحمه الله: « ... وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن، العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللبن في كونه أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه »^(٢).

فلا استعمال القرآني للألفاظ خصها بمدلول خاص، وأعطها أبعادًا أكثر عمقًا وأوسع دلالة تجاوزت بها ما وضع لها في لسان العرب.

لذلك أضحي تخصيص المصطلح القرآني بالبحث والدراسة في زمن المسخ هذا أولى الأولويات وضرورة الضرورات لبث وعي قرآني جديد بالمفاهيم التي يشمل عليها كتاب الله المجيد.

(١) القرآن والدراسة المصطلحية « سلسلة « دراسات مصطلحية » (ص ١٩).

(٢) معجم مفردات القرآن (ص ٨).

ذلك أن هذا المصطلح لا يخلو من بعدين أساسيين: بُعد معرفي وبُعد نفسي « أما البُعد المعرفي فهو يتمثل فيما يحمله المصطلح من دلالات معنوية ترتقي من مستوى المعاني الجزئية لتكون قضايا كلية كبرى ومبادئ عامة، بل وأصولاً مذهبية أحياناً... فكل مصطلح قرآني قد وضع إذن عنواناً لقضية كبرى وليس عنواناً لمعنى جزئي. وأما البُعد النفسي فهو يتمثل فيما يحمله المصطلح من طاقة تأثير على النفوس من شأنها أن تعبئها لاستيعاب المعاني التي وضعت لها استيعاباً إيمانياً عميقاً وأن تستنفرها من أجل تطبيقها في الواقع، وذلك من خلال الصياغة التي صيغ بها المصطلح ومن خلال البناء الدلالي الذي بني عليه»^(١).

من هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة لمفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم، فهذا المفهوم يعد من أهم المفاهيم القرآنية في مجال الاجتماع الإنساني التي تبرز الرؤية الإسلامية في تفسير المجتمع والتاريخ.

إن لدى دعاة الباطل وكل مزيج مريج من الفلسفات الحديثة والمعاصرة نسقاً واضحاً لتحليل الواقع ونقده وتحليل التاريخ ورسم مسار ممكن للمستقبل، ونحن نبقي في عموميات مطالبنا الراقية نعبّر عنها بعواطفنا الجياشة الصادقة المشتاقة لغد الإسلام الأغر.

نريد أن يكون التفاتنا لمعاني الاستكبار والاستضعاف فقهاً واضحاً، وأن يكون تعلقنا بهذه المعاني نبراساً يضيء لنا تاريخ المسلمين، ودليلاً لفرز أصناف المجتمع المسلم المعاصر وخطه لبناء مستقبل الأمة.

لا يكفي أن نقول: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، لكن ينبغي أن نعطي لهذه الآية الكريمة وأخواتها الأبعاد الفلسفية والفكرية والتاريخية، ونحلل التاريخ على هذا المحور الصراع بين المستكبرين والمستضعفين على مر الأجيال في التاريخ.

اللَّهُ ﷻ قص قصص من كان قبلنا باعتبار أنه كان هنالك في وجه كل نبي مستكبرون ومع كل نبي مستضعفون، القرآن الكريم لا يتحدث عندما يقص علينا نبأ من كان قبلنا

(١) مفهوم الشهادة على الناس في القرآن الكريم وأبعاده الحضارية، للدكتور عبد المجيد النجار. ندوة: «الدراسة المصطلحية والمعلوم الإسلامية» (١/٢٩٠، ٢٩١).

إلا عن صراع المستضعفين بقيادة الرسل والأنبياء والدعاة إلى الله مع المستكبرين من أمثال فرعون وقارون وصناديد قريش.

والمجال الذي تنصرف فيه النصوص القرآنية في تحليلها لما وقع لمن كان قبلنا هو أوسع وأسمى مغزى من أي تحليل مادي محدود ومقيد، يرى أن الأفراد في المجتمع ينقسمون إلى أفراد مستثمرين مالكيين وأفراد محرومين مستغلين، وتنقسم سائر الشؤون الاجتماعية بنفس التقسيم، فيكون داخل المجتمع نوعان من كل منها يطابق كل منهما التفكير الخاص لإحدى الفئتين الاقتصاديةتين، ذلك أن المفهوم المزدوج: الاستكبار والاستضعاف يجمع زيادة على التفاوت الاقتصادي وعلى الظلم الاجتماعي اللذين يتضمنهما المصطلحان البُعد العقدي. فالمستكبرون والمستضعفون كما يقص الله ﷻ في كتابه العزيز علينا نبأهم، نزاعهم ليس على الأرزاق فقط بل يتعداه إلى نزاع مركب كلي شمولي في معاني استردال فئة لفئة، واحتقار فئة لفئة، واستعلاء فئة على فئة، ومنع فئة المستكبرين فئة المستضعفين أن يعبدوا الله، لأن العبودية لله وحده هي التي ترفع الظلم وتكسر قيد الاستعباد.

فليس الاستكبار صيغة للتكبر ونوعاً من الشموخ يوصف به الفرد الأناني المستعالي فقط، إنما هو وجود تكتل اجتماعي، سياسي، واقتصادي يبطأ المستضعفين، ويعلو في الأرض بغير الحق، ويفسد فيها ويصد عن سبيل الله، ذلك السبيل الذي لا يقر بحال أن يعلو أحد من خلق الله على أحد، أو يظلم أحد أحدًا، أو يحكم أحد بغير ما أنزل الله، أو تستأثر فئة بالمال والسلطان.

الاستكبار صد عن سبيل الله قبل كل شيء، صد يستند إلى البطش الذي يسلمحه المال المنهوب والسلطان المستبد به من غير رضا المستضعفين.

جماع القول أنه لا يصح استعمال المصطلح القرآني التقابلي: استكبار - استضعاف إلا إذا كان الاضطهاد في الرزق وفي المقومات الأرضية مقترناً بالاضطهاد في العقيدة والشرع.

من هنا كان السعي إلى محاولة الكشف عن مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن؛ وذلك لأن الحاجة في زماننا أشد ما تكون إلى تأصيل مفاهيمنا حول الإنسان والمجتمع والتاريخ في ظل هيمنة المفاهيم الواردة والدخيلة.

منهج البحث:

إن مشكلة المنهج - كما يؤكد أستاذنا الدكتور الشاهد البوشيخي - هي مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي ولا الحضاري إلا بعد الاهتمام في المنهج للتي هي أقوم، وبمقدار تفقهننا في المنهج ورشدنا فيه يكون مستوى انطلاقنا كمًا وكيفًا^(١).

إن المنهج يعكس الأهداف، يجعل منها موضوعه، ويقوم بإعادة إنتاجه وتطويره، إنه نشاط آلي يسعى إلى تحقيق موضوعه، والبرهنة عليه. ولما كان الموضوع هو البحث في المصطلح القرآني، كان المنهج الوصفي ممثلًا في الدراسة المصطلحية هو الكفيل بإشباع الحاجة العلمية؛ لأن البحث بالمنهج الوصفي في المصطلح هو بحث سكنوني أي (سانكروني) بمعنى أنه عملية تشريح للمصطلح، قصد التعرف على جوهره كما هو مستعمل في كتاب معين أو تراث عالم معين أو مدرسة معينة^(٢).

بناء عليه توزع العمل لتقديم البحث في صورته النهائية إلى مرحلتين كبيرتين: مرحلة الدراسة ومرحلة العرض.

١ - مرحلة الدراسة:

وأهم خطواتها ما يلي:

- إحصاء لكل النصوص التي ورد بها مصطلحا الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم، إحصاء لا يهمل مستعملًا من مستعملات المادة الاصطلاحية، اسمًا كان أم فعلًا، ومفردًا كان أم مركبًا.

- تصنيف جميع النصوص المحصاة بعد استخلاصها حسب الأهم فالأهم من المشتقات، وذلك حسب أركان الدراسة النصية ومراحلها: وهي الصفات والعلاقات والضمانات والمشتقات والقضايا.

- دراسة معاني المشتقات في المعاجم اللغوية، دراسة تضع نصب أعينها مدار مشتقات الجذرين (ك - ب - ر) و (ض - ع - ف) علامه؟ وماخذ المشتق المستعمل في القرآن الكريم ممة؟ وشرحه إن كان قد شرحه ممة؟

(١) مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين (ص ٢١).

(٢) منهج دراسة المصطلح التراثي، للدكتور فريد الأنصاري (ص ١٧).

- دراسة مادة كل ركن من أركان الدراسة المصطلحية ضمن مرحلته الخاصة به بالتأمل في النصوص، والاستعانة بالمصادر المعتمدة، والاعتماد على كل الأدوات التي تمكن من تبين المفهوم.

- استخلاص ما يمكن استخلاصه من المستفادات والقضايا الجزئية والكلية، وبنائها في نسق موضوعي.

٢ - مرحلة العرض:

وقد كانت كما يلي:

- ذكر تعريف الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم: ونراعي فيه مختلف عناصر المفهوم، ومحاولين إبرازها في اللفظ المعرف به، ولا يتيسر ذلك عادة إلا إذا تم استقراء مختلف النصوص التي ورد فيها ذلك اللفظ ودراستها.

- ذكر علاقات الاستكبار والاستضعاف التي تربط المصطلحين بسواهما والفروق التي تفصلهما عن سواهما.

- ذكر الضمانم، وهي الأشكال التي ورد عليها لفظا الاستكبار والاستضعاف مضمومين إلى غيرهما أو مضمومًا إليهما غيرهما، ودراستها مع ما يندرج تحتها، مرتبة على نسق معين.

- ذكر مشتقات الاستكبار والاستضعاف، ومدروسة ومرتبة أيضًا وفق نسق معين.

- ذكر القضايا التي أمكن استخلاصها من النصوص مجمعة في نسق موضوعي. وقد تم تناولها من زاوية التفسير الموضوعي، وهو منهج في التفسير، يبحث في قضايا القرآن المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع^(١).

إن التفسير الموضوعي يمكننا من التعمق في فهم الأبعاد المعنوية والمعرفية للقرآن الكريم في استعماله للمصطلحات، وشرح مضامينه، خاصة بعد جمع الصورة الدلالية للمصطلح في شكلها المتكامل، ورد الاستعمالات التي ورد بها في مختلف الموارد بعضها إلى بعض، وضمها لتكون نسقًا مفهوميًا كليًا، بحيث يبدو المصطلح في بعده

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، للدكتور عبد الستار سعيد (ص ٢٠).

الذي أعطاه القرآن الكريم إياه قضية كلية عامة من قضايا الدين، حتى يتسنى لنا الربط بين المصطلح القرآني في دلالاته الكلية، على النحو الذي وقع التوصل إليه، وبين الواقع الثقافي للمسلمين، وتوجيه المصطلح إلى أن يكون له حضور في الواقع، بحيث يصبح أداة تعبيرية، مستخدمة في التفكير، وشائعة في الثقافة العامة، بما من شأنه أن يعزز الشعور بالانتماء الثقافي الأصيل من جهة، وأن يحفز الهمم، ويستفرها للعمل بالمعاني التي يقتضيها المصطلح من جهة ثانية. ويكون بالتالي استثمارًا للمصطلح من حيث طاقته التأثيرية على النفس وحشد قواها في سبيل الانفعال العملي الإنجازي، بمدلوله المعنوي. ويتكامل حينئذ استثمار المصطلح القرآني في بعده المعرفي وبعده النفسي جميعاً^(١).

محتوى البحث:

انتهى العمل إلى وضع خطة للبحث تقتضي تقسيمه إلى مقدمة وبابين وخاتمة. فأما المقدمة فخصصت لذكر موضوع البحث ودوافعه والمنهج المتبع فيه ثم عرض محتواه والصعوبات التي اعترضت إنجازه. وأما صلب البحث فقد خصص له بابان:

* الباب الأول: خصص للنظر في مفهوم الاستكبار والاستضعاف من زاوية الدراسة المصطلحية، ويتكون هذا الباب من أربعة فصول هي:

- الفصل الأول: درست فيه دلالة الاستكبار والاستضعاف في اللغة والاصطلاح، وخلصت بعد الإحصاء والتصنيف إلى وضع تعريف للمصطلحين. ولذلك فهو يشتمل على مبحثين:

أولهما: مفهوم الاستكبار والاستضعاف: دراسة معجمية لغوية واصطلاحية، خصصت المطلب الأول منه للاستكبار، والمطلب الثاني للاستضعاف.

والثاني: مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم: إحصاء وتصنيف وتعريف. مقسم بدوره إلى مطلبين: الأول خاص بالاستكبار، والثاني خاص بالاستضعاف.

- الفصل الثاني: خصصته لدراسة علاقات الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم

(١) مفهوم الشهادة في القرآن الكريم وأبعاده الحضارية. ندوة: «الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية» (١/٢٩٣).

بغيرهما من الألفاظ المؤالفة والمخالفة. وذلك في مبحثين:

الأول: خاص بعلاقات الاستكبار اثلاًفاً واختلاًفاً، بحيث أفرد المطلب الأول لعلاقات الائتلاف، وأفرد المطلب الثاني لعلاقات الاختلاف.

والثاني: خاص بعلاقات الاستضعاف إذ ضمنت علاقات الائتلاف في المطلب الأول، وعلاقات الاختلاف في المطلب الثاني.

- الفصل الثالث: خصص لدراسة ضمائم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم، سواء ما ضم إلى المصطلح أو ما ضم إليه المصطلح. وقسمته إلى مبحثين:

درست في الأول ضمائم الاستكبار، وجعلته مطلبين: الأول: درست فيه ما ضم إلى الاستكبار.

والثاني: درست فيه ما ضم إليه الاستكبار.

وخصصت المبحث الثاني لضمائم الاستضعاف، بحيث أفردت المطلب الأول منه لما ضم إلى الاستضعاف والمطلب الثاني لما ضم إليه الاستضعاف.

- الفصل الرابع: موضوعه دراسة مشتقات الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم. وهو يضم مبحثين:

خصص الأول: لدراسة مشتقات الاستكبار.

وخصص الثاني: لدراسة مشتقات الاستضعاف.

وقد يتساءل متسائل لماذا لم تدرج صفات الاستكبار والاستضعاف ضمن البحث مع كونها ركناً مهماً من أركان الدراسة المصطلحية؟

نجد أن مرد ذلك إلى أن طبيعة مفهوم الاستكبار والاستضعاف تجعل منه واصفاً أكثر منه موصوفاً، كما أن عددها لم يتجاوز أصابع اليد.

لذلك تمت دراسة ذلك النزر القليل منها في ركن المشتقات؛ لأن ورودها في القرآن الكريم جاء مرتبطاً بصيغ اسم الفاعل بالنسبة للاستكبار وبصيغ اسم المفعول بالنسبة للاستضعاف.

* الباب الثاني: تناولت فيه قضايا الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم من زاوية التفسير الموضوعي، ويتكون هذا الباب من أربعة فصول كذلك:

- الفصل الأول: خصص لدراسة أسباب الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم، ولذلك فهو يضم مبحثين:

الأول: أسباب الاستكبار في القرآن الكريم وحصرتها في خمسة أسباب رئيسة، عرضت لها في خمسة مطالب هي:

المطلب الأول: التعصب للجنس.

المطلب الثاني: مخالفة الرسالات لهوى المستكبرين.

المطلب الثالث: التبعية العمياء للأباء والأجداد، والجمود على العادات والتقاليد.

المطلب الرابع: الاغترار بالقوة والخوف على فقد الرياسة.

المطلب الخامس: الترف.

والثاني: خصص لدراسة أسباب الاستضعاف، وعددها في ثلاثة أسباب، خصصت لكل سبب منها مطلبًا مستقلًا وفق الترتيب الآتي:

المطلب الأول: ضعف القوة المادية.

المطلب الثاني: مخالفة المستضعفين للمستكبرين في العقيدة.

المطلب الثالث: الاستكانة بدعوى الخوف على المصلحة.

- الفصل الثاني: درست فيه مظاهر الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم، وقسمت النظر فيه إلى مبحثين:

خصصت الأول لعرض مظاهر الاستكبار وحصرتها في ثلاثة مظاهر أساسية درستها ضمن ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: الاستعلاء.

المطلب الثاني: تكذيب الرسل والتشكيك في مصداقيتهم.

المطلب الثالث: الصد عن سبيل الله.

وخصصت الثاني لمظاهر الاستضعاف، والتي عددها في ستة مظاهر، خصصت لكل مظهر مطلبًا مستقلًا به، وفق الآتي:

المطلب الأول: الاستهزاء والسخرية.

المطلب الثاني: التضييق في الأرزاق وسبل العيش.

المطلب الثالث: الإغراء.

المطلب الرابع: السجن والتنكيل.

المطلب الخامس: النفي والتشريد.

المطلب السادس: الإعدام (الفردي والجماعي).

- الفصل الثالث: خصص لبيان جزاء المستكبرين والمستضعفين في القرآن الكريم، واشتمل على مبحثين:

أولهما: جزاء المستكبرين، وضم مطلبين هما:

المطلب الأول: الجزاء الديني.

المطلب الثاني: الجزاء الأخروي.

والثاني: جزاء المستضعفين ويشمل هو الآخر مطلبين:

المطلب الأول: جزاء المستضعفين الظالمين.

المطلب الثاني: جزاء المستضعفين المؤمنين.

- الفصل الرابع: درست فيه سبل مقاومة الاستكبار وعلاج داء الاستضعاف في ضوء ما جاء به القرآن الكريم، وضم هذا الفصل خمسة مباحث هي:

المبحث الأول: الإيمان بالله واتباع الهدى.

المبحث الثاني: الهجرة.

المبحث الثالث: الجهاد.

المبحث الرابع: بيان عاقبة الاستكبار والاستضعاف في الآخرة.

المبحث الخامس: تعبئة أبناء الأمة ليصبحوا حملة رسالة.

ثم انتهى البحث إلى خاتمة عامة في تحصيل نتائج البحث وآفاقه المستقبلية.

صعوبات البحث:

إن إنجاز هذا البحث، وفق الخطة الأنف عرضها، اعترضته عقبات، وواجهته صعوبات قبل أن يشتد عوده ويستوي على سوقه، وهي صعوبات تتعلق بموضوع الرسالة ومنهج البحث فيه.

فأما التي تتعلق بالموضوع فتتمثل في كون النص المدروس ليس كأي نص، إنه القرآن الكريم، كلام الله الذي ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ قُضِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فالإحاطة بجوانبه تنوء بالعصبة أولي القوة، إن لم تكن ضرباً من المحال. فهو معجز في نظمه وشكله وموضوعاته التي لا زالت مفاهيمها تتجدد مع توالي الأحداث والأيام، يجمع إلى محتواه الخالد تعبيراً رائعاً وقوة بيان ودقة تركيب ونصاعة وضوح.

وصاحب البحث قليل الزاد، ضعيف الوسيلة والحيلة، يعتربه النقص من كل جانب ويشعر بالتقصير في جنب الله تعالى، فكيف له أن يحرق في بحر لجي؟ وكيف له أن يفوض في أعماقه، ويطوف بين خلجاته وشعابه، ليتلفظ نزرًا من درر معانيه وحلل مبانيه؟!

أما التي تتعلق بالمنهج فتتمثل في «منهج الدراسة المصطلحية» من حيث طبيعته وصعوبة استيعاب أركانه على الوجه الأكمل والصورة المثلى، فهو منهج متفرد في بابه متين في بنائه، تطبعه العلمية والمنهجية والتكاملية. وكلها جوانب تفرض على الباحث قدرًا كبيرًا من الاجتهاد للإلمام به وتطبيق قواعده.

وإنها لمسؤولية عظيمة وأمانة جسيمة تنوء بحملها الجبال.

وفي الختام أحمد الله حمدًا كثيرًا على توفيقه وتيسيره، وأسأله العفو والمغفرة على ما كان مني من التقصير والخطأ والنسيان، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به عباده وسائر الناس من خلقه.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي العزيز وأبي الحنون الدكتور الشاهد البوشيخي، الذي رعى هذا البحث وأشرف عليه منذ ولادته وإلى أن استوى على صورته الحالية. ولم يبخل على صاحبه بتوجيهاته النيرة ونصائحه الرشيدة. فجزاه الله عني وعن سائر المسلمين أوفى الجزاء وأفضل العطاء، وحفظه الله ذخراً وملأه للعالم والعلماء وبارك في عمره.

كما لا يفوتني أن أشكر من أعانني بقليل أو كثير في إنجاز هذا البحث.

والله ولي التوفيق وهو يهدي إلى سواء السبيل

البَابُ الْأَوَّلُ

مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم
دراسة مصطلحية

ويشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: التعريف.

الفصل الثاني: علاقات الاستكبار والاستضعاف في
القرآن الكريم.

الفصل الثالث: ضمام الاستكبار والاستضعاف في
القرآن الكريم.

الفصل الرابع: مشتقات الاستكبار والاستضعاف في
القرآن الكريم.

الفصلُ الأوَّلُ

التعريف

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم الاستكبار والاستضعاف:

دراسة معجمية لغوية واصطلاحية.

المبحث الثاني: مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم:

إحصاء وتصنيف وتعريف.

الْمِجْتُ الْأَوَّلُ

مفهوم الاستكبار والاستضعاف:
دراسة معجمية لغوية واصطلاحية

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

مفهوم الاستكبار: دراسة معجمية لغوية واصطلاحية

أولاً: في اللغة:

تدور مادة (ك، ب، ر) في اللغة حول أصل يدل على خلاف الصغر. ومنه تفرعت معاني سائر الصيغ والاستعمالات. قال ابن فارس: «الكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغر»^(١).

وباستقراء مختلف الاستعمالات، تبين أن الأصل في الكبر أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني. لذلك فرق المعجميون بين كبر بالفتح والكسر وكبر بالضم، فالصيغة الأولى تدل على الطعن في السن، قال ابن دريد: الكبر ضد الصغر، كبر إذا أسن^(٢). وأما كبر بالضم فتدل على المشقة وعلى علو المنزلة، بمعنى العظمة. يقال: كبر الأمر وخطب كبير، وكبر على ذلك، إذا شق عليك^(٣). «ويقال كبر بالضم يكبر أي عظم فهو كبير»^(٤)، قال الزمخشري: «وكبر الرجل في قدره وكبر في سنه»^(٥).

نستنتج من هذا أن صيغة «كبر» لها معنيان: أحدهما: حقيقي، هو الزيادة في السن، وثانيهما: مجازي، هو زيادة في كلفة الشيء أو زيادة في منزلة إنسان ما وقدره. ولذلك أمكن حصر المعاني الجزئية التي وردت بها مشتقات المادة اللغوية في معنى كلي جامع هو: الزيادة. أما صيغة «استكبر» فهي اشتقاق من «كبر» على وزن «استفعل»، بزيادة الألف والسين والتاء. وهي مشتقة من «كبر» بالضم بدلالة العظمة لا بدلالة المشقة.

(١) معجم مقاييس اللغة «كبر».

(٢) الجمهرة «كبر». انظر أيضاً: تهذيب اللغة «كبر»، والصحاح «كبر»، واللسان «كبر».

(٣) اللسان «كبر»، والقاموس المحيط «كبر».

(٤) أساس البلاغة «كبر».

(٥) اللسان «كبر».

وصيغة « استكبر » هي في معنى « تكبر » حيث إن « استفعل » تأتي في أحد معانيها موافقة لـ « تفعل » قال أبو حيان في « البحر المحيط » في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَاسَّاتَرَهُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٤]: الاستكبار والتكبر: وهو مما جاء فيه استفعل بمعنى تفعل^(١).

وبيان ذلك أن الخماسي على وزن: « تفعل » يأتي للدلالة على تكلف الكبر، ويأتي السداسي على وزن « استفعل » للدلالة على الإسراف والمبالغة في التكبر^(٢).

قال سيويه وهو يتكلم في باب « استفعلت »: « وإذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في أمر حتى يضاف إليه ويكون من أهله، فإنك تقول تفعل... وقد دخل استفعل هاهنا، قالوا: تعظم: استعظم وتكبر واستكبر »^(٣).

وجاء في الخصائص لابن جني وهو يتحدث عن معاني صيغة « استفعل »: « وقد يأتي موافقاً لتفعل وافتعل وأفعل وفعل، مثل استكبر في تكبر »^(٤) يقال: استكبر الشيء: رآه كبيراً وعظم عنده، واستكبر المرء: تعاضم أو تعظم^(٥)، والكبر العظمة والتجبر^(٦)، والتكبر والاستكبار: التعظم^(٧) وكلها ألفاظ متقاربة كما قال الراغب^(٨).

ثانياً: معاني الاستكبار في معاجم الاصطلاح:

ورد في جل المعاجم الاصطلاحية التي درست المصطلح القرآني، أن الاستكبار والكبر والتكبر ألفاظ متقاربة من حيث المعنى^(٩).

فالاستكبار يطلق باعتبارين:

أحدهما: تحري الإنسان وطلبه أن يكون كبيراً، وهذا إذا كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الزمان الذي يجب فهو محمود غير مذموم.

الثاني: أن يتشبع، فيظهر من نفسه ما ليس له، أو يرى نفسه أكبر من غيره بما أنعم الله

(١) البحر المحيط (١/ ٢٤٨).

(٢) الكتاب (٤/ ٧١).

(٣) جهرة اللغة « كبر »، واللسان « كبر »، والقاموس المحيط « كبر »، وتاج العروس « كبر ».

(٤) تاج العروس « كبر ».

(٥) المفردات « كبر ».

(٦) انظر: المفردات « كبر »، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤٤/ ٣٢٥، ٣٢٦)، وعمدة الحفاظ في

تفسير أشرف الألفاظ « كبر ».

عليه من مال أو جاه. وهذا هو المذموم.

وجميع ما ورد في القرآن الكريم من الاستكبار من هذا النوع، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبِرُوا أَنْتَكِبَارًا﴾ [نوح: ٧]، وقوله: ﴿أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧].

والتكبر يقال على وجهين أيضًا:

أحدهما: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره، وبهذا وصف الله تعالى نفسه فقال: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

الثاني: أن يوصف به من يتشبع بما ليس له، ويتكلف ذلك، وهذا في وصف عامة الناس. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْمَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

ومن وصف بالتكبر على الوجه الأول فمحمود، ومن وصف به على الوجه الثاني فمذموم.

والكبر هو الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره.

وأعظم الكبر والتكبر: ما وقع في جانب أوامر الله ونواهيه، وذلك أن يتكبر على أداء طاعته ولا يترجر عن ارتكاب معاصيه.

المطلب الثاني

مفهوم الاستضعاف: دراسة معجمية لغوية واصطلاحية

أولاً: في اللغة:

تدور مادة (ض، ع، ف) في اللغة حول معنيين مختلفين، أحدهما يدل على خلاف القوة، ويدل الآخر على أن يزداد على أصل الشيء فيجعل مثلين أو أكثر.

قال ابن فارس: الضاد والعين والفاء أصلان متباينان: يدل أحدهما على خلاف القوة، ويدل الآخر على أن يزداد الشيء مثله.

فالأول: الضعف والضعف، وهو خلاف القوة، يقال: ضعف بضعف، ورجل ضعيف وقوم ضعفاء وضعاف.

وأما الأصل الآخر، فقال الخليل: أضعفت الشيء إضعافاً، وضعفته تضعيفاً وضاعفته مضاعفة، وهو أن يزداد على أصل الشيء فيجعل مثلين أو أكثر^(١).
والذي يعنيها في بحثنا هو الأصل الأول دون الثاني.

هذا وقد ميز بعض المعجميين بين الضعف بالفتح والضعف بالضم. قال الخليل: الضعف بالضم في البدن، والضعف بالفتح في العقل والرأي^(٢).

وقيل: هما لغتان في الوجهين^(٣). وخص الأزهري بذلك أهل البصرة، فقال: هما عند أهل البصرة سيان، يستعملان معاً في ضعف البدن وضعف الرأي^(٤).

والاستضعاف اشتقاق من الضعف. يقال: استضعف يستضعف استضعافاً. فالزيادة بالألف والسين والتاء للعد، وهو أحد معاني صيغة « استعمل »^(٥).

وقال الفيروزآبادي: وضعفه تضعيفاً، عده ضعيفاً كاستضعفه وتضعفه^(٦)، واستضعفه وتضعفته: وجدته ضعيفاً فركبته بسوء^(٧).

ثانياً: معاني الاستضعاف في معاجم الاصطلاح:

لم تفصل المعاجم التي اهتمت بالمصطلح القرآني في بيان معنى الاستضعاف في القرآن الكريم، في مقابل تركيزها على معنى « الضعف » في اللغة^(٨).

وهذه بعض النماذج تؤكد ذلك:

قال الراغب: واستضعفته وجدته ضعيفاً، قال: ﴿ وَالسُّتَّعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ [النساء: ٧٥]، ﴿ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء: ٩٧]، ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَّفُونِي ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقول بالاستكبار في قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا

(١) معجم مقاييس اللغة « ضعف ».

(٢) العين « ضعف »، وانظر: المخصص (٩٧/٢)، واللسان: « ضعف »، والقاموس المحيط: « ضعف »، وتاج العروس « ضعف »، والمفردات « ضعف ».

(٣) العين « ضعف ».

(٤) تاج العروس « ضعف ».

(٥) البحر المحيط (٢٣/١).

(٦) العين « ضعف »، واللسان « ضعف »، وأساس البلاغة « ضعف »، وتاج العروس « ضعف »، والمفردات « ضعف ».

(٨) انظر على سبيل المثال: المفردات، وبصائر ذوي التمييز، والتوقيف على مهمات التعاريف، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ.

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿ [سبأ: ٣٣] ^(١).

وقال الفيروزآبادي: واستضعفه، عده ضعيفاً. قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء: ٩٨] وتضعفه بمعناه، ومنه قوله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره» ^{(٢)(٣)}.



(١) المفردات «ضعف».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: عتل بعد ذلك زعيم (٤/ ١٨٧٠)، ومسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٩٠)، والترمذي في كتاب صفة جهنم، باب: ما جاء أن أكثر أهل النار النساء (٤/ ٧١٧)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب: من لا يؤبه به (٢/ ١٣٧٨).

(٣) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٤٧٦).

المبحث الثاني

مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم إحصاء وتصنيف وتعريف

المطلب الأول

مفهوم الاستكبار في القرآن الكريم إحصاء وتصنيف وتعريف

أولاً: إحصاء وتصنيف:

أ - بحسب الجذور:

أمكن حصر مواضع المشتقات التي ترجع إلى الجذر اللغوي المتمثل في مادة (ك، ب، ر) في واحد وستين ومائة موضع (١٦١).

وأما الجذر المفهومي فهو متفرع عن الأول، ويضم مجموع الصيغ والمشتقات التي ترجع إلى نفس الأصل المتمثل في « الاستكبار » أو « الكبر » أو « التكبر ». ومجموع مواضعها في القرآن الكريم ستون موضعاً (٦٠).

وفيما يلي جدول بإحصاء جميع الصيغ وحجم ورودها.

الصيغة	حجم ورودها	الصيغة	حجم ورودها	الصيغة	حجم ورودها
﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾	٢	﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾	٧	﴿تَتَكَبَّر﴾	١
﴿أَسْتَكْبَر﴾	٤	﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾	٣	﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾	١
﴿أَسْتَكْبَرْت﴾	١	﴿مُسْتَكْبِرًا﴾	٢	﴿مُتَكَبِّر﴾	٢
﴿أَسْتَكْبَرْت﴾	١	﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾	٢	﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾	٤
﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾	٣	﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾	١	﴿وَكِبْرًا نَا﴾	١
﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾	٢٠	﴿الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾	١	﴿أَكْبَر﴾	١
﴿يَسْتَكْبِر﴾	١	﴿كِبْرًا﴾	١	﴿الْكِبْرِيَّة﴾	١

وتكمن فائدة هذا التصنيف في أنه هو الأساس والمنطلق في فرز المفهوم المقصود بالدراسة من بين سائر المفاهيم المشاركة له في أصل المادة.

ب - بحسب أحوال الورد:

١ - زمن الورد:

بلغ مجموع الآيات المكية واحدًا وخمسين آية (٥١) والآيات المدنية تسع آيات (٩). ويعزى هذا التفاوت الكبير إلى كون الاستكبار موضوعًا عقديًا بالأساس، ذكر في جل الموارد، في معرض بيان رفض المستكبرين لرسالة الأنبياء وصددهم المستضعفين عنها ومنعهم من عبادة الله ﷻ.

ومما يؤكد هذا كونه ورد في كثير من النصوص القرآنية التي يقص الله ﷻ فيها نبأ الأمم السابقة، وكيف تعاملت مع أنبيائها ورسالتها، وجل النصوص - كما هو معلوم - من هذا النوع جاءت مكية، تناول قضايا العقيدة بالأساس، كذلك التي تحدثت عن استكبار قوم نوح على نوح واستكبار عاد على هود، واستكبار ثمود على صالح... أو تلك التي عرضت لتخاصم المستكبرين مع المستضعفين، سواء في الدنيا أو يوم القيامة أمام الله تعالى.

٢ - شكل الورد:

ونعني به، الصيغ الصرفية والتراكيب النحوية التي ورد بها المصطلح في القرآن الكريم:

أ - الاسمية والفعلية:

بلغ مجموع الصيغ الاسمية للفظ الاستكبار: (مصدرًا واسم فاعل وصفة...) ثماني عشرة صيغة (١٨). أما الفعلية فبلغ مجموعها اثنين وأربعين صيغة (٤٢).

وهذا يظهر خضوع مفهوم الاستكبار لسنة التغيير التي يمثلها حدث الفعل وأزمته. فالاستكبار بالأساس فعل ممارس أكثر منه صفة. إنه رفض لدعوة الأنبياء وصد عنها. لقد ارتبط بحركة الإعراض التي مثلتها أمم الأنبياء عبر التاريخ.

وهكذا جاء ورود بصيغة الفعل الماضي تسعًا وعشرين مرة (٢٩) وورد فعلاً مضارعاً ثلاث عشرة مرة (١٣). مما يفيد تجدده من المستكبرين وثباتهم عليه.

ب - الإفراد والجمع:

- ورد الاستكبار بصيغة المصدر مرتين في القرآن الكريم.
 - ورد الاستكبار اسم فاعل بصيغة (مستكبر) وبصيغة (متكبر)، مفردًا في أربعة مواضع (٤)، موضعين لكل صيغة، وورد جمعًا بصيغ: (مستكبرون) و (مستكبرين) و (المتكبرين) في أربعة مواضع (٤)، وبصيغة (المتكبرين) في أربعة مواضع كذلك (٤).

- ورد صفة بصيغة الجمع: (كبراء) في موضع واحد (١).

- ورد اسم تفضيل للجمع: (أكابر) في موضع واحد (١).

- وردت صيغة: (الكبرياء) في موضع واحد (١).

- ورد المصطلح فعلاً ماضياً بصيغة الجمع: « استكبروا » و « استكبرتم » ثلاثاً وعشرين مرة (٢٣). وورد بصيغة المفرد: (استكبر) و (استكبرت) في ستة مواضع (٦).

- ورد فعلاً مضارعاً بصيغة الجمع: (يستكبرون) و (تستكبرون) و (يتكبرون) في أحد عشر موضعاً (١١) وورد بصيغة المفرد: (يستكبر) و (تتكبر) في موضعين اثنين (٢).
 وتجدر الإشارة إلى أن كل صيغة أو شكل من هذه الأشكال النحوية والصرفية ينطوي على دلالات خاصة تميزه عن غيره، وسيأتي بيان ذلك في موضعه من البحث.

ثانياً: تعريف مقترح للاستكبار في القرآن الكريم:

الاستكبار في القرآن الكريم هو إحساس وهمي بالعظمة، يوصف به الشيطان والإنسان، يدفعهما إلى الامتناع عن قبول دعوة الله ﷻ.
 ثالثاً: تحليل التعريف إلى عناصره والاستدلال عليه:

يتضمن التعريف ثلاثة عناصر أساسية، هي:

الأول: الاستكبار إحساس وهمي بالعظمة:

قولنا بأنه إحساس يفيد أن الاستكبار خلق في النفس ابتداء. إنه من الأحوال الباطنة لا الظاهرة، فصاحبه يسكنه شعور مرضي بانتفاخ الشخصية وتضخم الذات، فكما أن الإنسان قد يصاب بالتهاب قد يتورم فيه جسده، كذلك قد يصاب بالتهاب معنوي تورم

فيه شخصيته.

أما وصفنا له بأنه وهمي فلا يبراز أن الاستكبار تكلف للكبر دون استحقاق، إذ يتوهم صاحبه أنه كبير وأنه فوق الجميع.

قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَخُودُهُ، فِي الْأَرْضِ يَكْبِرُ الْحَقُّ وَظَنًّا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]. فقله سبحانه ﴿يَكْبِرُ الْحَقُّ﴾ حال لازمة لعاملها، إذ لا يكون الاستكبار إلا بغير الحق^(١).

صفة الكبر والتكبر لا تكون إلا لله تعالى، لأنه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد، فلا جرم أن يستحق كونه متكبرًا.

إنه صفة ذم في حق جميع العباد وصفة مدح في حق رب العباد يدل على هذا ورود مادة الانصاف بالكبر في معظم النصوص القرآنية بصيغة (الاستفعال) أو (التفعل)، إشارة إلى أن المتصف بالكبر لا يكون إلا متطلبًا أو متكلفًا له. كما أن صيغة (الاستفعال) اقترنت في جميع النصوص بالمخلوق لا بالخالق.

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] لقد طلبوا الكبرياء في أنفسهم من حيث لا يملكونها. والكبر في الشخصية ينطلق من أصالة العظمة في الداخل، أما عندما تكون الشخصية مستعارة والقوة مستعارة، يعطاها المخلوق الآن لتذهب غداً بسبب أي طارئ أو عارض، فما معنى أن يشعر بأنه كبير، وهو في ذاته مخلوق ضعيف؟

وأما حقيقة العظمة فهي أن المتكبر يرى لنفسه فضلًا على الناس وحقًا ليس لغيره، فيحمله هذا الشعور على التعالي عليهم.

ومشكلة من يحمل هذا الخلق أن شخصيته تنتفخ ويعظم شأنه عند نفسه، فيبدأ باحتقار الناس من حوله في فكرهم ودعوتهم، واحتقار الدعوة إلى الحوار معهم، فهو يرى أنه أكبر من أن يحاور الآخرين أو يتعامل معهم، وأعظم من أن يستجيب لدعوة الحق عندهم.. وهكذا تتحرك الكبرياء في داخله لتظهر في حياته تمردًا على الحق وانحرافًا عنه واعتزازًا بالإثم والضلال وتجبرًا على الناس ظلمًا وعدوانًا.

إن الاستكبار في جوهره خلق باطن، موجب العجب، إما بالعنصر أو بالقوة المادية أو بالسلطان الذي يمتلكه المتصف به.

فمثال الاستكبار بدافع الإعجاب بالعنصر في القرآن الكريم، إبليس لعنه الله. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ كُوفِي خَلْقَ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ، وَنَفَخْتَ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ يَا أَيْلَيسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ، مِن طِينٍ ﴿٨١﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنَّا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٨٢﴾ [ص: ٧١ - ٧٧].

ففي هذه الآية يصور الله تعالى إبليس ككائن متمرد، يعيش في داخله زهو العظمة بالعنصر الذي خلق منه، مقابل آدم الذي خلق من تراب. فالنار بظنه وزعمه أعظم من التراب، مما يجعل لما يتولد منها سر العظمة بالنسبة لما يتولد من الآخر. وهذا ما دفعه إلى الاستكبار والتمرد على أمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام.

لقد ربط قيمة الكائن ودوره بالعنصر الذي يتكون منه، ولم يلتفت إلى الخصائص الروحية والفكرية والعملية التي ميز بها الله تعالى الإنسان عن باقي المخلوقات.

وقد يحمل الإنسان على الاستكبار اعتزازه بقوته المادية. فهي إن كانت بعيدة عن الحق، منبعثة من نفوس معرضة ومستعلية، تصير سبباً من أسباب الطغيان والاستكبار، إذ تحمله على نسيان بدئية البديهيّات، وهي أنه مخلوق ليموت. فبقدر ما يبني في هذه الدنيا، مشيداً ومتفاخراً، فإنه في المقابل يهدم بنيانه الإنساني، فيصبح البطش طبيعته، والتجبر ديدنه، فلا يزداد قلبه إلا قسوة ولا يزداد هو إلا بعداً عن أن يتأثر بنصح أو توجيه.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض الأقوام والأشخاص الذين اغتروا بقوتهم فاستكبروا وعموا عن معرفة الحق والهدى. من هؤلاء قبيلة عاد التي قال الله تعالى في شأنها: ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِعِمْرَانَ أَخْتَى لَهُمْ وَقَالُوا مَن أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾ [نصلت: ١٥].

فالاستكبار هنا سببه القوة التي تعطي أصحابها شعوراً كاذباً بأنه لم تعد هناك قوة تقف في وجوههم أبداً.

قال الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

وهذا الاستكبار فيه وجهان، الأول: إظهار النخوة والكبر، وعدم الالتفات إلى الغير،

والثاني: الاستعلاء على الغير واستخدامهم، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة، ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم فقال: ﴿أَوْلَتْزَبْرًا أَنْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم متقادين لله تعالى، خاضعين لأوامره ونواهيه^(١).

وأما أخطر ما يدفع الإنسان إلى الاستكبار فهو امتلاك السلطان. وأبرز مثال ضربه القرآن الكريم في هذا الباب قصة فرعون.

وهذه بعض النصوص تبرز ذلك:

- قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَكُنُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩].

- قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾ لِيُفْرَعُونَ وَمَلَأْنَاهُ قَلْبَهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥، ٤٦].

- قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْعِيهِمْ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِيهِمْ وَإِنَّهُمْ لَكُنُوزٌ لِلْمُفْسِدِينَ﴾ [الفصص: ٤١].

- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيلًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١].

- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٥١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَبَّرُ ﴿٥٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٥٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾

[النازعات: ٢١ - ٢٤].

كل هذه النصوص وغيرها تبين استكبار فرعون عن آيات الله، واستكباره على الناس بسبب امتلاكه السلطة عليهم. لقد اعتبر نفسه أرقى وأفضل من الآخرين، فدفعه هذا الشعور إلى الاستعلاء والاستبداد ومصادرة الحقوق. إن مثل هذا النموذج لا يهتم إلا برغباته وميولاته، ولا يعبأ سوى بأهوائه.

يقول الإمام الطاهر ابن عاشور في تفسيره للآية الرابعة من سورة القصص: «ومعنى العلو هنا الكبير، وهو المذموم، من العلو المعنوي، كالذي في قوله تعالى: ﴿يَجْمَعُلَهَا

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴿ [القصر: ٨٣] ومعناه: أنه يستشعر نفسه عالياً على موضع غيره، ليس يساويه أحد. فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره، غير محقوق لحق من دين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح وتجنب فساد وضرر، وإنما يتبع ما تحدره إليه شهوته وإرضاء هواه. وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلهاً^(١).

الثاني: الاستكبار صفة للشيطان والإنسان:

قولنا هذا ينفي الاستكبار عن الله ﷻ والملائكة وسائر الدواب والمخلوقات.

فليس تجد نصاً قرآنياً واحداً يوصف به المولى ﷻ بالاستكبار، لأنه طلب للكبر من غير استحقاق. أما الله تعالى فله جميع أنواع العلو والكبرياء. قال سبحانه: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْبِ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣].

يقول الإمام الرازي في تفسير الآية الكريمة: واعلم أن المتكبر في حق الخلق اسم ذم؛ لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس معه إلا الحقارة والذلة والمسكنة. فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حقه. أما الحق سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه سبحانه. ولهذا لما ذكر هذا الاسم قال: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، كأنه قيل: إن المخلوقين قد يتكبرون ويدعون مشاركة الله في هذا الوصف، لكنه سبحانه منزّه عن التكبر الذي هو حاصل للخلق؛ لأنهم ناقصون بحسب ذاتهم. فادعواهم الكبر يكون ضم نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أما الحق سبحانه فله العلو والعزة، فإذا أظهره كان ذلك ضم كمال إلى كمال^(٢).

ويقول الإمام القشيري: « المتكبر اسم من أسمائه تعالى ورد به نص القرآن، وتكبره وكبرياؤه ورفعته وعلاه ومجده وسناؤه وعلوه وبهاؤه كل ذلك إخبار عن استحقاقه لنعوت الجلال، وتقدهسه عن القائض والآفات، وكل ذلك يعود إلى ذاته وجوده على ما وصف^(٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/٢٩٤).

(١) التحرير والتنوير (٦٦/٢٠).

(٣) شرح أسماء الله الحسنى (ص ١٢٢).

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار»^(١).

قال الراغب: «أما الكبرياء فمعناه الترفع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه غير الله سبحانه»^(٢).

وأما نفي الاستكبار عن الملائكة فثبتته هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

[الأعراف: ٢٠٦] المراد بهم الملائكة بالإجماع، قاله القرطبي^(٣).

«والمعنى أن الملائكة مع نهاية شرفهم وغاية طهارتهم وعصمتهم وبراءتهم عن بواعث الشهوة والغضب وحوادث الحقد والحسد، لا يستكبرون لما كانوا مواطنين على العبودية والسجود والخضوع، فالإنسان مع كونه مبتلى بظلمات عالم الجسمانيات ومستعبداً للذات البشرية والبواعث الإنسانية أولى بالمواظبة على الطاعة»^(٤).

- وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَقَدْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩].

- وقوله سبحانه كذلك: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وأما نفي الاستكبار عن الدواب وسائر المخلوقات فتدل عليه الآية الكريمة التي قال فيها المولى ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. فالسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود - وهو أقصى مظاهر الخضوع - ويرسم المخلوقات داخراً أي خاضعة، خاشعة، طائعة ويضم إليها ما في السموات وما في الأرض من دابة، ويضيف إلى الحشد الكوني الملائكة، فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب، ومعهم الملائكة في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره، والمنكرون

(١) أخرجه مسلم، في كتاب البر والصلة والأدب، باب: تحريم الكبر، وأبو داود في كتاب اللباس، باب: ما جاء في

الكبر، وابن ماجه في كتاب الزهد.

(٢) المفردات «كبر».

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣٥٦/٧). (٤) مفاتيح الغيب (١١٥/١٥).

المستكبرون من بني الإنسان، وحدهم شواذ في هذا المقام العجيب^(١).
أما من جانب الإثبات فقد وصف بالاستكبار في القرآن الكريم كل من إبليس لعنه الله والكفار من الناس دون المؤمنين.

ففيما يخص استكبار إبليس، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]. ويقول أيضا: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةَ كُلُّهُمْ أَسْمَعُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ تَبٰٓءَٔيْسَ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٨١﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَٔيْتَهُمْ وَأَخْرِجْتَهُم مِّنْهَا فَأَخْرَجَ فِيهَا فَأَخْرَجَ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿٨٢﴾ [الأعراف: ١٣].

أما استكبار الكفار فتدل عليه نصوص كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّكْرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٣﴾ لَا جَرَءَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرَ مَا يُشْرُونَ وَمَا يَعْمَلُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٤﴾ [النحل: ٢٣، ٢٤]. وقوله ﷻ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِنِي فَكَلَّمْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ [الزمر: ٥٩]. وقوله أيضا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا نَآئِلًا أَوْ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ رَأَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ [الفرقان: ٢١].

ونماذج هؤلاء في القرآن الكريم مثلها أقوام الأنبياء عبر تاريخ الرسالات، من زمن نوح ﷺ إلى زمن النبي الخاتم محمد ﷺ، ومن أبرزهم: قوم نوح وقوم صالح وقوم شعيب وقوم عاد وفرعون وجنوده وبنو إسرائيل وكفار قريش ومناقفو المدينة، وكل الكفار عبر التاريخ.

وتخصيصنا للكافر بوصف الاستكبار نفي لهذا الوصف عن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ [السجدة: ١٥].

لقد أثنى المولى ﷺ على القوم الذين يؤمنون بآياته، ووصفهم بالصفات الحسنى، بسجودهم عند التذكير وتسيحهم وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفار من

الإعراض عند التذكير وقول الهجر وإظهار التكبر^(١).

يقول الشهيد سيد قطب: وهي صورة وضيئة للأرواح المؤمنة اللطيفة، الشفيفة، الحساسة، المرتجفة من خشية الله وتقواه، المتجهة إلى ربها بالطاعة، المتطلعة إليه بالرجاء في غير ما استعلاء ولا استكبار. هذه الأرواح هي التي تؤمن بآيات الله، وتلتقاها بالحس المتوقر والقلب المستفيض والضمير المستنير^(٢).

ومن النصوص المؤيدة كذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْجِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَمِيمُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي مَتَلَسِّكُوا فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣٠، ٣١].

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ، فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الاحقاف: ١٠].

الثالث: الاستكبار امتناع عن قبول دعوة الله عناداً:

ليس الاستكبار حالة نفسية لمن تكلف الكبر من غير استحقاق، إنما هو في القرآن الكريم تكذيب لدعوة الأنبياء وإعراض عنها ومحاربة لها بالأساس.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ إِلَهَيْنَا إِشَاعِرِي تَجْنُونِ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

لقد كذبوا بالتوحيد وبالنبوة، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

يعني ينكرون ويتعصبون لإثبات الشرك، ويستكفون عن الإقرار بالتوحيد، وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم: ﴿إِنَّا لَا تَارِكُونَ إِلَهَيْنَا لِشَاعِرِي تَجْنُونِ﴾ ويعنون محمداً ﷺ^(٣).

فهؤلاء ليسوا على الخطأ فحسب، إنما يتصورون أنفسهم على الحق، ولو جاءهم من بين خطأهم وزللهم رفضوه، وأخذتهم العزة بالإثم، وهذه من العقد النفسية الخطيرة، ذلك أن المقياس في الإيمان بالله هو التسليم للحق في كل الأحوال متى تبين، ولو خالف العرف الاجتماعي أو اعتقادات الفرد وسيرته السابقة. فهم يرفضون الدعوة ويستكبرون

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨١٢).

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٣٦١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ١٣٥).

عنها ويتهمون صاحبها بأرخص التهم؛ ولأن مقياسهم لم يكن الحق، إنما التراث والواقع القديم، لم يجدوا التقاء ولا انطباقاً بين ما عندهم وبين الرسالة الإلهية. وبالتدبر في الآيتين، يمكننا القول بأن هناك سببين رئيسيين وراء كفر هؤلاء بالرسالة، هما: الاستكبار على الحق والمقاييس الخاطئة لمعرفة. إنهم وأمثالهم لا ينطلقون في رفضهم للرسالة واستكبارهم عنها من فكرة مضادة يملكون الدليل عليها، ولا يتحركون انطلاقاً من شبهة اشبه الأمر فيها عليهم، ولكنهم ينطلقون من عقدة الكبرياء التي يعيشونها في أنفسهم، فيكون امتناعهم عن قبول دعوة الحق عناداً ليس إلا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦]، ويقول أيضاً: ﴿ يَبْنَىءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَنْقَضَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الاعراف: ٣٥، ٣٦] ضمن الاستكبار معنى الإعراض فعلق به ضمير الآيات، والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها^(١). يقول أبو حيان الأندلسي في تفسيره للآية: « والتكذيب هو بدو الشقاوة، إذ لا ينشأ عنه إلا الانهماك والافساد وقابل الإصلاح بالاستكبار؛ لأن إصلاح العمل من نتيجة التقوى، والاستكبار من نتيجة التكذيب، وهو التعاطف، فلم يكونوا ليتبعوا الرسل فيما جاؤوا به ولا ليقنطوا بما أمروا به؛ لأن من كذب بالشيء نأى بنفسه عن اتباعه^(٢) ».

قال ابن عطية: هاتان حالتان تعم جميع من يصد عن رسالة الرسول، إما أن يكذب بحسب اعتقاده أنه كذب، وإما أن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب^(٣).

ومن الشواهد القرآنية على إعراض الكافرين عن دعوة الله استكباراً كذلك، هذه النماذج من الآيات الكريمة:

- قال تعالى: ﴿ وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٠﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا

(٢) البحر المحيط (٤٦/٥).

(١) التحرير والتنوير (١١١/٨).

(٣) المحرر الوجيز (٢٩٧/٢).

يَأْهِلِهِ ﴿٤٣، ٤٢﴾ [فاطر: ٤٣، ٤٢].

- وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِ ءَابُنُنَا وَكُنَّا مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ لَنَا بَسْمَعَهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَنَسِئَتْ يَدَايَ إِلَىٰ السَّمَاءِ﴾ [النمان: ٧].

- وقال: ﴿وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لِيَتَغَيَّرَ لَهْمُهُمْ جَمَلُوا أَصْيَعُهُمْ فِي ءَادَانِهِمْ وَأَسْتَفْتُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَرَا﴾ [نوح: ٧].

- وقال كذلك: ﴿وَلَيْلٍ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنَّ لَهُ بَسْمَعَهَا فَيَسِئَةُ يَدَايَ إِلَىٰ السَّمَاءِ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَابُنُنَا سَبًّا أَوْ أَخَذَهَا هَزُؤًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الجنابة: ٧-٩].

فهو يسمع آيات الله ثم يصير مستكبراً، وحالة تكرر سماعه الآيات وتكرر إصراره مستكبراً عنها تحمله على تكرير تكذيب الرسول ﷺ وتكرير الإثم، فلا جرم أن يكون أفافاً أثيماً. وهو كذلك له مقامان:

الأول: أن يبقى مصراً على الإنكار والاستكبار، فهو يصير عند سماع آيات الله وليس إصراره متأخراً عن سماعها، لذلك عبر المولى ﷺ بـ (ثم) التي تفيد التراخي الرتيبي، متعظماً عند نفسه عن الانقياد للحق.

الثاني: أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام الاستهزاء: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَابُنُنَا سَبًّا أَوْ أَخَذَهَا هَزُؤًا﴾ وكان من حق الكلام أن يقال: اتخذه هزواً: أي اتخذ ذلك الشيء هزواً. إلا أنه تعالى قال: ﴿أَخَذَهَا﴾ للإشعار بأن هذا الكافر إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد^(١).

وباستقرائنا للنصوص موضوع البحث، نقف على أربعة موانع مختلفة يتدرج بها المستكبرون في رفضهم للرسالة وإعراضهم عنها ومحاربة أهلها. وهي كالآتي:

- المانع الأول: مخالفة الرسالة لهوى المستكبرين:

يقول تعالى حكاية عن بني إسرائيل: ﴿أَقْكَلَمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ يَعْمَلُ آيَاتِنَا عَلَيْكُمْ فَانْتَكَبْتُمْ عَلَيْهِ فَبِئْسَ مَا كَفَرْتُمْ فَنَقَلْنَاهُ مِنْكُمْ وَإِنَّا فَاعِقُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢٧/٢٦٢)، والبحر والفتوح (٢٥/٣٣١، ٣٣٢).

فهم يظالبون بتشريع ينسجم مع ما يهوونه من الاعتقاد والعمل وما يريدونه من الفحشاء والمنكر والفساد. وبما أن الهوى لا يقف عند حد ولا يستقر على قرار فإنهم يريدون مع كل جيل كوناً جديداً ينسجم مع حركتهم. * إنها ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني في ذاته، المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت غير المصدر الإنساني المتقلب ^(١).

- المانع الثاني: مخالفة الرسالة لما كان يعبد الآباء والأجداد:

إن الحفاظ على سنة الآباء والأجداد والتمسك بها، قد يصل بالبعض إلى حد التعصب الأعمى لها، هذا التعصب الذي يفقد فيه الإنسان صوابه ويفقد معه التفكير السليم والمنطق الصحيح، فلا يستجيب لنداء العقل ويأبى إلا أن يصير كالبهيمة، بل هو أضل.

وهذه بعض الشواهد القرآنية التي تبرز رفض المستكبرين عبر تاريخ الرسالات لدعوة أنبيائهم احتجاجاً بهذه الحجة الباطلة:

- يقول تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا سِوَا مَا يَعْبُدُونَ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الاعراف: ٧٠].

- قوله سبحانه: ﴿ قَالُوا بَصَلِحْ فَذَكَّتْ فِينَا مَرْجُوًا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢].

- قوله ﷺ: ﴿ قَالُوا يَنْشَعِبُ أَسْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْزَانَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَنْقُلُونِ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْخَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ الشَّكْرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنُؤْمِنَ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِرْبِيُّهَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٥ - ٧٨].

لقد وجدوا في التوحيد قيماً، وجدوا فيه افعال ولا تفعل. أما ما كان يعبد الآباء فلا قيد

فيه، لأن الأصنام لا تأمر ولا تنهى، وعلى هذا تكون أهواؤهم طليقة والقوي فيهم سيداً لا قانون إلا قانونه! فالجماعم عندهم تحت التراب تراث، ورفض التراث في قانونهم جريمة، والجماعم تحت التراب على هداها يسير الأحياء، والشيطان لهم دليل. إنه عالم الصم، البكم، العمي، الذين لا يعقلون.

يقول الشهيد سيد قطب: «إنه مشهد بانس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول، هذا الاستعباد الذي يسلب الإنسان خصائصه الأصلية: حرية التدبير والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبداً للعادة والتقليد وعبداً للعرف والمألوف وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور» (١).

- المانع الثالث: رفض بشرية الرسل:

- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٨﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٧].

المستكبرون لا يحملون فكراً يجابه الفكر الرسالي، بل هم صورة لعقلية ضيقة، تفكر بشخص الرسول لا بكلماته، مستغرقة في الأجواء الذاتية والأحوال الاجتماعية لأهل الدعوة، فيكون الموقف من الرسالة مرتبطاً بشخصية الداعية ومركزه الاجتماعي ونوعية أتباعه، أمن الأشراف أم من الأراذل؟ دون أن تأخذ الفكرة أي حساب أو اعتبار.

إنهم لا يفكرون في المصير من خلال ما تدعوهم إليه الرسالة، بل من خلال وضعهم الاجتماعي الذي يحتم عليهم التحرك في نطاقه. يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْأَسْرِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِۦ مَا تَرْتَلِكُ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرْتَلِكُ إِلَّا الْآلِئِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَىٰ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٥ - ٢٧].

لقد استحوذ الشيطان على عقولهم فساروا ورجون لثقافة البشر الرسول، تلك الثقافة التي وضع إبليس أصولها يوم رفض السجود لأدم، وتركزت مقولاتها على امتداد التاريخ الإنساني. فالشيطان رفض البشرية من أساسها وظن في نفسه أنه أعلى منها مقاماً، ليسير

على نهجه من البشر كل صاحب هوى وكل صاحب عدة وجموع، يرى نفسه أنه أعلى مقاماً من الذي يدعوه، فتشكل هذا الطابور من أولياء الشيطان المعتمدين على ما يمكن تسميته بـ «ثقافة التحقير» بكافة أدواته من سب وطمع واستهزاء.

- المانع الرابع: الخوف على فوت المصالح وفقدان الرياسة:

- قال تعالى: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٨].

فهم إذا أجابوا أنبياء الله وصدقوهم، صارت مقاليد أمر الناس إليهم ولم يبق للملك رياسة تامة؛ لأن تدبير الناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات^(١).

إنه السلطان المهتد بالدينونة للرب الواحد، إنها عقدة الحاكمة تجمع بهم ويعلمون من خلالها الإصرار على التكذيب قبل أن يواجهوا البرهان - قطعاً للطريق على البرهان - وهي حالة نفسية تصيب المتجبرين حين يدمغهم الحق وتجههم البيئة ويطاردهم الدليل، بينما هواهم ومصالحتهم وملكهم وسلطانهم كله في جانب آخر غير جانب الحق والبيئة والدليل^(٢). هذه هي العلة القديمة الجديدة التي تدفع كل الطغاة إلى محاربة الدعاة واختلاق شتى المعاذير لرفض كل ما من شأنه أن يحدث تغييراً في المنهج الذي ألفوه وحملوا الضعفاء من الناس على التسليم به والسير وفقه خوفاً على امتيازاتهم.

المطلب الثاني

مفهوم الاستضعاف في القرآن الكريم

إحصاء وتصنيف وتعريف

أولاً: إحصاء وتصنيف:

١ - بحسب الجذور:

تبلغ مواضع مشتقات الجذر اللغوي (ض، ع، ف) في القرآن الكريم اثنين وخمسين موضعاً (٥٢). ويبلغ عدد مواضع مختلف المشتقات والصيغ التي ترجع إلى نفس

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٥٨).

(١) انظر: فتح القدير (٢/ ٤٦٥).

الأصل المفهومي الدائر حول الاستضعاف أربعة عشر موضعاً (١٤).

وهذا جدول بإحصاء جميع الصيغ ذات الصلة بالمفهوم وحجم ورودها:

حجم ورودها	الصيغة
١	﴿ اسْتَضْعَفُونِي ﴾
٥	﴿ اسْتَضْعِفُوا ﴾
١	﴿ يَسْتَضْعِفُ ﴾
١	﴿ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾
١	﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾
١	﴿ مُسْتَضْعَفِينَ ﴾
٢	﴿ الْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾
٢	﴿ الضُّعَفَاءُ ﴾

ب - بحسب أحوال الورد:

١ - زمن الورد:

بلغ مجموع الآيات المكية عشر آيات (١٠). والآيات المدنية أربع آيات (٤).

موضوع الآيات المكية:

عرضت ست آيات لمسألة الحوار بين المستضعفين والمستكبرين، حوار جرى بينها قبل البعث^(١)، وآخر دار بينهما أمام الحق سبحانه.

فمن جانب يحاول المستضعفون إلقاء تبعات ما هم فيه على المستكبرين، وفي الجانب الآخر يتبرأ هؤلاء منهم^(٢).

وتقص الآيات الأخرى استضعاف بني إسرائيل لسيدنا هارون^(٣) واستضعاف هؤلاء من طرف فرعون^(٤) ومن المولى ﷺ بالوراثة على المستضعفين^(٥).

(٢) إبراهيم: ٢١، وسبأ: ٣١ - ٣٣، وغافر: ٤٧.

(١) الأعراف: ٧٥.

(٤) القصص: ٤.

(٣) الأعراف: ١٥٠.

(٥) الأعراف: ١٣٧، والقصص: ٥.

موضوع الآيات المدنية:

وردت ثلاث آيات في سورة النساء: بينت واحدة ضرورة القتال من أجل نصرة دين الله ونصرة المستضعفين العزل بمكة في بداية عهد الدعوة^(١)، ونجد في الثانية إلقاء الملائكة باللائمة على المستضعفين الذين كان بإمكانهم الهجرة ونصرة الإسلام ولم يفعلوا^(٢)، وفي الثالثة يبين الله تعالى من هم المستضعفون حقاً والذين يعذبون بعدم قدرتهم على الهجرة لمانع من الموانع الحقيقية^(٣).

أما الآية الرابعة ففيها تذكير الله تعالى المؤمنين - بعد تمكثهم وعزتهم - بواقع الاستضعاف والقلة الذي عاشوا فيه بمكة قبل الهجرة^(٤).

٢ - شكل الورد:

أ - الاسمية والفعلية:

بلغ مجموع الصيغ الاسمية للفظ الاستضعاف ست مرات (٦) معظمها ورد بصيغة اسم المفعول، وذلك في أربعة مواضع (٤)^(٥). وفي موضعين اثنين ورد اللفظ صفة^(٦).

أما الصيغ الفعلية فبلغ مجموع مواردها ثماني مرات (٨)^(٧).

ورد الفعل مبنياً للمجهول في ستة مواضع (٦) وجاء مرة واحدة بصيغة الماضي^(٨) وأخرى بصيغة المضارع^(٩).

يلاحظ أن مصطلح الاستضعاف ورد بصيغة الفعل أكثر، وجاء الفعل في معظم الموارد بصيغة المبني للمجهول للدلالة على أن الاستضعاف هو فعل واقع على فئة من الناس لضعف حالهم حقاً ومعنى. كما أن وروده أربع مرات (٤) بصيغة اسم المفعول يدل على ثبات وصف الاستضعاف في من استضعف.

ب - الأفراد والجمع:

- ورد اسم المفعول: « مستضعفون » و « المستضعفين » جمعاً في جميع موارد التي

(١) النساء: ٧٥.

(٢) النساء: ٩٧.

(٣) الأنفال: ٢٦، والنساء: ٧٥، ٩٧، ٩٨.

(٤) الأنفال: ٢٦، والقصاص: ٥، ٤، وسبأ: ٣١ - ٣٣.

(٥) إبراهيم: ٢١، وغافر: ٤٧.

(٦) الأعراف: ١٥٠، ١٣٧، ٧٥، ١٥٠، والقصاص: ٥، ٤، وسبأ: ٣١ - ٣٣.

(٧) الأعراف: ١٥٠.

(٨) الأعراف: ١٥٠.

(٩) القصص: ٤.

بلغت أربع مرات (٤).

- وردت الصفة المشبهة «الضعفاء» جمعاً في مورديها معاً.

- ورد المصطلح بصيغة الفعل بضمير الجمع في ستة مواضع (٦). وبضمير المفرد

في موضعين اثنين.

ثانياً: تعريف مقترح للاستضعاف في القرآن الكريم:

الاستضعاف في القرآن الكريم هو فعل واقع على المستضعفين، إنه طلب الضعيف

بالقهر لاستعباده وفتته عن دينه.

ثالثاً: تحليل التعريف إلى عناصره والاستدلال عليه:

يتألف التعريف من ثلاثة عناصر، هي:

الأول: الاستضعاف فعل واقع على المستضعفين:

الاستضعاف علاقة بين طرفين: طرف مستضعف وطرف مستضعف، إنه إيقاع الظلم

والقهر والاستغلال من فئة قوية مسيطرة على فئة ضعيفة مسلوبة الحقوق. فهو ليس فعلاً

صادراً عن الفئة الثانية، بل هو ممارس عليها من قبل الفئة الأولى.

يقول الإمام الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ آسَفُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْفُلَاتٍ مِّنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥]: «واعلم أنه وصف أولئك الكفار بكونهم

مستكبرين ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين، وكونهم مستكبرين، فعل

استوجبوا به الذم، وكون المؤمنين مستضعفين معناه أن غيرهم يستضعفهم ويستحقروهم،

وهذا ليس فعلاً صادراً عنهم بل عن غيرهم، فهو لا يكون صفة ذم في حقهم، بل

الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم»^(١)، ومما يؤكد هذا القول ورود

مصطلح الاستضعاف في جل الموارد بصيغة الفعل المبني للمجهول^(٢) وبصيغة اسم

المفعول^(٣).

(١) مفاتيح الغيب (١٤/١٧٢).

(٢) انظر: الأعراف: ١٣٧، ٧٥، القصص: ٥، سبأ: ٣١-٣٣.

(٣) انظر: النساء: ٧٥، ٩٧، ٩٨، الأنفال: ٢٦.

الثاني: الاستضعاف هو طلب الضعيف بالقهر:

إن ضعف القوة المادية أو الروحية المعنوية في شخص ما أو في قوم ما، يغري من هم أقوى منهم بالاعتداء عليهم من أجل إخضاعهم والسيطرة عليهم وتسخيرهم في خدمتهم وخدمة مصالحهم. وهذا العداة بين الأقوياء والضعفاء يشتد إذا كان الضعفاء يخالفون الأقوياء في معتقداتهم وتصوراتهم.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن نوعين من الضعف، يتصف به أولئك الذين أخضعوا وسلبت حرياتهم:

النوع الأول: الضعف المادي، والمتمثل في الفقر وقلة العدد والعدة، ورثاة الحال:

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ مَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَيُدَّكُمْ بِبَصَرِهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لِمَّا كُنتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

قال قتادة بن دعامة السدوسي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً وأشقاء عيشاً وأجوعه بطوناً وأعره جلوداً وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقيماً ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون. والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس»^(١).

ويذكر القرآن الكريم نموذجاً آخر لهذا النوع من الضعف في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فَيْسًا ضَعِيفًا لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

فقومه يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة، فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي واجههم بها، فهم رأوا فيه ذلك الضعيف الذي لا قوة له ولا مناعة، فلا يقدر على مدافعتهم إذا أرادوا أذاه^(٢).

إن المستضعف في هذه الحالة يكون معذوراً في ضعفه، فهو في قرارة نفسه يرفض الذل والهوان والخنوع والتخلي عن دينه لإرضاء الفتنة المستكبرة، لكنه لا يستطيع تغيير

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٨٨).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم (٤/ ٢٣٥)، وفتح القدير (٢/ ٥٢٠)، وروح المعاني (١٢/ ١٢٣)، والتحرير

والتوير (١٢/ ١٤٨).

وضعه بسبب ضعف في الجسم أو قلة في العدد والعدة. لهذا وجب القيام لنصرته والذود عنه. يقول المولى سبحانه: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

النوع الثاني: الضعف المعنوي: المتمثل في الوهن ومرض القلب وسقوط الهمة وقلة النخوة والتنازل عن الكرامة:

والمستضعف في هذه الحالة يكون بمقدوره تغيير واقعه لكنه لا يفعل، فهو في الحقيقة يملك القدرة على الخروج مما هو فيه لكنه يعلم أن هذا سيكلفه بعض التضحية، فيمتنع عن ذلك لهوى في نفسه أو جبن أو خور يسري في عروقه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ مَلَائِكَةً ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَاوْلَئِكَ مَاوْتَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧]، هذه الآية الكريمة نزلت في ناس من مكة، أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة، وقيل إن بعضهم خرج مع المشركين إلى بدر فقتل بأيدي المسلمين^(١) تسألهم الملائكة تويخاً لهم: في أي شيء كنتم من أمور دينكم؟ فأجابوا: إنهم كانوا مستضعفين في الأرض وأن الكافرين منعوهم من إقامة الحق، وهم كانوا عاجزين عن مقاومتهم. ولكنهم في الحقيقة غير معذورين، فهم بجبههم لبلادهم وإخلادهم إلى أهليهم ومعارفهم ضعفاء في الحق. فلم يكن العجز الحقيقي هو الذي حملهم على قبول الذل والهوان والاستضعاف والفتنة عن الإيمان، إنما كان هناك مانع آخر هو حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم^(٢).

ويصف سيد قطب - رحمه الله - هؤلاء بالعبيد فيقول: « ليس العبيد هم الذين تقهرهم الأوضاع الاجتماعية والظروف الاقتصادية على أن يكونوا رقيقاً يتصرف فيهم السادة كما يتصرفون في السلع والحيوان، إنما العبيد الذين تعفيهم الأوضاع الاجتماعية والظروف الاقتصادية من الرق، ولكنهم يتهافتون عليه طائعين^(٣) ».

لذلك وصف الله تعالى هؤلاء وأمثالهم بالظلم، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ

(١) أمثال: فيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة، انظر: إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٢٣).

(٢) انظر: جامع البيان (٩/ ١٠٠)، وإرشاد العقل السليم (٢/ ٢٢٢)، والجامع لأحكام القرآن (٥/ ٣٤٦)، وفي ظلال القرآن (٢/ ٤٩٩).

(٣) دراسات إسلامية (ص ١٢٩).

مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَجِعَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَلْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ [س: ٣١]، وحققة القهر أن المستضعفين كانوا يسومون المستضعفين أنواع العذاب، يذيقونهم الخسف ويمنعونهم النصف.

قال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضَعُونَ فِي الْأَرْضِ مَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَتَاوَنَكُمْ وَيَتَوَنَّكُمْ وَيَصْرِكُمْ وَيَصْرِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

لقد كانوا بمكة مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم مشركو قريش لقتلهم وضعف قوتهم.

ويذكر ابن هشام في سيرته بعض الأخبار عن تعذيب المستضعفين من المسلمين على أيدي أهل مكة فيقول: «قال ابن إسحاق: ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه: فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم»^(١).

ومن الشواهد القرآنية الأخرى كذلك قوله سبحانه حكاية عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُهُمْ بَدِيحًا أَنَّاهُمْ هُمْ وَيَسْتَخِي. ذِيَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

إن فعل فرعون اشتمل على مفاصد عظيمة، أهمها:

١ - التكبر والتجبر: «فإنه مفسدة نفسية عظيمة، تتولد منها مفاصد جملة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته، وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم، والاجترأ على دحض حقوقهم وإراماقهم بعين الاحتقار، فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يتبز منافعهم لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته»^(٢).

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٣٩)، وانظر تاريخ الطبري (١/٥٤٥)، والسيرة النبوية، لابن كثير (١/٣٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/٦٨).

٢- « أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته، فيجعلها محقرة، مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى... [لقد جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية، وذلك فساد، لأنه يقرن الفاضل بالمفضول. من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية، أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره، ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة^(١). »

الثالث: الاستضعاف، استعباد وفتنة عن دين الله:

قصد المستضعفون من وراء قهرهم للمستضعفين استعبادهم وفتنتهم عن دينهم؛ لأن العبودية لله وحده هي التي تحرر الإنسان من كل خضوع للطاغوت. لقد حاول المستكبرون عبر تاريخ الرسالات استعباد المؤمنين وصددهم عن اتباع الأنبياء والرسل؛ لأن ذلك يمثل تهديداً لنفوذهم وتقويضاً لسلطانهم. فدين الله ﷻ ينافي المصالح الاستكبارية وينافي استغلال الحكم واستعماله لجمع الثروة وإخضاع الناس.

قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، لِيَلْذِينَ اسْتَضْعَفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلَيْمَانَ رَسَلْنَا مِنْ رَبِّنَا قَالَوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٧﴾ [الاعراف: ٧٥، ٧٦].

يقول سيد قطب في تفسيره لهذه الآية: « وهنا نلمح فجوة في السياق على سبيل الإيجاز والاختصار، فقد آمنت طائفة من قوم صالح واستكبرت طائفة. والملاهم آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان في الأرض وترده إلى إله واحد هو رب العالمين! ولا بد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربة الطاغوت من أعناقهم، بعبوديتهم لله وحده، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد! »

وهكذا نرى الملا المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد: ﴿ قَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، لِيَلْذِينَ اسْتَضْعَفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صُلَيْمَانَ رَسَلْنَا مِنْ رَبِّنَا ﴾ وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ولاستنكار إيمانهم به وللسخرة من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه^(٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٦٩).

(٢) في ظلال القرآن (٣/١٣١٣).

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿ [النساء: ٧٥].

لقد كان هؤلاء المؤمنون المستضعفون بمكة مضطهدين في دينهم، حاول الكفار بكل ما أوتوا من قوة فنتتهم وصددهم عن دينهم. لذلك وجب القتال في سبيل الله لإنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، « هؤلاء الذين ترسم صورهم في مشهد مشير لحماية المسلم وكرامة المؤمن ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق، هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم والفتنة في دينهم، والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض؛ لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني الذي تتبعه كرامة النفس والعرض وحق المال والأرض! »^(١).
وخلاصة القول أن مصطلح الاستكبار في القرآن الكريم يجمع بين الدلالة على التعاطف النفسي والدلالة على الإعراض عن دعوة الله.

كما أن مفهوم الاستضعاف في القرآن الكريم يشمل المسكين، المظلوم على قلة ماله وجاهه والمؤمن المستهزئ؛ به على دينه.

إن مفهوم الاستكبار والاستضعاف لا يكتمل مدلوله إلا إذا كان الاضطهاد في الرزق، وفي المقومات الأرضية مقترناً بالاضطهاد في العقيدة والشرع. وهذه هي الخصيصة التي أعطاهها القرآن الكريم لهذا المفهوم، والتي تميزه عن سائر المفاهيم الأرضية القاصرة.
إن هذا المفهوم المزدوج يجمع زيادة على التفاوت الاقتصادي وعلى الظلم الاجتماعي التي تتضمنه الكلمتان البعد النفسي الشعوري والبعد الديني.

المستكبرون والمستضعفون كما يقص الله ﷻ علينا نبأهم في القرآن، نزاعهم ليس على الأرزاق فقط، بل يتعداه إلى نزاع مركب، كلي شمولي، في معاني استردال فئة لفئة واحتقارها والاستعلاء عليها ومنعها أن تعبد الله؛ لأن العبودية لله وحده هي التي تتناقض مع الاستعباد والجور.



الفصل الثاني

علاقات الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: علاقات الاستكبار.

المبحث الثاني: علاقات الاستضعاف.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

علاقات الاستكبار

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

علاقات الائتلاف

العلو

اقترن الاستكبار بالعلو في نصين قرآنيين كريمين هما:

١ - قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّي خَلِقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوْا لَهٗ سٰجِدِيْنَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجْمَعِيْنَ ﴿٧٨﴾ اِلَّا اِبٰلِيْسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٧٩﴾ قَالَ يَاۤاٰدِيْمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْمَالِيْنَ ﴿٨٠﴾ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ ﴿٨١﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ ﴿٨٢﴾ وَاِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيْ اِلٰى يَوْمِ الدِّيْنِ ﴿٨٣﴾ [ص: ٧١ - ٧٨].

٢ - قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ اَرْسَلْنَا مُوسٰٓى وَاَخَاهُ هٰرُونَ بِآيٰتِنَا وَسُلٰطٰنٍ مُّبِيْنٍ ﴿٤٧﴾ اِلٰى فِرْعَوْنَ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ فَاسْتَكْبَرُوْا وَكَانُوْا قَوْمًا عٰلِيْنَ ﴿٤٨﴾ فَقَالُوْا اَنْتَوْنِ لِبَشَرِيْنَ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمْ لَنَا عٰبِدُوْنَ ﴿٤٩﴾ فَكَذَّبُوْهُمَا فَكَانُوْا مِنَ الْمُهْلَكِيْنَ ﴿٥٠﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٨].

الآيات موضوع الدرس مكية، تنقل لنا في مشهد حوارى متميز استعلاء واستكبار قطبين بارزين: قطب يتسمي إلى عالم الشياطين، هو إبليس اللعين، الذي رفض أمر الله بالسجود لآدم بعدما علمه الأسماء كلها. وقطب آخر من عالم الإنس هو فرعون، الذي يعتبر من أبرز المستكبرين في تاريخ البشرية كلها.

١ - مفهوم العلو:

(١ / ١) في اللغة:

« العين واللام والحرف المعتل ياء كان أو واو أو ألفاً أصل يدل على السمو والارتفاع، لا يشذ عنه شيء، ومن ذلك العلاء والعلو. ويقولون: تعالى النهار أي ارتفع »^(١).

يقال: علا في الجبال صعد، وعلا في الأرض تكبر^(١). ومن قهر أمرًا فقد اعتلاه واستعلى عليه وبه، كقولك: استولى^(٢).
ويقال لكل متجبر: قد علا وتعظم^(٣).

وفي « العين »: العلو أصل البناء، ومنه العلاء والعلو. فالعلاء الرفعة، والعلو العظمة والتجبر [يقال] علا ملك في الأرض [أي طغى وتعظم]، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [النمص: ٤]، [وتقول] لكل شيء علا: علا يعلو علوًا، وتقول في الرفعة والشرف: علي يعلو علاء^(٤).

والاستعلاء قد يكون طلب العلو المذموم وقد يكون طلب العلاء، أي الرفعة^(٥).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد مصطلح العلو في القرآن الكريم مصدرًا وفعلاً واسم فاعل للمذكر وللمؤنث (العال، العالية) وصيغة مبالغة (العالي) واسم تفضيل (الأعلى).
وهو في كل الموارد ينقسم إلى قسمين:

- علو محمود: وصف به الله تعالى، تارة بلفظ « العلي » كما في قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ولفظ « الأعلى » كما في قوله: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]، ولفظ « تعالى » كما في قوله: ﴿ وَخَرُّوْا لَهُ بُيُوتًا مُّبِيْنًا وَبَنَّتِ بِمَبْرِ عَلَيْهِمْ سُبْحٰنَهُ وَتَعَلَّى عَمَّا يُصِفُوْنَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].
كما وصف به: القرآن والملا وكلمة الله والمثل والأفق والمكان والسموات ودرجات الجنة.

والعلو في هذه الموارد له دلالتان: دلالة مجازية، هي العظمة وعلو المنزلة، ودلالة حقيقية هي الارتفاع.

- علو مذموم: بمعنى التعظم والتجبر. جاء بصيغة الفعل والمصدر واسم الفاعل،

(١) أساس البلاغة « علو ».

(٢) المقاييس « علو ».

(٣) اللسان « علا ».

(٤) العين « علو »، وانظر: اللسان « علا »، والكليات (ص ٦٢٧).

(٥) المفردات « علا »، والتوقيف على مهات التعاريف (ص ٥٩).

مفردًا وجمعًا وأسند في ثلاثة موارد لفرعون^(١)، وله ولقومه في موردين^(٢). وأسند في مورد واحد لبني إسرائيل^(٣) وفي مورد آخر لقوم سبأ^(٤) وفي مورد آخر للشيطان^(٥).

٢ - علاقة الاستكبار بالعلو في الآيتين:

(١ / ٢) (السياق الدلالي للآيتين:

في النص الأول يخبرنا الله تعالى عن استكبار إبليس اللعين وعلوه لما أمره الله بالسجود لآدم سجود تكريم، متدرغًا بذريعة واهية، تجعله فوق السجود لمخلوق أقل منه قيمة وفضلاً بحسب زعمه « والمقصود من هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدًا ﷺ بسبب الحسد والكبر، فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين »^(٦).

ولم يخص إبليس بالذكر الصريح عند الأمر « إهمالاً لشأنه بسبب ما كان من عصيانه، إنما عرفنا أن الأمر كان قد وجه إليه من توجيه التوبيخ إليه، ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ والله خالق كل شيء. فلا بد أن تكون هناك خصوصية في خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه، هي خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية »^(٧).

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۗ أَسْتَكْبَرْتَ ۖ أَتَمَّ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥]. هذا سؤال توبيخ وتعريف للملائكة أنه لا عذر له لما امتنع عن السجود لآدم، الذي أضاف الله ﷻ خلقه إلى نفسه تكريمًا له وإن كان خالق كل شيء^(٨).

فإن قلت: فما معنى قوله: ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟

« قلت: الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف منه أنه سجود لمخلوق. فذهب بنفسه وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق. وانضم إلى ذلك أن آدم مخلوق من

(١) يونس: ٨٣، والدخان: ٣١، والقصص: ٣.

(٢) المؤمنون: ٤٦، والدخان: ١٩.

(٣) الإسراء: ٤.

(٤) النمل: ٣١.

(٥) ص: ٧٥.

(٦) مفاتيح الغيب (٢٦ / ٢٢٧).

(٧) الظلال (٣٠٢٨ / ٥).

(٨) انظر: مجمع البيان (٢٣ / ١٣٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٥ / ٢٢٨).

طين وهو مخلوق من نار، ورأى فضلاً للنار على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب»^(١).

أما السؤال في قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] فيه قطع بمعذرة إبليس. والمعنى: «أمن أجل أنك تتعاطم بغير حق أم لأنك من أصحاب العلو، والمراد بالعلو الشرف، أي من العالين على آدم، فلا يستحق أن تعظمه»^(٢). وأجاب إبليس بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] إنه الحسد ينضح من هذا الرد والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين في آدم، والذي يستحق هذا التكريم. وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود»^(٣).
«والمعنى أنني لو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أمرى بسجودي له، فكيف وأنا خير منه. ثم بين كونه خيراً منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين، فصح أن أصله خير من أصل آدم. ومن كان أصله خير من أصله فهو خير»^(٤).

أما في النص الثاني فيخبرنا المولى ﷺ عن استكبار وعلو فرعون وملته لما جاءهم موسى وهارون بالبينات، دعوة لهم للإيمان بالله وإفراده بالعبودية.

لقد حكى الله ﷻ صفتهم وذكر شبهتهم. أما الصفة فمتفرعة إلى استكبار وعلو، وأما الشبهة فهي قولهم: ﴿أَتُؤْمِنُ بِإِسْرَائِيلَ وَيُلْهِمُنَا لَنَّا وَعِدِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]^(٥).

قال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: ١٠٣]. والملا أشرف قومه وقد يراد بهم قومه، فقد جاء استعماله بمعنى الجماعة مطلقاً^(٦). «لقد جعل الإرسال إليهم دون بقية أمة القبط لأن دعوة موسى وأخيه إنما كانت خطاباً لفرعون وأهل دولته الذين ييدهم تصريف أمور الأمة لتحرير بني إسرائيل من استعبادهم إياهم... ولم يرسل بشريعة قط إلى القبط»^(٧).

﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦] أي أنهم تركوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون أنفة وتكبراً دون التأمل في طبيعة الرسالة، إذ لا وقع في مثل هذه القلوب

(١) الكشاف (٣/ ٣٨٣).

(٢) التحريم والتنوير (٢٣/ ٣٠٣).

(٣) مفااتيح الغيب (١٣/ ٢٢٧).

(٤) انظر: مفااتيح الغيب (٢٣/ ١٠٢).

(٥) روح المعاني (١٨/ ٣٦)، وإرشاد العقل السليم (٣/ ١٣٦).

(٦) التحريم والتنوير (١٨/ ٦٣).

المطموسة المستغرقة في قيم أرضية رخيصة وأوضاع باطلة لآيات الله التي معها وسلطانه الذي بين أيديهما^(١). ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦] أي رفيعي الحال في الدنيا، متطاولين على الناس، قاهرين بالظلم. أو متكبرين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي وكان من شأنهم التكبر^(٢).

لقد كانوا قوماً كانت عادتهم العلو لما لهم من الاقتدار بالقوة والكثرة.

ويظهر هذا الاستكبار وذلك العلو جلياً في الآية الموالية التي يقول فيها المولى ﷺ: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، هذه هي شبهتهم في عدم الإيمان برسالة موسى وهارون، وهي شبهة مبنية على أمرين:
الأول: أن النبيين من البشر.

الثانية: أن قوم موسى وهارون كانوا خدماً وعبداً لهم.

إن الشبهة الأولى تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية. وتباين طبقات أفرادها في مراقبي الكمال ومهاوي النقصان^(٣).

أما الشبهة الثانية فكانهم قصدوا بها التعريض بشأن موسى وهارون - عليهما السلام - وخط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية^(٤). ففرعون وملؤه يصرحون بأنهم غير مستعدين للإيمان بهذا المثل الأعلى الذي جاءهم به موسى وهارون؛ لأنه سوف يززع عبادة قوم موسى لهم.

إن هذا النوع من القوى التي تحاول أن تجعل هذا الواقع المحدود مطلقاً، وتحصر الجماعة البشرية في إطار هذا المحدود يسميه القرآن الكريم طاغوتاً.

وفي الأخير بين المولى ﷺ أنه لما خطرت هاتان الشبهتان بخلداهم صرحوا بالتكذيب، ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبته عليه بقاء التعقيب فقال: وكانوا ممن حكم الله عليهم بالفرق: فإن حصول الفرق لم يكن حاصلًا عقيب التكذيب إنما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك في الوقت اللائق به^(٥).

(١) انظر: في ظلال القرآن (٤/٢٤٦٨، ٢٤٦٩).

(٢) البحر المحيط (٧/٥٦٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٦/١٣٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٣/١٠٣).

(٢ / ٢) النظم اللغوي للآيتين:

- في الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِيْنَ ﴾ [ص: ٧٥] ورد مصطلح الاستكبار بصيغة الفعل الماضي مسبقو بهزمة الاستفهام المراد بها الإنكار والتوبيخ. ففي إلقاء السؤال إلى إبليس قطع بمعذرتة في الامتناع عن السجود لأدم عليه السلام. و « أم » حرف عطف وهي « أم » المتصلة عادلت الهمزة، فعاذل المولى عليه السلام الألف مع اختلاف الفعلين.

« وقيل: استكبرت الآن أو لم تزل مذ كنت من المستكبرين؟ ومعنى الهمزة التقرير. واحتمل أن يكون إخباراً، خاطبه بذلك على سبيل التقرير و « أم » تكون منقطعة، والمعنى: بل أنت من العالين عند نفسك »^(١).

أما لفظ العلو فورد بصيغة اسم الفاعل مسبقو بـ « كنت » والمعنى: « أتكبرت من غير استحقاق أو كنت مستحقاً للعلو فائقاً فيه، وقيل: المعنى أحدث لك الاستكبار أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين، فالتقابل على الأول باعتبار الاستحقاق وعدمه، وعلى الثاني باعتبار الحدوث والقدم؛ ولذا قيل: ﴿ كُنْتَ مِنَ الْغَالِيْنَ ﴾ دون: « أنت من العالين »^(٢).

- وفي الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنِنِ مُيْمِيْنَ ﴿٢٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِيْنَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥، ٤٦].

ورد مصطلح الاستكبار بصيغة الفعل الماضي، وعطفه بفاء التعقيب « يفيد أنهم لم يتأملوا الدعوة والآيات والحجة، ولكنهم أفرطوا في الكبرياء... وجملة: ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِيْنَ ﴾ معترضة بين فعل ﴿ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وما تفرع عليه من قوله: ﴿ فَقَالُوا ﴾ في موضع الحال من فرعون وملئه، أي فاستكبروا بأن أعرضوا عن استجابة دعوة موسى وهارون وشأنهم الكبرياء والعلو، أي كان الكبر خلقهم وسجيتهم... [و] إجراء وصف على لفظ « قوم » أو الإخبار بلفظ « قوم » متبوع باسم فاعل إنما يقصد منه تمكن ذلك الوصف من الموصوف بلفظ « قوم » أو تمكنه من أولئك القوم. فالمعنى هنا: أن استكبارهم على تلقي دعوة موسى وآياته وحجته إنما نشأ على سجيتهم من الكبر وتطبعهم، فالعلو

(١) البحر المحيط (٩/ ١٧٥).

(٢) روح المعاني (٢٣/ ٢٢٦، ٢٢٧).

بمعنى التكبر والجبروت»^(١).

مستفادات:

- الاستكبار والعلو أهم ملامح أهل الطاغوت، إنهما صفتان نفسيتان تدفعان صاحبهما إلى الغرور المفضي إلى الإعراض عن دعوة الحق ورسالة الأنبياء. إن حجاباً عجبياً وستاراً كثيفاً يلف قلب المستكبر المستعلي ويحول دون سماعه صوت الفطرة.

- المستكبر المستعلي لا يلتزم بمقتضى الشرع والعقل، وإنما يكون عبداً لهواه فيحقر البشر ويدعي التفوق والتميز عليهم من جهة، ومن جهة أخرى يخضعهم لنظراته وطريقته ويحول دون وصول صوت الحق إلى شغاف قلوبهم.

- قال الغزالي: «اعلم أن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب «عجائب القلب وغوائله» ولكن تنحصر مآثرات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية... فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل التكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة، حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى.. وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب، غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي»^(٢).

العتو

في موضعين:

- ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَحِبُوا أَن يَكُونُوا مِن رَّبِّيهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِمُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّيهِمْ وَقَالُوا لَا يَنْصَلِحُ اتِّفَانَا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٨﴾ [الأعراف: ٧٥ - ٧٨].

- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكُتُّ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ [الفرقان: ٢١].

١ - مفهوم العتو:

(١ / ١) في اللغة:

« العين والتاء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على: استكبار »^(١).

يقال: عتا يعتو عتواً وعتياً: استكبر وجاوز الحد، فهو عاتٍ وعتيٌّ ج: عُتِيٌّ^(٢).

والعاتي: الجبار، وجمعه عتاة^(٣). وقيل: العاتي: المبالغ في ركوب المعاصي، المتمرد، الذي لا يقع منه الوعظ والتنبيه موقعاً^(٤).

والعتو أيضاً: النبو عن الطاعة^(٥)، يقال: تعتى فلان وتعتت فلانة: إذا لم تطع. قال العجاج:

بأمره الأرض فما تعتت. أي: فما عصت^(٦).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد العتو في القرآن الكريم بصيغ مختلفة في عشرة مواضع. جاء مصدرًا في أربعة^(٧). وفعالًا ماضيًا في خمسة^(٨)، وصفة في موضع واحد^(٩).

وجاء في أغلب المواضع مستندًا إلى جمع من الناس، مما يدل على أن العتو في القرآن الكريم فعل جماعي يصدر من الكفار.

ومما يلاحظ من هذه الموارد ما يأتي:

أ - أن العتو ورد فعالًا متعلقًا بمفعول، هو موضوعه، وذلك هو:

- أمر الله ورسله، وذلك في ثلاثة موارد^(١٠).

(١) المقاييس « عتو ».

(٢) اللسان « عتا »، وترتيب القاموس المحيط « عتا ».

(٣) العين « عتو »، واللسان « عتا »، والمقاييس « عتو ».

(٤) اللسان « عتا »، ومختار الصحاح « ع ت ٢١ ».

(٥) المفردات « عتا ».

(٦) العين « عتو ».

(٧) الملك: ٢١، والفرقان: ٢١، ومريم: ٨، ٦٩.

(٨) الطلاق: ٨، والأعراف: ٧٧، ١٦٦، والفرقان: ٢١، والذاريات: ٤٤.

(٩) الحاقة: ٦.

(١٠) الطلاق: ٨، والأعراف: ٧٧، والذاريات: ٤٤.

- نهي المولى ﷺ، وذلك في مورد واحد^(١).

ب - أن العتو ورد فعلاً له مفعول مطلق، لم يذكر معه موضوع العتو وورد فيه الفعل مثبتاً وذلك في مورد واحد^(٢).

وهو في جل الموارد جاء بمعنى الإعراض والاستعصاء على أمر الله ﷻ وأنبأه - عليهم السلام - . على سبيل العناد والتكبر. إنه صفة للكفار عبر تاريخ الرسالة، ميزت تعاملهم مع كل دعوة تدعو إلى طاعة الله وتوحيده والاستقامة على دينه الذي ارتضاه شرعة للعباد. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «العتو في كتاب الله التجبر»^(٣).

٢ - علاقة الاستكبار بالعتو:

(١ / ٢) السياق الدلالي للآيتين:

- ذكر المولى ﷺ في النص الأول عتو الذين استكبروا في سياق حوارى جمع هؤلاء بالمؤمنين من مستضعفي قوم صالح. لقد كفروا برسالة الله ﷻ ووجدوا بها، فكان أن عتوا عن أمر الله ﷻ بعقرهم الناقة التي أمروا ألا يمسوها بسوء.

يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّيَ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾^(٤)
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وهكذا نرى الملا المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّيَ ﴾، وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف واستنكار إيمانهم به وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه. ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً، لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم والثقة في نفوسهم والاطمئنان من منطقتهم، إنهم على يقين من أمرهم، فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستكبار من الملا والمستكبرين؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾. ومن ثم يعلن الملا عن موقفهم في صراحة تحمل طابع التهديد: ﴿ إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴾.

(٢) الفرقان: ٢١.

(١) الأعراف: ١٦٦.

(٣) الدر المنثور (٦/٢٤٤).

على الرغم من البيئة التي جاءهم بها صالح والتي لا تدع ريبة لمستريب. إنه ليست البيئة هي التي تنقص الملاً للتصديق، إنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد، إنها عقدة الحاكمة والسلطان. إنها شهوة الملك العميقة في الإنسان!، إنه الشيطان الذي يقود الضالين من هذا الحطام! (١).

ثم قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الاعراف: ٧٧] أي «استكبروا عن امتثال أمر ربهم، وهو ما أمر به تعالى على لسان صالح من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [الاعراف: ٧٣] ومن اتباع أمر الله وهو دينه وشرعه. ويجوز أن يكون المعنى: صدر عتوهم عن أمر ربهم، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوهم» (٢).

والعaton على الله كما قال أبو عبد الله الحسن بن الحسن في كتاب «منهاج الدين» هم «الذين لا يبالون بأن يكون ما هم فيه حقاً أو باطلاً، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون» (٣). والمعنى في الآية هو: «أنهم عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذبوا نبيهم» (٤).

- أما في النص الثاني فيبين الله تعالى: أن المشركين لا يرجون لقاء الله، أي لا ينتظرون هذا اللقاء ولا يحسبون حسابه ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه. ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهبته وجلاله، فتنتطلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لا تصدر عن قلب يرجو لقاء الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نُرِىٰ رَبِّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، فقد كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشراً وكانوا يطلبون لكي يؤمنوا بالعقيدة التي يدعوهم إليها أن تنزل عليهم الملائكة تشهد بها، أو أن يروا الله فيصدقوا. وهو تطاول على مقام الله سبحانه، تطاول الجاهل المستهتر الذي لا يحس جلال الله في نفسه ولا يقدر الله حق قدره (٥).

يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] أي «أنهم أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال: ﴿إِن فِي

(١) في ظلال القرآن (٣/١٣١٣، ١٣١٤).
 (٢) البحر المحيط (٥/٩٦).
 (٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٣١).
 (٤) انظر: تفسير البغوي (٢/١٧٤).
 (٥) في ظلال القرآن (٥/٢٥٥٨).

صُدُّوهُمْ إِلَّا كِبْرًا مَاهُمْ يَنْفِيهِ ﴿ [غافر: ٥٦]، و «عتوا»: تجاوزوا الحد في الظلم، يقال: عتا علينا فلان. وقد وصف العتو بالكبر فبالغ في إفراطه يعني أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو»^(١).

يقول الإمام الرازي: «والذين نريد هاهنا أنا بينا أن قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ [الفرقان: ٢٦] يدل على الرؤية.

وأما الاستكبار والعتو فلا يمكن أن يدل على ذلك، على أن الرؤية مستحيلة، لأن من طلب شيئاً محالاً لا يقال إنه عتا، واستكبر، ألا ترى أنه كما قالوا: ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ ﴾ لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتواً واستكباراً، بل قال: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَجْهُولُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، بل العتو والاستكبار لا يثبت إلا إذا طلب الإنسان ما لا يليق به ممن فوقه، أو كان لا تقاً به ولكنه يطلبه على سبيل التعنت. وبالجمله فقد ذكرنا وجوهاً كثيرة في تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة. ومما يدل عليه أن موسى لما سأل الرؤية، ما وصفه الله بالاستكبار والعتو، لأنه القليل طلب الرؤية شوقاً وهؤلاء طلبوها امتحاناً وتعنتاً، لا جرم وصفهم بذلك»^(٢).

(٢ / ٢) (النظم اللغوي للآيتين:

- في آية الأعراف، ورد مصطلح الاستكبار فعلاً ماضياً للجمع مقروراً باسم الموصول «الذين». واختيار طريق الموصولية في وصفهم ووصف الآخرين الذين استضعفوا لما توهم إليه الصلة من وجه صدور هذا الكلام منهم. أي أن استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم، وأن احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يصغ عندهم سبقهم إياهم إلى الخير والهدى، كما حكى عن قوم نوح قولهم: ﴿ وَمَا زُرْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَادُوا الرَّأْيَ وَمَا زُرْنَاكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ [مود: ٢٧]^(٣).

ورود فعل العتو أيضاً فعلاً ماضياً للجمع، معطوفاً على فعل «عقروا» دلالة على تمكن هذا الوصف من الذين استكبروا وثباتهم عليه. ونسب فعل العتو لهم جميعاً كما فعل العقر، وإن كان الذي قام بالجرم بعضهم فقط، للدلالة على أنهم بسكوتهم وتواطئهم يكونوا وكأنهم قد اشتركوا في الفعل.

(١) الكشاف (٨٨/٣)، ومفاتيح الغيب (٧٠/٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٧٠، ٦٩/٢٤). (٣) التحرير والتنوير (٢٢٢/٨).

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ آسَأْتَكِبْرًا مِنْ قَوْمِهِ، لِلَّذِينَ آسَأْتَضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمَلُّونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّيَ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٥) قَالَ الَّذِينَ آسَأْتَكِبْرًا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿ [الاعراف: ٧٥، ٧٦]. المقولة الأولى استفهام على جهة الاستهزاء والاستخفاف؛ لأن المستكبرين يعلمون بأن المؤمنين من مستضعفي قوم صالح عالمون أن صالحًا نبي من الله حقيق^(١)، كان لسان حالهم يقول: « ما نظنكم آمتم بصالح عليه السلام عن علم بصدقه ولكنكم اتبعتموه عن عمى وضلال، غير مقتنعين^(٢). لذلك جاء جواب المستضعفين على خلاف مقتضى الظاهر من سؤال المستكبرين لهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فعدول المستضعفين في جوابهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ في غاية الحسن، إذ أمر رسالته معلوم، واضح مسلم، لا يدخله ريب، لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم، فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته ولا أن يستفهم عن العلم بإرساله، فأخبروا بأنهم مؤمنون بما أرسل به لأنه لا يلزم بعد وضوح رسالته إلا التصديق بما جاء به. وتضمن كلامهم العلم بأنه مرسل من الله تعالى^(٣).

وجاء جواب الذين استضعفوا جملة اسمية، دلالة على أن الإيمان ثابت في قلوبهم، متمكن منهم. فلم يتركوا بذلك أي مطمع للذين استكبروا في أن يشككوهم، فبالأحرى أن يصر فوهم عن الإيمان بما جاء به صالح عليه السلام، يزيد ذلك بيانًا ورود الخبر مؤكداً بحرف « إن » لإزالة ما يمكن أن يتوهم من شك الذين استكبروا من صحة إيمانهم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ آسَأْتَكِبْرًا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴾.

استئناف أعيد فيه الموصول مع صلته مع كفاية الضمير، إيذاناً بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار^(٥).

وصيغ كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة للدلالة على تصلبهم في كفرهم وثباتهم فالذي آمن به الذين استضعفوا هو من حيث المعنى ما أرسل به، لكنه من حيث اللفظ

(١) انظر: البحر المحيط (٩٤/٥)، وإرشاد العقل السليم (٢٤٣/٣)، وفتح القدير (٢٢٠/٢)، وروح المعاني (١٦٤/٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٢٣/٨).

(٣) البحر المحيط (٩٥، ٩٤/٥)، وانظر: إرشاد العقل السليم (٢٤٣/٣)، وفتح القدير (٢٠٠/٢)، وروح المعاني (١٦٤/٨).
(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٢٣/٨).

(٥) إرشاد العقل السليم (٢٤٣/٣)، وروح المعاني (١٦٤/٨).

أعم. قصدوا الرد لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً^(١).

- أما في آية الفرقان، فقد صيغ مصطلح الاستكبار بصيغة الفعل الماضي المسند إلى ضمير الجمع وهم في الآية كفار قريش، وصيغ لفظ العتو أيضاً بصيغة الفعل الماضي وصيغة المصدر الواقع مفعولاً مطلقاً، للتأكيد على تمكن هذا الوصف القبيح منهم. كما جاء موصوفاً بالكبر، مبالغة في إفراطه، بحيث إنهم لم يجروا على قول ما قالوا إلا بعد أن بلغوا أقصى درجات الاستكبار والعتو. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ آسَفْنَاكَ بَدْرًا وَمَا قَالُوا إِلَّا بَدْرٌ مُّجْتَمِعٌ فَذُكِّرْتَهُمْ لَئِن مَّ لَأَخْبِرَنَّاهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الفرقان: ٢١]: اللام في « لقد » جواب قسم محذوف، أي والله لقد استكبروا، الآية. وفيه من الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم ما لا يخفى^(٢). وفي الآية تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم كما في قولهم: يجرح في عراقبها نصلي^(٣).

« و (في) للظرفية المجازية، شبهت أنفسهم بالظروف في تمكن المظروف منها. أي هو استكبار متمكن منهم كقوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]. ويجوز أن تكون « في » للتعليل كما في الحديث: « دخلت امرأة النار في هرة » الحديث، أي استكبروا لأجل عظمة أنفسهم في زعمهم. وليست الظرفية حقيقية لقلة جدوى ذلك؛ إذ من المعلوم أن الاستكبار لا يكون إلا في النفس؛ لأنه من الأفعال النفسية^(٤).

أما قوله تعالى: ﴿ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] فقد جاء فيه « عتوا » على الأصل بالواو، بعكس « مریم » التي ورد فيها بلفظ « عتياً » بسبب استئصال اجتماع الواوين والقلب لمناسبة الفواصل. ونحوه قول القائل:

وجارة جاس أبأنا بنابها كلياً غلت ناب كليب بواؤها

في نحو هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب. ألا ترى أن المعنى: « ما أشد استكبارهم وما أكثر عتوهم وما أعلى ناباً بواؤها كليب^(٥).

عقب الله ﷻ على قول الكافرين: ﴿ تَوَلَّأْنَا لَكَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ رَبَّنَا رَبَّنَا ﴾ بقوله

(١) البحر المحیط (٥/٩٥)، وانظر: روح المعاني (٨/١٦٤)، والتحرير والتنوير (٨/٢٢٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/٢١١)، وانظر: البحر المحیط (٨/٩٦)، وروح المعاني (٣/١٩).

(٣) روح المعاني (٣/١٩). (٤) التحرير والتنوير (٦/١٩).

(٥) البحر المحیط (٨/٩٦).

سبحانه: ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ لما كان مقصدهم من مقالهم أنهم أعلى من أن يتلقوا الدين من رجل مثلهم، وذلك على معنى التعجيب من ازدهانهم وغرورهم الباطل^(١).

قال الزمخشري: هذه الجملة في حسن استيفائها غاية في أسلوبها^(٢).

الكفر

في قوله:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة: ٣٤].

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اتَّقُوا أَنزِلْنَا عَلَيْكُمْ مَنَّامًا مِنْ رَبِّكَ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [٣٥] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنَّا بِهِ كَفِرُونَ ﴾ [الاعراف: ٧٥، ٧٦].

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ [٣٦] فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [٣٧] فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [٣٨] إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: ٧١ - ٧٤].

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَءٌ إِلَيْنِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٩].

١ - مفهوم الكفر:

(١ / ١) في اللغة:

« الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد وهو الستر والتغطية »^(٣). وكل شيء غطي شيئاً فقد كفره وكفره، يقال: كفر السحاب السماء وكفر المتاع في الوعاء وكفر الليل بظلامه وكفرت الريح الرسم^(٤). والكافر: الليل المظلم، لأنه يستر بظلمته كل شيء. والكافر: الزارع لأنه يغطي البدر بالتراب، ومنه سمي (الكافر) لأنه يستر نعم الله عليه^(٥).

(١) التحرير والتنوير (٥/١٩).

(٢) الكشاف (٣/٨٨).

(٣) المفاتيح في الكفر.

(٤) انظر: العين في الكفر، وأساس البلاغة في الكفر، والمفردات في الكفر، والتوقيف في الكفر.

(٥) الكلمات (ص ٧٤٦).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد الكفر في القرآن الكريم سبعاً وعشرين وخمسمائة مرة (٥٢٧) جاء بصيغة الفعل الماضي المسبوق باسم الموصول (الذين) في أغلب المواضع. واختيار طريق الموصولية في وصف الكفار لما توهم إلى الصلة من وجه صدور ما قالوه وما فعلوه من أقوال قبيحة وأفعال شنيعة كلها تجسد الكفر. كما أن التعبير بصيغة الماضي دلالة على تمكن الكفر منهم ورسوخهم فيه. ويمكن حصر معاني الكفر في القرآن الكريم فيما يأتي:

- جحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة: إنه بهذا المعنى ضد الإيمان قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال أيضاً: ﴿ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].
- جحود النعمة وسترها وترك شكرها: ويعبر عن هذا المعنى غالباً بصيغة « الكفران ». قال تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَشْكُرُوا أَمْ أَكْفُرُوا وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَجِي عَنِّي كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال أيضاً: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

٢ - علاقة الاستكبار بالكفر في الآيات:

(١ / ٢) السياق الدلالي للآيات:

- في آيتي « البقرة » و « ص » يبين الحق سبحانه استكبار إبليس لعنه الله، حين رفض السجود لأدم عليه السلام وأنه بهذا الفعل الشنيع استحق نعته بالكفر.
- قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦١)، وقال في سورة « ص »: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦١).

يحتمل أن يكون إبليس بإبائه السجود واستكباره عنه كافراً، أي صار من الكافرين باستباح أمره تعالى إياه بالسجود لأدم زعماً منه أنه أفضل منه، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ [الاعراف: ١٢] حين قال له: ﴿ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥]، فالأنفة من طاعة الله استكباراً كفر، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى.

ويحتمل أن يكون المعنى أن إبليس كان في علم الله تعالى أنه سيكفر؛ لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم منه الموافقة. وهذا قول جمهور المفسرين كما أورده القرطبي^(١).

- في آية الأعراف ينقل لنا القرآن الكريم مشهد الحوار بين مستكبري قوم صالح ومستضعفيهم. هؤلاء آمنوا برسالته وأولئك كانوا بها كافرين.

فالذين استكبروا سألو المستضعفين سؤالاً استنكارياً للاستهزاء فقالوا: ﴿أَنْتَلُوكَ أَنْتَ صَلِيمًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٧٥] فهؤلاء يعلمون أنهم عالمون بذلك، ولذلك جاء جواب الذين استضعفهم على عكس مقتضى الظاهر، إذ عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا: نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى؛ تنبيهاً على أن أمر إرساله من حيث الظهور بحيث لا ينبغي السؤال عنه وإنما التحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به^(٢). قال الله حكاية عن المستضعفين: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْمِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] إذ ذاك أعلن المستكبرون كفرهم في صراحة تحمل التهديد: ﴿قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦] فالذي آمن به المستضعفون هو من حيث المعنى بما أرسل به صالح ~~عليه السلام~~، لكنه من حيث اللفظ أعم. قصد الذين استكبروا الرد لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً، كأنهم قالوا: ليس ما جعلتموه معلوماً مسلماً من ذلك القبيل^(٣). على الرغم من البينة التي جاءهم بها صالح والتي لا تدع ريبة لمستريب، إنه ليست البينة هي التي تنقص الملائم للتصديق، إنه السلطان المهده بالدينونة للرب الواحد، إنها عقدة الحاكمية والسلطان، إنها شهوة الملك العميقة في الإنسان؛ إنه الشيطان الذي يقود الظالمين من هذا الحطام^(٤).

- في آية الزمر، قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩]، جواب من الله ~~تعالى~~ على النفس المتمنية العود إلى الدنيا، المتحسرة على عدم تصديق آيات الله واتباع رسله. والمعنى: «أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منك، آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك، فكذبت بها

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٩٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٣/٢٤٣)، وروح المعاني (٨/١٦٤).

(٣) البحر المحيط (٥/٩٥)، وروح المعاني (٨/١٦٤).

(٤) في ظلال القرآن (٣/١٣١٤).

واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها^(١).

(٢/٢) النظم اللغوي للآيات:

- آية « البقرة » و « ص »: صيغ مصطلح الاستكبار بصيغة الفعل الماضي تقريراً للثبات إبليس اللعين على الاستكبار ورسوخه فيه. وصيغ الكفر بجملته: ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴾ و « مقتضى الظاهر أن يقول و « كفر » كما قال: ﴿ اَبْنِ وَاَسْتَكْبَرَ ﴾ فعدل عن مقتضى الظاهر إلى ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴾ لدلالة « كان » في مثل هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسمها. والمعنى أبى واستكبر وكفر كفرًا عميقًا في نفسه^(٢).

وجملة ﴿ اَبْنِ وَاَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴾ استئناف بياني، جواب لمن قال: كيف لم يفعل إبليس ما أمر به؟ وكيف خالف حال جماعته؟ وما سبب ذلك؟ فمخالفته لحال معشره مخالفة عجيبة. والفعالان الأولان في موضع نصب على الحال، أي: آيًّا مستكبرًا. وجملة ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴾ معطوفة على الجمل المستأنفة، مقررّة لما سبق من الإباء والاستكبار.

و « كان » تفيد أنه اتصف بالكفر في زمن مضى قبل نزول الآية^(٣)، أو أنه صار من الكافرين باستباح أمره تعالى إياه بالسجود لأدم عليه السلام^(٤).

- آية الأعراف: اختيار طريق الموصولية في وصف المستكبرين، لما تدل عليه الصلة من وجه صدور ما قالوه منهم. بمعنى أن استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم، وأن احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يصغ عندهم سبقهم إياهم إلى الخير والهدى. قال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴾^(٥) أعيد الموصول في هذه الجملة مع صلته رغم أن الضمير يكفي لبيان المعنى، وذلك إيدانًا بأنهم قالوا ما قالوه على جهة الاستكبار والعتو. كما أن صياغة الآية بصيغة الجملة الاسمية المؤكدة للدلالة على تصلبهم في كفرهم وثباتهم فيه^(٦). « وهذا كلام جامع لرد ما جمعه كلام المستضعفين حيث قالوا: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾^(٧) فهو من بلاغة القرآن

(٢،٣) التحرير والتنوير (١/٤٢٦، ٤٢٧).

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٣).

(٤) إرشاد العقل السليم (١/٨٩).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/٢٤٣)، وروح المعاني (٨/١٦٤)، والتحرير والتنوير (٨/٢٢٢ - ٢٢٤).

في حكاية كلامهم وليس من بلاغة كلامهم»^(١).

- آية الزمر: قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ ۗ هُوَ جَوَابٌ لِّمَنۢ مَّنۢ مَّنِي أَوْ لِدَاخِلِ عَلَيْهِ هَمۢزَةُ التَّقْرِيرِ، وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لَوۡ أَسۡأَلُ اللَّهَ هَدٰىنِي...﴾ (٣٨) وجوابه متضمناً نفي الهداية. كأنه قال: ما هداني الله، فقبل له: ﴿بَلَىٰ ۗ قَدۡ جَاءَ تَلَآءَ اٰتِنِي...﴾ (٣٩) مرشدة لك فكذبت^(٢). وجعل التكذيب والاستكبار فعلاً ماضياً، لإفادة رسوخ هذين الوصفين فيه، لذلك حرمه الله الهداية والجنة.

وما يقال في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِيۡنَ﴾ (٤٠) قيل في نظيره في آية «البقرة» و«ص»، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيۡنَ﴾.

الفسق

في قوله تعالى:

- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ تُظَاهِرُونَ فِي حِيَٰتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَشَعَمْتُمۢ بِهَا قَالِيۡمَ مُجْرَوۡنَ عَذَابٍ اَلۡهَوٰنٍ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكۡبِرُوۡنَ فِي الْاَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُوۡنَ﴾ [الاحقاف: ٢٠].
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوْا يَسْتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُوۡلُ اللّٰهِ لَوۡلَا رُءُوۡسُهُمۡ وَرَاۡبِئُهُمۡ بِضُدُوۡنَ وَهُمۡ مُّسۡتَكۡبِرُوۡنَ ﴿٥٠﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمۡ أَسْتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمْ لَمْ تَسْتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَنۡ يَغۡفِرَ اللّٰهُ لَهُمۡ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَهۡدِي الْقَوۡمَ الْفٰسِقِيۡنَ﴾ [المنافقون: ٦٠، ٥].

١ - مفهوم الفسق:

(١ / ١) في اللغة:

الفاء والسين والقاف كلمة واحدة وهي الفسق ومعناه الخروج.

تقول العرب: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت.

وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها على الناس^(٣).

وفسق تفسق يفسق فسقاً وفسوقاً^(٤).

(١) التحرير والتنوير (٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) البحر المحیط (٩ / ٢١٤).

(٣) المقاييس «فسق»، واللسان «فسق».

(٤) اللسان «فسق».

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد مصطلح الفسق في القرآن الكريم أربعة وخمسين مرة. جاءت جل النصوص مدنية. كما أنه ورد بصيغة اسم الفاعل للجمع في جل الموارد.

ومعناه: العصيان والترك لأمر الله ﷻ والخروج عن طاعته. يرد على وجوه:

- بمعنى الكفر كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا ﴾ [السجدة: ١٨].
 - بمعنى المعصية: كقوله تعالى: ﴿ فَأَفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥].
 - بمعنى الكذب: نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]، وقوله: ﴿ إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِيكَ ﴾ [الحجرات: ٦].
 - بمعنى الإثم والسيئات: نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعَلَّوْا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقوله: ﴿ وَلَا فَسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧].
- وكل هاته المعاني ترجع إلى معنى كلي جامع هو الخروج عن طاعة الله والترك لأمره. وأكثر ما يقال الفاسق في القرآن الكريم لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بأحكامه، كلها أو بعضها^(١).
- « وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلائنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة »^(٢).

٢ - علاقة الاستكبار بالفسق في الآيتين:

(١ / ٢) (السياق الدلالي للآيتين:

- في آية « الأحقاف » يبين الله ﷻ جزاء من استكبر عن أمر الله وخرج عن طاعته وهو الهوان والخزي يوم القيامة. وهذا الجزاء من جنس ما اقترفوه. قال تعالى: ﴿ فَأَلَيَّمْ مَجْزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانُوا فِي الْأَرْضِ يَغْتَابُونَ الْحَقَّ وَيَمَا كُنْتُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(٣)، وعذاب الهون هو العذاب الذي فيه ذل لهم وخزي عليهم وقرئ « عذاب الهوان »^(٤) جوزوا بذلك لأمرين اثنين: « (أولهما) الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب و (الثاني) الفسق وهو ذنب الجوارح. وقدم الأول على الثاني لأن أحوال القلوب أعظم وقعاً من أعمال الجوارح.

(١) المفردات « فسق »، والتوقيف على مهمات التعاريف (ص ٥٥٧).

(٢) المفردات « فسق ».

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٢٨ / ٢٥)، وفتح القدير (٢١ / ٥).

ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار أنهم يتكبرون عن قبول الدين الحق، ويستكفون عن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام. وأما الفسق فهو المعاصي^(١).

- وفي آية المنافقون يتحدث المولى ﷺ عن المنافقين ويقرر أن الاستغفار لهم لا يجدي باعتبار صدمهم واستكبارهم وفقهم. يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١﴾﴾^(٢)

و « المعنى اذهبوا إلى رسول الله وسلوه الاستغفار لكم. وهذا يدل دلالة اقتضاء على أن المراد: توبوا من النفاق وأخلصوا الإيمان وسلوا رسول الله ليستغفر لكم ما فرط منكم، فكان الذي قال لهم ذلك مطلقاً على نفاقهم... ولي الرؤوس: إمالتها إلى جانب غير وجه المتكلم، إعرافاً عن كلامه. أي أبوا أن يستغفروا لأنهم ثابتون على النفاق أو لأنهم غير راجعين فيما قالوه من كلام بذيء في جانب المسلمين، أو لئلا يلزموا بالاعتراف بما نسب إليهم من النفاق^(٣). إلا أن المنافقين أعرضوا وامتنعوا وأنفوا من أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ علواً واستكباراً. قال تعالى: ﴿وَإِنْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠﴾ وَيَحْتُمُ سَبْحَانَهُ بِأَنْ حَرَمَهُمْ مَغْفِرَتَهُ سِوَاءِ اسْتِغْفَارِهِمْ لِمَنْ رَسُوْلُهُمْ أَمْ لَا. قَالَ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

(٢ / ٢) (النظم اللغوي للآيتين:

آية الأحقاف :

- إذهاب الطيبات مستعار لمفارقتها، كما أن إذهاب المرء إيعاد له عن مكانه^(٤).

- إضافة ﴿عَذَابٌ﴾ إلى ﴿الْهُونِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة والباء في قوله ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ للسببية وهي متعلقة بفعل ﴿تَجَزَّوْنَ﴾^(٥).

- قدم ذنب القلب وهو الاستكبار في قوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ على ذنب الجوارح وهو الفسوق في قوله: ﴿وَيَمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾؛ لأن أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب^(٦).

آية « المنافقون »:

(١) مفاتيح الغيب (٢٥ / ٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨٣ / ٢٤٤).

(٣) المصدر نفسه (٤٢ / ٢٦).

(٤) المصدر نفسه (٤٣ / ٢٦).

(٥) انظر. البحر المحيط (٤٤٤ / ٩).

- ورد فعل الصد في الآية الكريمة بصيغة الفعل المضارع المسند للجمع وهو هنا جملة حالية. ووجه صوغه مضارعاً للدلالة على استمرار المنافقين على هذا الفعل وتجده منهم^(١).

- وجملة ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ في موضع الحال من ضمير « يصدون »، أي يصدون صد المتكبر عن طلب الاستغفار^(٢). أي ورأيهم صادين مستكبرين.

التكذيب بآيات الله

في قوله تعالى:

﴿ يَبْتَغِي مَا دَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ مَا لَيْتُمْ أَنْ تَقُولُوا لَا خَوْفُ عَلَيْنَا وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(٣) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ [الأعراف: ٣٦، ٣٥].

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْعَلُ لَهُمْ أَعْيُنٌ وَأَصْلَحَ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾^(٤) هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿ [الأعراف: ٤١، ٤٠].

- ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَأَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾^(٥) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُؤْا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ [الزمر: ٥٩، ٦٠].

١ - مفهوم التكذيب بآيات الله:

(١ / ١) في اللغة:

أ - التكذيب:

الصدق والكذب أصلهما في القول ماضيًا كان أو مستقبلًا، وعدًا كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأول إلا في القول، ولا يكونان في القول إلا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام^(٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨ / ٢٤٤).

(١) البحر المحیط (١٠ / ١٨٢).

(٣) المفردات « صدق ».

والكذب نقيض الصدق: كذب يكذب، كَذِبًا وَكَذْبًا وَكَذِبَةً وَكَذْبَةٌ^(١).

إنه إخبار عن المخبر به على خلاف ما هو به مع العلم بأنه كذلك^(٢).

وكذب الرجل تكذيبًا وكذابًا: جعله كاذبًا، وكذلك كذب بالأمر تكذيبًا وكذابًا^(٣).

وكذب بالتشديد يقتصر على مفعول واحد، وبالتخفيف يتعدى إلى مفعولين. يقال:

كذبني الحديث إذا نقل الكذب وقال خلاف الواقع وكذا صدق نحو: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ [الفتح: ٢٧] وهما كما قال الكفوي من غرائب الألفاظ^(٤).

ب - الآية:

الآية في اللغة هي العلامة الظاهرة^(٥) والجمع آيات وآي وآياء، قال الكفوي: «الآية في

الأصل هي العلامة الظاهرة واشتقاقها من (أي) لأنها تبين (أيا) عن (أي). وتستعمل في المحسوسات والمعقولات^(٦).

وزاد الراغب بقوله: «والآية العلامة الظاهرة وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم

لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته إذ كان حكمهما سواء^(٧).

(٢/١) «معنى التكذيب بآيات الله» في الآيات:

الآيات هي كل ما جاء به أنبياء الله لأقوامهم من حجج وأدلة وبراهين على صدق

رسالاتهم من أحكام وشرائع ودلائل، كذلك الدالة على وجود الخالق ووحدانيته وعلى

النبوة والمعاد ونحو ذلك. ويضم المعنى أيضًا الآيات المتلوة في القرآن الكريم، فكل

جملة منه دالة على حكم تسمى آية.

وأما التكذيب بها فهو وجودها وإنكارها وعدم التصديق بها.

(١) اللسان «كذب».

(٢) الكلبيات (ص ٥٥٦).

(٣) العين «كذب»، واللسان «كذب»، وأساس البلاغة «كذب».

(٤) الكلبيات (ص ٧٦٨).

(٥) العين «أي»، واللسان «أوا»، ومعجم مقاييس اللغة «أبي»، والقاموس المحيط «أي».

(٦) الكلبيات (ص ٢١٩).

(٧) المفردات «أي».

٢ - علاقة الاستكبار بالتكذيب في الآيات:

(١ / ٢) (السياق الدلالي للآيات:

- الآية الخامسة والثلاثون من سورة الأعراف:

قَسَمَ اللَّهُ ﷻ الْأُمَّةَ فَقَالَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿ فَمَنْ أَقْفَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣١) ، وقال في حق المشركين: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣٢).

قابل الله تعالى الإصلاح بالاستكبار، لأن إصلاح العمل نتيجة للتقوى، والاستكبار من نتيجة التكذيب وهو التعاطف، فلم يكونوا ليتبعوا الرسل فيما جاؤوا به ولا ليقنطوا بما أمروا به، لأن من كذب بالشيء نأى بنفسه عن اتباعه^(١).

وقال ابن عطية: «هاتان حالتان نعم جميع من يصد عن رسالة الرسول، إما أن يكذب بحسب اعتقاده أنه كذب، وإما أن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب. قال القاضي أبو محمد: وهذا نحو الكفر عناداً»^(٢).

- الآية الأربعون من سورة الأعراف^(٣):

هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديمهم وحديثهم وهي إتمام للكلام في وعيد الكفار، وذلك لأن الله تعالى قال في الآية السابقة: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣٢) ثم شرح كيفية هذا الخلود في حق أولئك.

فقوله: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي بالدلائل على المسائل التي هي أصول الدين وأحكام الشرع كذلك الدالة على وحدانية الله وقدرته وعلى النبوة والمعاد. وقوله: ﴿ وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ أي بالغوا في احتقارها ولم يلتفتوا إليها وضموا أعينهم عنها وبنذوها وراء ظهورهم.

ثم أخبرهم الله تعالى أنه حرّمهم أسباب النجاة فسد عليهم أبواب الخير والصلاح وحرّمهم الجنة، قال سبحانه: ﴿ لَا تَدْخُلْنَ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِغَ الْبَخْلُ فِي سَرَائِلِغَاتِهِمْ ﴾ (٣٣) ، ثم قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٤) أي ومثل ذلك الانتقاء، أي

(١) البحر المحيط (٤٦/٥).

(٢) المحرر الوجيز (٢/٣٩٧).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (١٤/٨١، ٨٢)، وروح المعاني (٨/١١٨)، والتحرير والتنوير (٨/١٢٨).

الحرمان، نجزي المجرمين لأنهم ياجرامهم، الذي هو التكذيب والإعراض جعلوا أنفسهم غير مكترثين بوسائل الخير والنجاة فلم يتوخوها ولا تطلبوها فلذلك جزاهم الله عن استكبارهم أن أعرض عنهم وسد عليهم أبواب الخيرات.

- الآية السادسة والأربعون بعد المائة من سورة الأعراف:

﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ عن الإيمان، قال ابن عطية: هم الكفرة. والمعنى في هذه الآية: سأجعل الصرف عن الآيات عقوبة المتكبرين على تكبرهم. انتهى. وقيل: هم الذين يحتقرون الناس ويرون لهم الفضل عليهم...

ويتعلق «بغير الحق» بـ «يتكبرون» أي بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم... ويجوز أن يكون في موضع الحال فيتعلق بمحذوف. أي: متلبسين بغير الحق. والمعنى: غير مستحقين، لأن التكبر بالحق لله وحده... ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّاءً يَأْتِيَهُمْ لَأَيُّمُوا بِهَا ﴾ وصفهم هذا الوصف الذميمة وهو التكبر عن الإيمان حتى ولو عرضت عليهم كل آية لم يروها فيؤمنوا بها، وهذا ختم منه تعالى على الطائفة التي قدر أن لا يؤمنوا... ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا... ﴾ ﴿ أَرَاهُم اللّٰهُ السَّبِيلِينَ فرأوهما، فأثروا الغي على الرشد كقوله: ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: ١٧]. ولما نفى عنهم الإيمان وهو من أفعال القلب، استعار للرشد والغي سبيلين، فذكر أنهم تاركو سبيل الرشد، سالكو سبيل الغي. وناسب تقديم جملة الشرط المتضمن سبيل الرشد على مقابلتها لأنها قبلها. ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّاءً يَأْتِيَهُمْ لَأَيُّمُوا بِهَا ﴾ فذكر موجب الإيمان وهو الآيات وترتب نقيضه عليه، واتباع ذلك بموجب الرشد وترتب نقيضه عليه.

ثم جاءت الجملة بعدها مصرحة بسلوكهم سبيل الغي ومؤكدة لمفهوم الجملة الشرطية قبلها، لأنه يلزم من ترك سبيل الرشد سلوك سبيل الغي، لأنهما إما هدى أو ضلال، فهما نقيضان، إذا انتفى أحدهما ثبت الآخر.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا وَاكْفَرُوا بِهَا غَافِلِينَ ﴾ أي ذلك الصرف عن الآيات هو سبب تكذيبهم بها وغفلتهم عن النظر فيها والتفكير في دلالتها. والمعنى أنهم استمر كذبهم وصار لهم ديدناً حتى صارت تلك الآيات لا تخطر لهم ببال، فحصلت الغفلة عنها والنسيان لها حتى كانوا لا يذكرونها ولا شيئاً منها.

وفي قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ ﴾ إشعار بأن الصرف سببه هذا التكبر، وفي قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا ﴾ إعلام بأن ذلك الصرف سببه التكذيب. والجمع بينهما أن التكبر سبب أول نشأ عنه التكذيب، فنسبة الصرف إلى السبب الأول وإلى ما تسبب عنه^(١).

- الآية التاسعة والخمسون من سورة الزمر:

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَأً أَيُّنِي فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ جواب من الله ﷻ على النفس المتمنية العود إلى الدنيا، المنحصرة على عدم تصديق آيات الله واتباع رسله. والمعنى: «أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها»^(٢).

(٢/٢) النظم اللغوي للآيات:

- الآية السادسة والثلاثون من سورة الأعراف:

ضمن الاستكبار معنى الإعراض فعلق به ضمير الآيات. والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها. وأفاد تحقيق أنهم صاترون إلى النار بطريق قصر ملازمة النار عليهم في قوله: ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ لأن لفظ أصحاب مؤذن بالملازمة وبما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات في قوله: ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٣).

وجاء الاستكبار والتكذيب بصيغة الفعل الماضي للدلالة على ثباتهم عليهما ورسوخهم فيهما.

- الآية السادسة والأربعون بعد المائة من سورة الأعراف:

«تعريف المصروفين عن الآيات بطريق الموصولية للإيماء بالصلة إلى علة الصرف. وهي ما تضمنته الصلات المذكورة، لأن من صارت تلك الصفات حالات له لا ينصره الله، أو لأنه إذا صار ذلك حاله رين على قلبه، فصرف قلبه عن إدراك الآيات، وزالت منه الأهلية لذلك الفهم الشريف.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣).

(١) البحر المحيط (٥/ ١٧٣ - ١٧٥).

(٣) التحرير والتنوير (٨/ ١١١).

والتكبر الانصاف بالكبر وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلف... وقوله: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُفْرًا أَتَوْا بِمَا يَكْفُرُونَ ﴾ عطف على قوله: ﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ فهو في حكم الصلة... والسييل مستعار لوسيلة الشيء بقرينة إضافته إلى الرشد وإلى الغي، والرؤية مستعارة للإدراك والانتهاز هنا مستعار للملازمة، أي يلازمون طريق الرشد ويلازمون طريق الغي... والتعبير في الصلوات الأربع بالأفعال المضارعة لإفادة تجدد تلك الأفعال منهم واستمرارهم عليها، وجملة ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأن توسيمهم بتلك الصلوات يثير سؤالاً، والمشار إليه بـ ﴿ ذَلِكَ ﴾ ما تضمنه الكلام السابق، نزل منزلة الموجود في الخارج. وهو ما تضمنه قوله: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ إلى آخر الآية. والباء للسببية أي: كبرهم وعدم إيمانهم واتباع سبيل الغي وإعراضهم عن سبيل الرشد، سببه تكذيبهم بالآيات، فأفادت الآية بيان سبب الكبر وما عطف عليه من الأوصاف التي هي سبب صرفهم عن الآيات فكان ذلك سبب السبب... واجتلبت أن (الدالة على المصدرية والتوكيد) لتحقيق هذا التسبب وتأكيده لأنه محل غرابة. وجعل المسند فعلاً ماضياً لإفادة أن وصف التكذيب قديم راسخ فيهم، فكان رسخ ذلك فيهم سبباً في أن خلف الطبع والختم على قلوبهم...

وللتنبية على أن غفلتهم عن قصد صيغ الإخبار عنهم بصيغة ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ للدلالة على استمرار غفلتهم وكونها دأباً لهم، وإنما تكون كذلك إذا كانوا قد التزموها^(١).

- الآية التاسعة والخمسون من سورة الزمر:

قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ ﴾ هو جواب حذف لمنفي أو لداخل عليه همزة التقرير. ولما كان قوله: ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي... ﴾^(٢) وجوابه متضمناً نفي الهداية، كأنه قال: ما هداني الله قبل له: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي... ﴾^(٣) مرشدة لك فكذبت^(٤).

وجعل التكذيب والاستكبار فعلاً ماضياً لإفادة رسوخهما فيه وثباته عليهما وأنهما قديمان فيه، لذلك حرمة الله الهداية ومنع عليه الجنة.

(١) التحرير والتنوير (١٠٤/٩ - ١٠٧).

(٢) البحر المحيط (٢١٤/٩).

الظلم

في قوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفْتَحُ لَهُمْ السَّمَاءَ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿ [الاعراف: ٤٠، ٤١].

- ﴿ وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذِ الظَّالِمُوكَ مَوْفُوتًا عِنْدَ رَبِّهِمْ رَجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَفْقَهُوا أَيُّكُمْ أَسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿ [سبا: ٣١].

- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ، فَأَمَّا نَاسُكُمْ فَكَبَرْتُمْ لِرَأْسِ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ [الاحقاف: ١٠].

١ - مفهوم الظلم:

(١ / ١) في اللغة:

الظاء واللام والميم أصلان صحيحان أحدهما خلاف الضياء والنور، والآخر وضع الشيء غير موضعه^(١). وقال الراغب: «الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بالعدول عن وقته أو مكانه»^(٢).

ومن معانيه الفرعية:

- الجور ومجاوزة الحد^(٣).

- التصرف في ملك الغير^(٤).

- مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة^(٥).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

قال الراغب: قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

(١) المقاييس «ظلم».

(٢) المفردات «ظلم».

(٣) اللسان «ظلم».

(٤) التوقيف على مهابت التعاريف (ص ٤٩٢)، والكليات (ص ٥٩٥).

(٥) التوقيف (ص ٤٩٢).

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والتفارق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [نعمان: ١٣]، وإياه قصد بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] وبقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ [الشورى: ٤٢].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤]...

وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان في أول ما يهيم بالظلم فقد ظلم نفسه^(١).

واشتهر إطلاق ظلم النفس في القرآن على الكفر وعلى المعصية^(٢).

والظلم في القرآن يستعمل فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز. ولهذا يطلق على الذنب الكبير وعلى الذنب الصغير، ولذلك قيل لأدم في تعديه ظالم وإبليس ظالم وإن كان بين الظلمين فرق شاسع وبون بعيد^(٣).

٢ - علاقة الظلم بالاستكبار في الآيات:

(١/٢) (السياق الدلالي للآيات:

المقصود من الآية الإحدى والأربعين من سورة الأعراف إتمام الكلام في وعيد الذين كذبوا بالآيات واستكبروا عنها، لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

ثم شرح سبحانه كيفية عذابهم وأنه نتيجة حتمية لظلمهم، فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ يُجْزَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١]. والمراد من هذه الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب فلهم منها غطاء و فراش ولحاف^(٤).

وعبر الله تعالى عن هؤلاء تارة بالمجرمين وتارة بالظالمين، تنبيهاً على أنهم بتكذيبهم بآيات ربهم واستكبارهم عنها جمعوا بين ذنك الوصفين القبيحين. وذكر الجرم مع

(٢) التوقيف (ص ٤٩٢)، والمفردات «ظلم».

(٤) مفاتيح الغيب (٨٢/١٤).

(١) المفردات «ظلم».

(٣) التحرير والتنوير (١٧٤/٥).

الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر^(١). كما أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يدل على أن سبب ذلك الجزاء بالعقاب هو الظلم وهو الشرك. ولما كان جزاء الظالمين قد شبه بجزاء الذين كذبوا بالآيات واستكبروا عنها: علم أن هؤلاء المكذبين من جملة الظالمين وهم المقصود الأول من هذا التشبيه، بحيث صاروا مثلاً لعموم الظالمين^(٢).

- وفي آية سبأ وصف الله ﷻ كلاً من المستضعفين والمستكبرين بالظلم وهم واقفون أمامه يوم الحساب. و«بدأ بالاتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا آمَنَّا بِالَّذِينَ آمَنُوا لَوَلَّا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣) إشارة إلى أن كفرهم كان لمانع، لا لعدم المقتضى، لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا: ما جاءنا رسول ولا أن يقولوا: قصر الرسول، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه، لأن الرسول لو أهمل شيئاً لما كانوا يؤمنون. لولا المستكبرون لآمنوا»^(٤).

- آية الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ، فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ...﴾^(٥) والذي من عند الله هو القرآن الكريم، والشاهد هو عبد الله بن سلام، كما قاله ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد^(٦)، شهد على اليهود أن الرسول ﷺ مذكور عندهم في التوراة وأنه نبي من عند الله. قال ابن عباس: «رضيت اليهود بحكم ابن سلام وقال للنبي ﷺ: إن يشهد لك أمنا بك فستل فشهد ثم أسلم»^(٧).

والمثل في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ هو التوراة، إذ الضمير عائد على القرآن، أي جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنه من عند الله تعالى^(٨). بعد ذلك قرر المولى سبحانه استكبارهم عن الإيمان بما جاء من عند الله وكفرهم به، فبان ذنبهم وخطوهم واستحقوا بذلك وصفهم بالظالمين وحرمووا بذلك هداية الله لهم.

(٢ / ٢) النظم اللغوي للآيات:

- في آية «سبأ» يخبر الله تعالى نبيه عن حالة الظالمين في صيغة التعجب من حالهم،

(١) إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٢٨)، وروح المعاني (٨/ ٢١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٥/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ١٨٨).

(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٩٥).

وجواب لو محذوف، أي: لرأيت أمراً هائلاً فظيماً^(١).

وجملة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ...﴾^(٢) في موضع الحال من «الظالمون» أو من ضمير «موقوف». وجيء بالمضارع في قوله: ﴿يَرْجِعُ﴾ لاستحضار الحالة...، و﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عدوا أنفسهم كبراء. وهم ما عدوا أنفسهم كبراء إلا لما يقتضي استكبارهم، لأنهم لو لم يكونوا كذلك لوصفوا بالغرور والإعجاب الكاذب. ولهذا عبر في جانب الذين استضعفوا بالفعل المبني للمجهول، وفي جانب الذين استكبروا بالفعل المبني للمعلوم^(٣).

آية «الأحقاف»:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ مفعولاً «أرأيتم» محذوفان لدلالة المعنى عليهما، والتقدير: أرأيتم حالكم وإن كان كذا؟ أستم ظالمين؟ فالأول حالكم والثاني أستم ظالمين. وجواب الشرط محذوف أي فقد ظلمتم، ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) أي الموسومين بهذا الوصف، استئناف بياني في مقام التعليل للاستكبار عن الإيمان. ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم، فتشعر هذه الجملة بأن كفرهم به لضلالهم المسبب عن ظلمهم وهو دليل جواب الشرط ولذا حذف^(٦).

الإباء

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

١ - مفهوم الإباء:

(١/١) في اللغة.

الهمزة والباء والياء أصل يدل على الامتناع^(٧). والإباء مصدر قولك: أبى، يأبى بالفتح فيهما مع خلوه من حروف الحلق، وهو شاذ، أي امتنع فهو (أب) و (أبى) و (أبيان)

(١) المحرر الوجيز (٤/٤٢١)، والجامع لأحكام القرآن (١٤/٣٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/٢٠٤، ٢٠٥). (٣) البحر المحيط (٩/٤٣٥، ٤٣٦).

(٤) روح المعاني (٢٦/١١). (٥) معجم مقاييس اللغة «أبى».

بفتح الباء^(١).

أبى الشيء يأباه إباء وإبائة: كرهه. ورجل أبى: ذو إباء شديد، إذا كان ممتعاً.

والإباء: أشد الامتناع^(٢). قال المناوي: «الإباء: شدة الامتناع. وكل إباء امتناع

ولا عكس»^(٣).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد لفظ الإباء في القرآن الكريم بصيغ مختلفة في ثلاثة عشر موضعاً^(٤).

وجاء في كل الموارد بصيغة الفعل، ماضياً في تسعة مواضع ومضارعاً في أربعة

مواضع.

٢ - علاقة الاستكبار بالإباء في الآية:

(١ / ٢) السياق الدلالي للآية:

في هذه الآية يخبرنا المولى ﷺ عن استكبار إبليس - لعنه الله - ورفضه السجود لأدم. ومناسبتها لما قبلها « أن الله تعالى لما شرف آدم بفضيلة العلم وجعله معلماً للملائكة وهم مستفيدون منه مع قولهم السابق: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْدِمَاءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، أراد الله أن يكرم هذا الذي استخلفه، بأن يسجد له ملائكته، ليظهر بذلك مزية العلم على مزية العبادة»^(٥).

وهذه هي « النعمة الرابعة من النعم العامة على جميع البشر. وهو أنه ﷺ جعل أبانا مسجود الملائكة، وذلك لأنه تعالى ذكر تخصيص آدم بالخلافة أولاً، ثم تخصيصه بالعلم ثانياً، ثم بلوغه في العلم إلى أن صارت الملائكة عاجزين عن بلوغ درجته في العلم. وذكر الآن كونه مسجوداً للملائكة»^(٦) وكلهم سجدوا له إلا إبليس أبى وامتنع من فعل ما أمره به وجعل لنفسه رأياً مع النص وحقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو

(١) اللسان « أبى »، والصحاح « أباء »، وأساس البلاغة « أبى ».

(٢) اللسان « أبى ».

(٣) التوقيف على معاني التعاريف (ص ٢٧).

(٤) وهي: البقرة: ٣٤، ٢٨٢، والثوبة: ٨، ٣٢، والحجر: ٣١، والإسراء: ٨٩، ٩٩، والكهف: ٧٧، وطه: ٥٦، ١١٦، والفرقان: ٥٠، والأحزاب: ٧٢.

(٥) مفاتيح الغيب (٢ / ٢٣٠).

(٥) البحر المحیط (١ / ٢٤٥).

من سبب وعلّة مع وجود الأمر. فحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم، يقطع النظر والاجتهاد ويبطل التفكير، وتعين الطاعة، ويتحتم التنفيذ.

إن الذي منعه حقيقة من السجود ليس عدم القدرة، إنما هو الاستكبار. لقد تحدى إرادة الله عند تعارضها مع نزعة الكبرياء في ذاته.

(٢/٢) النظر اللغوي للآية:

قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] استئناف بياني مشير إلى مخالفة حال إبليس لحال الملائكة في السجود لآدم. وقد عبر الله ﷻ بمصطلح الإباء؛ إظهاراً لانعدام العذر عند إبليس في تركه السجود. فهو سبحانه لما استثناء من زمرة الساجدين «كان يجوز أن يظن أنه كان معذوراً، فبين تعالى أنه لم يسجد مع القدرة وزوال العذر بقوله: ﴿أَبَىٰ﴾ لأن الإباء هو الامتناع مع الاختيار، أما من لم يكن قادراً على الفعل فلا يقال له أنه أبى»^(١). «ومفعول أبى» محذوف لأنه يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد. قال الشاعر:

أبى الضميم والنعمان يحرق نابه
عليه فأفضى والسيوف معاقله
والنقدير: أبى السجود.

و«أبى» من الأفعال الواجبة التي معناها النفي، ولهذا يفرغ ما بعد إلا كما يفرغ لفعل منفي. قال تعالى: ﴿وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَمَّرَ نُورُهُ﴾ [التوبة: ٣٢]... وأبى زيد الظلم أبلغ من: لم يظلم؛ لأن نفي الشيء عن الشخص قد يكون لعجز أو غيره، فإذا قلت: أبى زيد كذا، دل على نفي ذلك عنه على طريق الامتناع والأنفة منه. فلذلك جاء قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ﴾ لأن استثناء إبليس لا يدل إلا على أنه لم يسجد، فلو اقتصر عليه لجاز أن يكون تخلفه عن السجود لأمر غير الإباء، فنص على سبب كونه لم يسجد وهو الإباء والأنفة^(٢).

ثم إنه قد كان يجوز أن يكون غير قادر على السجود فعلاً ولا ينضم إليه الكبر، فبين تعالى أن ذلك الإباء كان على وجه الاستكبار بقوله: ﴿أَسْتَكْبَرَ﴾.

والمعنى أنه استكبر على الله بإنكار أن يكون آدم مستحقاً لأن يسجد هو له، إنكاراً عن تصميم لا عن مراجعة أو استشارة، كما دلت عليه آية أخرى كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ

تَبَتْ خَلْقَتِي مِنْ تَارٍ وَخَلَقْنَهُ مِنْ طِينٍ ﴿ [ص: ٧٦] ^(١).

بقي أن نتساءل: لماذا قدم الإباء على الاستكبار في الآية وإن كان متأخرًا عنه في الرتبة؟ يجيبنا أبو حيان بقوله: «قدم الإباء على الاستكبار وإن كان الاستكبار هو الأول؛ لأنه من أفعال القلوب وهو التعاطف، وينشأ عنه الإباء من السجود اعتبارًا لما ظهر عنه أولاً وهو الامتناع عن السجود، ولأن المأمور به هو السجود. فلما استثنى إبليس كان محكومًا عليه بأنه ترك السجود أو بأنه مسكوت عنه غير محكوم عليه... والمقصود الإخبار عنه بأنه خالف حاله حال الملائكة، فناسب أن يبدأ أولاً بتأكيد ما حكم به عليه في الاستثناء أو بإنشاء الإخبار عنه بالمخالفة. والذي يؤدي هذا المعنى هو الإباء من السجود» ^(٢).

فالإبائية مقدمة على الاستكبار في ظهورها عليه، والاستكبار والأنفة مقدمة في معتقده. قال القاضي أبو محمد عبد الحق رحمته: «وتلك معصية كفر لأنها عن معتقد فاسد صدرت» ^(٣).

الإدبار

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَفَعِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَبِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَبَّأَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ نَزَّلَهُ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ آذَنَ وَأَسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَبْنَاءِ يُؤْتَزَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥].

النص من سورة المدثر، وهي مكية تتحدث عن بعض جوانب شخصية الرسول ﷺ. والنص يتحدث عن قصة الوليد بن المغيرة الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله ولكنه زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر. وما كان منه ذلك الزعم إلا طلبًا للزعامة وحبًا في الرياسة.

١ - مفهوم الإدبار:

(١ / ١) في اللغة:

الدال والباء والراء أصل يدل على آخر الشيء وخلفه ^(١).

(٢) البحر المحيط (١/ ٢٤٨).

(٤) المفاتيح «دير».

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٢٤).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ١٢٥).

ودبر كل شيء خلاف قبله. ويقال للقوم في الحرب: ولهم الدبر والإدبار^(١).
وأدبر الرجل: جعله وراءه، وأدبر، إذا انقلبت فتلة أذن الناقة إذا انحرت إلى ناحية القفا،
وأقبل إذا صارت هذه الفتلة إلى ناحية الوجه^(٢).

ودبر: ولى^(٣)، والإدبار نقيض الإقبال^(٤)، وقال الخليل: «الإدبار: التولية نفسها»^(٥).
(٢/١) في القرآن الكريم:

أدبر: أعرض وولى دبره. قال: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ٢٣]، وقال: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّى﴾ [المعارج: ١٧]^(٦).

وللإدبار في الآية معنيان: أحدهما: حقيقي هو رجوع الوليد بن المغيرة إلى أهله،
والثاني: مجازي هو إعراضه عن الحق الذي جاء به النبي ﷺ وعدم التصديق به.

٢ - علاقة الاستكبار بالإدبار في الآية:

(١/٢) السياق الدلالي للآية:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ يعني الوليد فكر في شأن النبي ﷺ والقرآن، ﴿وَقَدَّرَ﴾
أي هيا الكلام في نفسه... وكان النبي ﷺ يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت
قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم نظر ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه
يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟! فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ أي في القرآن
﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما... ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي ولى وأعرض إلى أهله
﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظم عن أن يؤمن. وقيل: أدبر عن الإيمان واستكبر حين دعي إليه^(٧).

والإدبار في الآية يجوز أن يكون مستعارًا لتغيير الفكر الذي كان يفكره ويقدره، يأسًا
من أن يجد ما فكر في انتحاله، فانصرف إلى الاستكبار والأنفة من أن يشهد للقرآن بما
فيه من كمال اللفظ والمعنى^(٨).

(٢/٢) النظم اللغوي للآية:

« وكان العطف في ﴿وَسَرَ﴾ وفي ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ لأن البسور قريب من العبوس، فهو كأنه

(١) العين «دبر».

(٢) اللسان «دبر».

(٣) القاموس المحيط «دبر».

(٤) اللسان «دبر»، والصحاح «دبر».

(٥) العين «دبر».

(٦) المفردات «دبر».

(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٩/٧٤-٧٦).

(٨) التحرير والتنوير (٢٩/٣١٠).

على سبيل التوكيد. والاستكبار يظهر أنه سبب للإدبار، إذ الاستكبار معنى في القلب، والإدبار حقيقة من فعل الجسم، فهما سبب ومسبب فلا يعطف بـ « ثم »، وقدم المسبب على السبب لأنه الظاهر للعين وناسب العطف بالواو. وكان العطف في ﴿ فَقَالَ ﴾ بالفاء دلالة على التعقيب لأنه لما خطر بباله هذا القول بعد تطلبه لم يتمالك أن ينطق به من غير تمهل^(١).

وعبر المولى سبحانه عن الإدبار والاستكبار بصيغة الفعل الماضي للدلالة على ثبات صاحبهما عليهما ورسوخه فيهما.

الاستنكاف

في قوله تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (١٧٣) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَسَأْتَكِبُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عُذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

الآيتان مدنيتان، والخطاب فيهما موجه لأهل الكتاب من النصارى، فلما أجاب الله تعالى عن شبهات اليهود والزمهم الطريق الأقوم أردف ذلك بمحاجة النصارى، والزمهم الرأي الحق في عيسى ابن مريم عليه السلام.

وسبب نزولهما أن « وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال: « وما صاحبكم؟ قالوا: عيسى، قال: « وأي شيء أقول؟ قالوا: تقول أنه عبد الله ورسوله. قال: « إنه ليس بعار أن يكون عبداً ». قالوا: بلى، فنزلت^(٢) ».

١ - مفهوم الاستنكاف:

(١ / ١) في اللغة:

النكف: تنحيتك الدموع بأصبعك عن خدك^(٣)، والنكف: الاستنكاف. والاستنكاف

(١) البحر المحيط (١٠ / ٣٣١).

(٢) البحر المحيط (٤ / ١٤٥).

(٣) العين « نكف »، واللسان « نكف ».

عند العامة: الأنف، وإنما هو الامتناع والانقباض عن الشيء حمية وعزة^(١). قال الزمخشري: «استنكف منه ونكف: امتنع وانقبض أنفًا وحمية»^(٢).

يقال: نكف الرجل عن الأمر بالكسر نكفًا واستنكف أنف وامتنع، واستنكف ونكف: إذا دفعه وقال: لا^(٣).

وقال الفيروزآبادي: إن الاستنكاف والاستكبار واحد^(٤).

(٢/١) في القرآن الكريم:

ورد هذا المصطلح في الآيتين موضوع البحث فقط.

قال الفيروزآبادي: «والاستنكاف: الاستكبار. وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] أي ليس يستنكف الذي يزعمون أنه إله أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون وهم أكبر من البشر، قاله الزجاج، قال: ومعنى لن يستنكف: لن يأنف، وقيل: لن ينقبض ولن يمتنع عن عبودية الله»^(٥).

٢ - علاقة الاستكبار بالاستنكاف في الآيتين:

(١/٢) السياق الدلالي للآيتين:

لما تقدم ذكر النصارى والحكاية عنهم في أمر المسيح ﷺ، عقبه الله ﷻ بالرد عليهم، مبرئًا جهته من أقوالهم ومزاعمهم، وذلك بأن قرر سبحانه أن المسيح ﷺ لن يأنف ولن يأبى أن يكون عبدًا لله، شأنه في ذلك شأن من قربه الله ﷻ من الملائكة ورفع منازلهم^(٦)، إذ كل ما ظهر فهو ممكن والممكن لا وجود له بنفسه فيكون عبدًا محتاجًا ذليلًا، مفتقرًا غير مستنكف عن ذلة العبودية^(٧). «والاقتصار على ذكر عدم استنكافه ﷺ عنه مع أن شأنه ﷻ المباهاة به كما يدل عليه أحواله ويفصح عنه أقواله... لوقوعه في موقع الجواب عما قاله الكفرة... وهو السر في جعل المستنكف عنه كونه ﷻ عبدًا له

(١) العين نكف ١.

(٢) أساس البلاغة نكف ١.

(٣) اللسان نكف ٢.

(٤) القاموس المحيط نكف ١.

(٥) بصائر ذوي التمييز (١٢٤/٥، ١٢٥).

(٦) انظر: جامع البيان (٣٨/٦)، وجمع البيان (٣٠٤/٦)، والكشاف (٥٨٥/١)، والمحرر الوجيز (١٤٠/٢).

(٧) روح المعاني (٤١/٦).

تعالى دون أن يقال عن عبادة الله ونحو ذلك، مع إفادة فائدة جليلة هي كمال نزاهته عليه السلام عن الاستكفاف بالكلية. فإن كونه عبداً له مستمرة لدوام العبادة قطعاً، فعدم الاستكفاف عنه مستلزم لعدم الاستكفاف عن عبادته تعالى كما أشير إليه بخلاف عبادته تعالى، فإنها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام، يكفي في انصاف موصوفها بها تحققها مرة، فعدم الاستكفاف عنها لا يستلزم دوام الاستكفاف عن دوامها^(١).

(٢ / ٢) النظم اللغوي للآيتين:

- لما كان الاستكفاف دون الاستكبار - إذ الأول كما قال الزجاج تكبر في تركه أنفة وليس في الاستكبار ذلك^(٢) - عطف عليه في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي، وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴾، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

- قوله تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ ﴾ استئناف مقرر لما سبق من التنزيه. و ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ عطف على المسيح، أي: ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله تعالى^(٣).

- ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي، وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴾. « حمل أولاً على لفظ « من » فأفرد الضمير في يستنكف ويستكبر، ثم حمل على المعنى في قوله: ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ ﴾ فالضمير عائد على معنى من، هذا هو الظاهر ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على الخلق، لدلالة المعنى عليه، لأن الحشر ليس مختصاً بمستنكف ولأن التفصيل بعده يدل عليه، ويكون ربط الجملة الواقعة جواباً لاسم الشرط بالعموم الذي فيها. ويحتمل أن يعود الضمير على معنى من، ويكون قد حذف معطوف عليه لمقابلته إياه، التقدير: فسيحشرهم ومن لم يستنكف إليه جميعاً^(٤).

- قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴾ الآية: « قدم ذكر ثواب المؤمنين لأن الإحسان إليه مما يعم المستنكف إذا كان داخلاً في جملة التنكيل به فكانه قيل: ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب بالحشر إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله تعالى^(٥) ».

(١) إرشاد العقل السليم (٢ / ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) روح المعاني (٦ / ٣٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢ / ١٦٢).

(٤) البحر المحیط (٤ / ١٤٦).

(٥) البحر المحیط (٤ / ١٤٦).

مستفادات:

- قابل الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح وبين الاستنكاف والاستكبار للدلالة على أن استنكافهم دفعهم إلى الكفر ودفعهم استكبارهم إلى ترك الأعمال الصالحة.
- و « العبودية لله مرتبة لا ياباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عندهم »^(١)، فكل من يرى نفسه أعلى من العبادة تكبراً واستنكافاً فلا بد أن يعرف أنه ليس سوى بشراً ضعيفاً، وآية ضعفه أنه سوف يحشر إلى الله بكل خضوع.

الإصرار

وذلك في نصين اثنين هما:

- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١﴾ لَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِي مَاذَا يَحْكُمُ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٣﴾ [نوح: ٥ - ٧].

- ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَثِيمَهُ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ عَابِدَاتُ اللَّهِ تَنَلُّ عَلَىٰ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَمْ تُعَذِّبْ مُبِينًا ﴿٩﴾ مِن رَّوَابِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْزِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَمْ تُعَذِّبْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ [الجاثية: ٧ - ١٠].

- النص الأول من سورة « نوح » وهي مكية شأنها شأن سائر السور المكية التي عنيت بأصول العقيدة وتثبيت قواعد الإيمان.

وقد تناولت السورة تفصيلاً قصة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام منذ بدء دعوته إلى نهاية حادثة الطوفان، الذي أغرق الله به المكذبين من قومه. وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في إهلاك الأمم التي انحرفت عن دعوة الله وجزاء المرسلين وعاقبة المجرمين.

« ومناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما أقسم على أن يبدل خيراً منهم، وكانوا قد سخروا من المؤمنين وكذبوا بما وعدوا به من العذاب، ذكر قصة نوح وقومه معه، وكانوا أشد تمرداً من المشركين فأخذهم الله أخذ استئصال حتى إنه لم يبق لهم نسل على وجه الأرض. وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة فحذر تعالى قريشاً أن يصيهم عذاب يستأصلهم إذا لم يؤمنوا »^(٢).

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٨٢٠).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٢٨٠).

- أما النص الثاني فينتهي إلى سورة « الجاثية ». وقيل: إن الآية السابعة منها نزلت في أبي جهل، وقيل في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن الاستماع إلى القرآن. إلا أن الآية عند جمهور المفسرين عامة فيمن كان مضاراً لدين الله تعالى^(١).

والسورة مكية تناولت العقيدة في إطارها الواسع: الإيمان بالله تعالى ووحدانيته والإيمان بالقرآن ونبوته محمد ﷺ والإيمان بالآخرة والبعث والجزاء. ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

١ - مفهوم الإصرار:

(١ / ١) في اللغة:

« الصاد والراء أصول: الأول قولهم: صر الدراهم يصرها صراً، وتلك المخرقة صرة... ومن الباب: الإصرار: العزم على الشيء، إنما جعلناه من قياسه لأن العزم على الشيء والإجماع عليه واحد، وكذلك الإصرار: الثبات على الشيء...»

وأما الثاني وهو من السمو والارتفاع. فقولهم: صر الحمار أذنه، إذا أقامها^(٢).

يقال: أصر على الأمر: عزم عليه ولا ينوي القلوع عنه^(٣).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد لفظ الإصرار في القرآن الكريم أربع مرات في أربع آيات^(٤) صيغ في كل الموارد بصيغة الفعل: مضارعاً في ثلاثة موارد وماضياً في مورد واحد. وهذا يدل على استمرار الكفار في الإصرار على كفرهم، وتجده منهم كلما جاءهم من الله رسول أو نبي يبلغهم رسالات ربهم.

(١) انظر: الكشاف (٥٠٩/٣)، والمحرم الوجيز (٨١/٥)، ومفاتيح الغيب (١٤/٢٧)، وروح المعاني (١٤٢/٢٥)، والتحرير والتنوير (٣٣٢/٢٥).

(٢) المفاتيح ص ٤.

(٣) العين ص ٤، والقاموس المحيط ص ٤، والكليات (ص ١٢٢).

(٤) وهي: آل عمران: ١٣٥، والجاثية: ٨، والواقعة: ٤٦، ونوح: ٧.

أما من جهة موضع ورود فقد ورد لفظ الإصرار في ثلاثة نصوص مكية^(١)، وفي نص واحد مدني^(٢)، يفسر هذا التفاوت بكون موضوع الإصرار له ارتباط قوي بأمر العقيدة وقواعد الإيمان.

ومتعلق فعل الإصرار في القرآن الكريم هو الكفر^(٣) وقبيح الأفعال^(٤).

ومن تتبعنا لبيان معنى الآيات التي ورد بها المصطلح نستخلص أنه جاء بمعنى المداومة على المعصية والإقامة عليها، أو بتعبير الراغب - رحمه الله -: «التعقد في الذنب والتشدد فيه والامتناع عن الإقلاع عنه»^(٥).

٢ - علاقة الاستكبار بالإصرار في الآيتين:

(٢/١) السياق الدلالي للآيتين:

- في النص الأول يبين المولى ﷻ أن سيدنا نوح لبث في قومه زمناً طويلاً، يدعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية ويحثهم على التوبة والإنابة إلى الباري تعالى، لكنهم أصروا على كفرهم وإعراضهم استكباراً.

يقول تعالى على لسان نوح: ﴿وَأِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغَعِمًا فِي مَاذَا نَدَيْتُهُمْ وَأَسْتَفْسَفُوا يَأْبَهُمْ﴾ أي: كلما دعوتهم إلى سبب المغفرة وهو الإيمان بك وطاعتك والإقرار بوحدايتك والبراءة من عبادة كل ما سواك، سدوا مسامعهم عن استماع صوت الدعوة^(٦). ﴿وَأَسْتَفْسَفُوا يَأْبَهُمْ﴾ أي: «تغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشاهم ثيابهم، كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله، وقيل: لثلا يعرفهم، ويعضده قوله تعالى: ﴿الْأَيْتُمُ يَنْتَوْنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّةَ يَسْتَفْتُونَ يَأْبَهُمْ ..﴾ [هود: ٥٠]^(٧).

﴿وَأَصْرُوا﴾ اختلف المفسرون في بيان معناها بين رأيين: الأول: يقول بأن معناها هو

(١) وهي: الجاثية: ٧، والواقعة: ٤٦، ونوح: ٧.

(٢) في: الجاثية: ٨، والواقعة: ٤٦، ونوح: ٧.

(٣) في: آل عمران: ١٣٥.

(٤) في: آل عمران: ١٣٥.

(٥) المفردات ص ٨.

(٦) انظر: جامع البيان (٢٩/٩٢)، والكشاف (٤/١٦٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٨/٣٠٠)، وإرشاد العقل السليم (٣٨/٩).

(٧) الكشاف (٤/١٦٢)، وانظر: إرشاد العقل السليم (٩/٣٨).

الثبات والإقامة على ما هم عليه من الكفر^(١). والثاني: يقول أصحابه أنه مستعار من أصر الحمار على العانة، إذا أصر أذنيه، أي رفعهما ونصبهما مستويين وأقبل عليهما يكدمهما، واستعير للإقبال على المعاصي والانكباب عليها^(٢).

﴿ وَأَسْتَكْبِرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾: أي تعاضموا عن الإذعان للحق وقبول ما دعاهم إليه نوح عليه السلام من النصيحة وأخذتهم العزة من اتباعه وطاعته^(٣).

وكما قال الشهيد سيد قطب: إن هذه الآيات صورة لإصرار الداعية على الدعوة.. وإصرارهم على الضلال، تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة، تبرز في وضع الأصابع في الأذان وستر الرؤوس والوجوه بالثياب^(٤).

- أما النص الثاني فيصور « جانب استقبال المشركين لهذه الدعوة في مكة، وإصرارهم على باطلهم، واستكبارهم عن سماع كلمة الحق المبين، ومكابرتهم في هذا الحق، كأنه لم يطرق آذانهم، وسوء أدبهم مع الله، وكلامه، ومقابلة القرآن لهذا كله بالترذيل والتقيح والتهديد والوعيد والتلويح بالعذاب الأليم، المهين، العظيم »^(٥).

قال الفخر الرازي: « اعلم أنه تعالى لما بين الآيات للكفار وبين أنهم بأي حديث بعده يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها بعد ظهورها، أتبعه بوعيد عظيم لهم: فقال: ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَقَالِكُمْ آيَاتِهِ ﴾ [الجنابة: ٧]... واعلم أن هذا الأئيم له مقامان:

المقام الأول: أن يبقى مصرًا على الإنكار والاستكبار، فقال تعالى: ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْفِىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ [الجنابة: ٨] أي يقيم على كفره إقامة بقوة وشدة. ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ عن الإيمان بالآيات معجبًا بما عنده.

المقام الثاني: أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام الاستهزاء فقال: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ [الجنابة: ٩] وكان من حق الكلام أن يقال: اتخذه هزوءًا، أي اتخذ ذلك الشيء هزوءًا، إلا أنه تعالى قال: ﴿ اتَّخَذَهَا ﴾ للإشعار بأن هذا الرجل إذا حس

(١) انظر: جامع البيان (٩٤/٢٩)، والمحرق الوجيز (٣٧٣/٥)، وتفسير القرآن العظيم (٤/٤٢٥)، وفي ظلال القرآن (٣٧١٢/٦).

(٢) انظر: الكشف (٤/١٦٢)، وروح المعاني (٧٢/٢٩).

(٣) انظر: جامع البيان (٩٤/٢٩)، والكشاف (٤/١٦٢).

(٤) في ظلال القرآن (٣٧١٢/٦).

(٥) المصدر نفسه (٥/٣٢٢٤، ٣٢٢٥).

بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ خاض في استهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد^(١)، وجعلت حالته أنه يسمع آيات الله ثم يصر مستكبراً، لأن تلك الحالة - وهي حالة تكرار سماعه آيات الله وتكرار إصراره مستكبراً عنها - تحمله على تكرير تكذيب الرسول ﷺ وتكرير الإثم، فلا جرم أن يكون أفاكاً أثيمًا. بله ما تلبس به من الشرك الذي كله كذب وإثم^(٢).

(٢ / ٢) النظم اللغوي للآيتين:

- في النص الأول ورد مصطلح الاستكبار بصيغة الفعل الماضي المسند للجمع. وكذلك الإصرار، وجاء في الآية معطوفين بواو العطف، وتكرر ورود « الاستكبار » في آخر الآية بصيغة المصدر المضاف إلى الفعل وهو مفعول مطلق، تأكيداً على فرط تعنتهم ورفضهم لدعوة نوح ﷺ: رغم وضوحها وقوة أدلتها وصدق صاحبها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ ﴾ متعلق الفعل محذوف، أي إلى الإيمان وجوز جعله لمنزلة اللازم، والجملة معطوفة على التي قبلها، وليس ذلك على عطف المفصل على المجمع حتى يقال: إن الواو من الحكاية لا من المحكي.

﴿ وَأَسْتَفْشَوْا نِيَابَهُمْ ﴾ التعبير بصيغة الاستفعال فيه لا يخفى من المبالغة بحسب الكيف والكم^(٣).

- أما قوله تعالى في النص الثاني: ﴿ أَفَأَكْبُرُ ﴾ فهي بناء مبالغة أو صفة مشبهة بصيغة اسم الفاعل، دلالة على مبالغته في اقرار الآثام والخطايا^(٤).

﴿ ثُمَّ يُعِزُّ مُتَكَبِّرًا ﴾ صيغ مصطلح الإصرار بصيغة الفعل المضارع الدال على استمرار العاصي على تعنته وعتوه وتجدد هذا الغيب منه على الدوام كلما جاءته الدعوة. و ﴿ ثُمَّ ﴾ معناها « الإيذان بأن فعل المقدم عليها (الآيات) بعدما رآها وعابها شيء يستبعد في العادة والطباع وكذلك آيات الله الواضحة القاطعة بالحق، من تليت عليه وسمعها كان

(١) مفاتيح الغيب (٢٧ / ٢٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٣١).

(٣) روح المعاني (٢٩ / ٧١، ٧٢).

(٤) المحرر الوجيز (٥ / ٨١)، والتحرير والتنوير (٢٥ / ٣٣١).

مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها^(١)، و « ثم » هنا للتراخي الرتبى، فالإصرار بعد سماع الآيات أعجب وأعظم، فهو يصر حال سماعه آيات الله وليس إصراره متأخراً عن سماعها، وحذف متعلق « يصر » لدلالة المقام عليه، أي صر على كفره^(٢)، و « مستكبراً » اسم فاعل وهو حال من ضمير: يصر.

﴿ كَأَن لَّمْ يَرَسْمَهَا ﴾: « شبه الله حالهم في عدم انتفاعهم بالآيات بحالهم في انتفاء سماع الآيات. وهذا التشبيه كناية عن وضوح دلالة آيات القرآن، بحيث أن من يسمعها يصدق بما دلت عليه. فلولا إصرارهم واستكبارهم لانفعوا بها^(٣)، و ﴿ كَأَن ﴾ أصلها « كأن » المشددة فخفت، والضمير ضمير الشأن، ومحل الجملة النصب على الحال، أي يصير مثل غير السامع^(٤). وأطلق على الإنذار في قوله تعالى: ﴿ فَيَبْرَهُ بَعْدَ أَبِي ﴾ اسم البشارة على طريقة التهكم.

الجحود

في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُنذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُصْرونَ ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

ينتمي النص إلى سورة « فصلت » المكية بلا خلاف. وهي تتناول القواعد الكبرى للعقيدة الإسلامية: « الوحداية » و « الرسالة » و « البعث » و « الجزاء »، شأنها شأن سائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان.

عرضت السورة في مجملها للتذكير بمصير المكذابين ومصارعهم عبر نماذج من الأمم السالفة عنت وأفسدت كقوم عاد وثمود.

أما مضمون الآيات فمناسب « لآخر سورة المؤمن من عدم انتفاع مكذبي الرسل حين التمس بهم العذاب، وكذلك قريش حل بصناديدها من القتل والأسر والنهب والسلب واستأصل أعداء رسول الله ﷺ ما حل بعاد وثمود عن استصالحهم^(٥).

(١) البحر المحيط (١٦/٩).

(٢) (٣، ٢) التحرير والتنوير (٢٥/٣٣٢).

(٤) الكشاف (٣/٥٠٩)، ومفاتيح الغيب (٢٧/٢٦٢)، وفتح القدير (٥/٥)، والتحرير والتنوير (٢٥/٣٣٢).

(٥) البحر المحيط (٩/٢٨٣).

١ - مفهوم الجحود:

(١ / ١) في اللغة:

« الجيم والحاء والذال أصل يدل على قلة الخير... ومن هذا الباب الجحود، وهو ضد الإقرار، ولا يكون إلا مع علم الجاحد به أنه صحيح، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَدُوا بِهَا وَأَسَافَتْنَهَا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [النمل: ١٤] ^(١).

يقال: جحدته حقه وبحقه، جحدًا وجحودًا أنكره مع علمه ^(٢).

وقال الكفوي: « الجحد: هو نفي ما في القلب ثباته وإثبات ما في القلب نفيه » ^(٣)،
« أما الجحود فإنما يقال فيما ينكر باللسان دون القلب » ^(٤).

وقال المناوي: « الجحد إنكار ما سبق له وجود، وهو خلاف النفي، إذ هو إنكار نفس وجود المدعي » ^(٥).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد مصطلح الجحود في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، في آيات كلها مكية ^(٦) جاء فيها المصطلح بصيغة الفعلية: فعلاً ماضياً في موضعين وفعلاً مضارعاً في عشرة مواضع. وهذا يدل على أن الجحود صفة متجددة لدى الكفار، مستمرة منهم، تطبع سلوكهم مع الأنبياء وأهل الدعوة على امتداد التاريخ.

وورد الفعل في تسعة مواضع مسنداً إلى الجمع. وهذا يدل على أن الجحود صفة لفئة من الناس في كل مجتمع، هي فئة الكفار والمنافقين.

إن الجحود بهذا الاعتبار هو أحد الركائز التي تقوم عليها حركة أهل الطاغوت باعتبارهم كتلة منسجمة في الهدف وإن لم تجمعها وحدة تنظيمية معينة.

(١) المقاييس ١ جحد ٥، واللسان ١ جحد ٥، والصحاح ١ جحد ٥، والقاموس المحيط ١ جحد ٥.

(٢) القاموس المحيط ٥ جحد ٥.

(٣) الكليات (ص ٣٠٦)، وانظر: المفردات ٥ جحد ٥.

(٤) الكليات (ص ١٦٠)، والتوقيف على مهمات التعاريف (ص ٢٣٢).

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف (ص ٢٣٢).

(٦) وهي: الأنعام: ٣٣، والأعراف: ٥١، وهود: ٥٩، والنحل: ٧١، والنمل: ١٤، والمعنكبوت: ٤٧، ٤٩، ولقمان:

٣٢، وغافر: ٦٣، وفصلت: ١٥، ٢٨، والأحقاف: ٢٦.

ومما يلاحظ في كل موارد المصطلح أن فعل الجحود متعلق دائماً بموضوع، وهو:

- آيات الله تبارك وتعالى.

- ونعمة الله تعالى.

أما معناه في القرآن الكريم فهو إنكار الكفار آيات الله ونعمه الدالة على وحدانيته والتكذيب بها علواً واستكباراً رغم أن قلوبهم موقنة بأنها من عنده تعالى مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَحَمَدُوا رَبَّهَا وَأَسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، فلا جحود إلا بعد المعرفة.

٢ - علاقة الاستكبار بالجحود في الآية:

- لما بين الله جل جلاله كفر قوم عاد وثمود على الإجمال بين فيما بعد خصائص كل قبيلة على حدة، فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ « وهذا الاستكبار فيه وجهان: (الأول) إظهار النخوة والكبر، وعدم الالتفات إلى الغير، و (الثاني) الاستعلاء على الغير واستخدامه. ثم ذكر الله تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة. ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم، فقال: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم متقادين لله تعالى، خاضعين لأوامره ونواهي... ثم قال: ﴿وَكَانُوا يَتَّيَنَتَنَا بِجَحْدُوتٍ﴾ والمعنى أنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودع الوديعة^(١).

- هذا الجحود كان نتيجة للاستكبار؛ لأن الاستكبار يصبح حجاباً سميكاً بين الإنسان وبين الحقيقة، وهذا الجحود وذلك الاستكبار سبب في إرسال العذاب المهين عليهم.

مستفادة:

- يقول الإمام الرازي: «واعلم أنا ذكرنا أن مجامع الخصال الحميدة، الإحسان إلى الخلق والتعظيم للخالق. فقوله: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مضاد للإحسان إلى الخلق. وقوله: ﴿وَكَانُوا يَتَّيَنَتَنَا بِجَحْدُوتٍ﴾ مضاد للتعظيم للخالق، وإذا كان

الأمر كذلك فهم قد بلغوا في الصفات المذمومة، الموجبة للهلاك والإبطال إلى الغاية القصوى. فلهذا المعنى سلط الله العذاب عليهم^(١).

المكر السيئ

في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِأَنَّهُمْ جَاهِدُوا بِأَنفُسِهِمْ لِيَلْ أَرْضَهُمْ نَدِيرٌ يَأْتِيهِمْ مِنْ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِيمَانِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَدِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٣﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴿٤٤﴾ [فاطر: ٤٣، ٤٤].

نزلت في كفار قريش، وذلك لما روي أنهم كانوا قبل الإسلام يأخذون على اليهود والنصارى في تكذيب بعضهم بعضاً ويقولون: لو جاءنا رسول لكنا أهدي من هؤلاء وهؤلاء. فلما بعث فيهم رسول الله ﷺ كذبه واستكبروا عن قبول دعوته^(٢).

١ - مفهوم المكر السيئ:

(١ / ١) في اللغة:

الميم والكاف والراء كلمتان متبائتان، إحداهما المكر: الاحتيال والخداع، ومكر به بمكر. والأخرى المكر: خدالة الساق وامرأة ممكورة السابقين^(٣). والمعنى الأول هو الذي يعيننا.

وزاد بعض المعجمين في الإيضاح بكون المكر احتيال في خفية. والمكر: احتيال بغير ما يضر، والاحتيال بغير ما يبدي هو الكيد، والكيد في الحرب حلال، والمكر في كل حال حرام^(٤).

وقد مكر به بمكر فهو ماكر ومكار^(٥).

« والسوء نعت لكل شيء رديء، ساء يسوء، لازم ومجاوز... »

وساء الشيء قبح فهو سيء... والسوء اسم جامع للأفات والداء... »

والسيء والسيئة: عملان قبيحان، يصير السيء نعتاً للذكر من الأعمال، والسيئة للأثني^(٦).

(١) مفاتيح الغيب (٢٧ / ١١٢).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٤ / ٤٤٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٣٥٨).

(٣) المفاتيح مكر.

(٤) العين مكر، واللسان مكر.

(٥) الصحاح مكر، والقاموس المحيط مكر.

(٦) العين سوء.

(٢/١) في القرآن الكريم:

ورد لفظ المكر في القرآن الكريم ثلاثة وأربعين مرة، في خمس وثلاثين نصاً مكيّاً، وثمانية نصوص مدنية، وفي هذا دلالة على أن لهذا المصطلح تعلق قوي بموضوع العقيدة من جانب إنكار المشركين لدعوة الإسلام والاستكبار عنها، وكذا الجزاء الذي ينالهم في الدنيا والآخرة نتيجة مكرهم وخداعهم.

وأما من جهة شكل الورد فيلاحظ بعد الإحصاء أن اللفظ جاء فعلاً في اثنين وعشرين موضعاً، ومصدرًا في تسعة عشر موضعاً، واسم فاعل للجمع في موضعين.

والفعل ورد بالتساوي بين الماضي والمضارع: أحد عشر موضعاً لكل منهما، أسند في معظمها لضمير الجمع. أما المركب اللفظي « مكر السين » فورد مرتين في آيتين هما محل بحثنا في هذا الركن.

وبالاستقراء تبين أن المكر في القرآن الكريم نوعان:

- مكر محمود: أسند إلى الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤] وذلك أن يتحرى بذلك فعلاً جميلاً.

- مكر مذموم: أسند إلى الكافر. وهو أن يتحرى المرء به فعلاً قبيحاً. كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِبُّ الْمَكْرَ السَّيِّئَ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال المناوي - رحمه الله - : « المكر من جانب الحق ترادف النعم مع المخالفة. وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار الكرامات من غير حد. ومن جانب العبد: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر »^(١).

٢ - علاقة الاستكبار بالمكر السيئ في الآيتين:

(١/٢) (السياق الدلالي للآيتين:

يقول تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ [فاطر: ٤٢] [الضمير في ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ لكفار قريش^(٢)، « يقول تعالى ذكره: وأقسم هؤلاء المشركون بالله جهد أيمانهم: يقول أشد الإيمان. فبالغوا فيها، لئن جاءهم من الله منذر

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص ٦٧٣).

(٢) المحرر الوجيز (٤/٣٤٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٤/٣٥٨).

ينذرهم بأس الله: ﴿لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾، يقول: ليكونن أسلك لطريق الحق وأشد قبولاً لما يأتيهم به النذير من عند الله من إحدى الأمم التي خلت من قبلهم^(١).

لكن لما جاءهم النذير وهو الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢)، ماذا كان موقفهم؟ وكيف كان رد فعلهم؟

الجواب في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] أي: لم يزدهم مجيء سيدنا محمد بدعوة الحق إلا تباعداً عن الهدى وهرباً من الحق. فزادوا بذلك تنكياً عن الطريق القويم، طريق الإيمان بالله واتباع الحق الذي جاء به محمد ﷺ^(٣)، «والنفور البعد عن الشيء والفزع منه والاستبشاع له»^(٤).

ثم بين الله تعالى عقب ذلك سبب نفورهم وصددهم عن دعوة الحق، قال سبحانه: ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، إنها شدة التكبر في الأرض والتجبر والعتو على الله والأنفة من أن يكونوا تبعاً لغيرهم^(٥). واختلف المفسرون في من مكر به المشركون: رأي يقول أن الخديعة مراد بها رسول الله ﷺ وأهل دينه حين كفروا به وكذبوه^(٦). ورأي يقول أن المراد به هو صد الضعفاء عن اتباع الرسول والإيمان بما جاء به من ربه^(٧).

«و﴿يَحِيقُ﴾ معناه: يحيط ويحل وينزل، ولا يستعمل إلا في المكروه. وقوله: ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي أنه لا بد أن يحيق بهم إما في الدنيا وإلا في الآخرة، فعاقبته الفاسدة لهم وإن حاق في الدنيا بغيرهم أحياناً، فعاقبة ذلك على أهله»^(٨).

(٢/٢) (النظم اللغوي):

- ورد الاستكبار مصدرًا متكررًا، ومجيئه منصوبًا يحتمل ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون حالاً، أي مستكبرين في الأرض، بمعنى: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين^(٩).

(١) جامع البيان: ٢٢/١٤٥.

(٢) جامع البيان: ٢٢/٢٥٢، والمحرم الوجيز: ٤/٣٤٣، وتفسير القرآن العظيم: ٣/٤٩١.

(٣) جامع البيان: ٢٢/١٤٥، ومجمع البيان: ٢٢/٢٥٢.

(٤) المحرم الوجيز (٤/٣٤٣). (٥) مجمع البيان (٢٢/٢٥٢).

(٦) جامع البيان (٢٢/١٤٥)، والجامع لأحكام القرآن (١٤/٣٥٨)، وتفسير القرآن العظيم (٣/٤٩١).

(٧) المحرم الوجيز (٤/٣٤٤).

(٨) الكشاف: ٣/٣١٢، ومفاتيح الغيب (٢٦/٣٤).

الثاني: أن يكون مفعولاً لأجله باعتبار النفور في معنى الفعل، فصح إعماله في المفعول لأجله، والتقدير: نفروا لأجل الاستكبار في الأرض على معنى: فما زادهم إلا نفورًا، استكبارًا وعلوًا. أي نفروا من أجل الاستكبار^(١).

الثالث: أن يكون بدل اشتمال من ﴿نُفُورًا﴾^(٢).

و ﴿مَكْرَ السَّيِّئِ﴾ عطف على ﴿أَسْتِكْبَارًا﴾ بالوجه الثلاثة. وإضافة «مكر» إلى «السيئ» من إضافة الموصوف إلى الصفة مثل: عشاء الآخرة. وأصله أن يمكروا المكر السيئ بقرينة قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٣).

النفور

في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِيمَانِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾^(٤) أَسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ. [فاطر: ٤٢، ٤٣].

١ - مفهوم النفور:

(١ / ١) في اللغة:

« النون والفاء والراء أصل صحيح يدل على تجافٍ وتباعد »^(٥).

ومنه: نفرت الدابة وتَنَفَّرَ وتَنَفَّرَ نفورًا ونفازًا - فهي نافر ونفور: جزعت وتباعدت^(٥). يقال: نفر ينفر نفورًا ونفازًا، إذا فر وذهب^(٦).

ومنه المجاز: بي نفرة من هذا الأمر، وأنا نافر منه إذا انقبضت منه ولم ترض به^(٧).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد مصطلح النفور في القرآن الكريم ثمانى عشرة مرة، في عشر آيات مكية وثمان مدنية. ويلاحظ أن ورود المصطلح بصيغة المصدر جاء في كل موارد صفة للكفار،

(١) الكشاف (٣/ ٣١٢)، والمحرد الوجيز (٤/ ٣٤٣)، ومفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٤)، والتحرير والتنوير (٢٢/ ٣٣٤).

(٢) الكشاف (٣/ ٣١٢)، والمحرد الوجيز (٤/ ٣٤٣)، والتحرير والتنوير (٢٢/ ٣٣٤).

(٣) المقاييس «نفر».

(٤) المقاييس «نفر».

(٥) القاموس المحيط «نفر».

(٦) اللسان «نفر».

(٧) أساس البلاغة «نفر».

الذين لم يزدحم نزول القرآن ومجيء الدين الجديد إلا تباعدًا عنه وفرارًا منه. ومعناه: تباعد المشركين عن الهدى والحق هربًا منه، دون النظر فيه والاعتبار به. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١]. وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

٢ - علاقة الاستكبار بالنفور في الآية:

(١ / ٢) (السياق الدلالي للآية:

وقد سبق تناوله في دراستنا لعلاقة الاستكبار بالمكر السيئ^(١).

(٢ / ٢) (النظم اللغوي للآية:

قوله تعالى: ﴿ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٤٣] يدل اشتمال من « نفورًا » أو مفعول لأجله على معنى: فما زادهم إلا نفورًا، استكبارًا وعلوًا، لأن النفور في معنى الفعل فصح إعماله في المفعول له، والتقدير: نفروا لأجل الاستكبار في الأرض^(٢). وقد يكون « استكبارًا » حال، بمعنى: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ وبالْمُؤْمِنِينَ^(٣).

وقد ورد الاستكبار والنفور بصيغة المصدر للدلالة على أن الله تعالى ينعي جنسهما.

الإجرام

في قوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْفِيلِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠].
- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۚ إِنِّي مَفْضَلْتُ فَلَا يَسْتَكْبِرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

(١) انظر (ص ١٠١).

(٢) الكشاف (٣/٣١٢)، والمحرم الوجيز (٤/٤٤٣)، والتحرير والتوير (٢٢/٣٣٤).

(٣) الكشاف (٣/٣١٢).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥].

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَنْزِلَ عَلَيْكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الجنابة: ٣١].

١ - مفهوم الإجرام:

(١ / ١) في اللغة:

« الجيم والراء والميم أصل واحد يرجع إليه الفروع، فالجرم القطع... والجرم والجريمة: الذنب، وهو من الأول لأنه كسب والكسب اقتطاع»^(١).

والجرم التعدي وفعله الإجرام، تقول منه جرم وأجرم واجترم فهو مجرم^(٢).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

قال الكفوي: « كل مجرم في القرآن فالمراد به الكافر»^(٣).

وقال الراغب: « وأجرم صار ذا جرم... واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه ولا يكاد

يقال في عامة كلامهم للكيس المحمود ومصدره جرم... فمن الإجرام قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩]»^(٤).

٢ - علاقة الاستكبار بالإجرام في الآيات:

(١ / ٢) السياق الدلالي للآيات:

- الآية الأربعون من سورة الأعراف، وقد سبق تناوله عند دراستنا لعلاقة الاستكبار

بالتكذيب^(٥).

- الآية الثالثة والثلاثون بعد المائة من سورة الأعراف:

الضمير في ﴿ وَقَالُوا ﴾ عائذ على آل فرعون، لم يزد هم الأخذ بالجذب ونقص الثمرات

إلا طغياناً وتشدداً في كفرهم وتكذيبهم^(٦).

« ومعنى تفصيل الآيات تبيينها وإزالة إشكالاتها. والتفصيل هو التفريق، وفي المعاني

(١) المقاييس « جرم »، وانظر: اللسان « جرم ».

(٢) الكليات (ص ٨٠٢).

(٣) انظر: (ص ٧٧).

(٤) البحر المحيط (١٤٨/٥).

(٥) اللسان « جرم ».

(٦) المفردات « جرم ».

يراد به أنه فرق بينها فاستبانته وامتاز بعضها من بعض فلا يشكل على العاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم... ومع إرسال جنس الآيات استكبروا عن الإيمان وعن قبول أمر الله تعالى: ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ إخبار منه تعالى عنهم باجترامهم على الله وعلى عباده^(١).

- الآية الخامسة والسبعون من سورة يونس: قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ [يونس: ٧٤] عطف قصة على قصة أي من بعد أولئك الرسل - عليهم السلام -.

وقوله: ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر، ولم يكنف باندرج خبرها فينا، أشير إليه إشارة إجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم، وأوثر في ذلك ضرب تفصيل إيذاناً بخاطر شأن القصة وعظم وقعها كما في نبأ نوح عليه السلام.

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ ﴾ أي أشرف قومه، وتخصيصهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والمللمات. ﴿ يَأْتِيَنَا ﴾ أي ملتسين بها، وهي الآيات المفصلات في الأعراف. ﴿ فَأَسْتَكْبِرُوا ﴾ الفاء فصيحة أي فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما.

﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله، أي كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام، فإن الإجماع مؤذن بعظم الذنب... فلذلك اجترؤوا على ما اجترؤوا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى^(٢).

- الآية الواحدة والثلاثون من سورة الجاثية:

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنزلُ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ يقال للذين كفروا ذلك توبيخاً وتقريعاً، أي: أما قرأت عليكم آيات الله فاستكبرتم عن اتباعها وأعرضتم عن سماعها، ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين، تكسبون المعاصي. يقال: فلان جريمة أهله إذا كان كاسبهم، فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي. وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَتَجْمَلُ الْكُفْرِينَ كَأَلْحَمِيمِينَ ﴾ [القم ٣٥] فالمجرم ضد المسلم، فهو المذنب بالكفر إذن^(٣).

(١) البحر المحیط (٥/١٥١، ١٥٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٤/١٦٧).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٦/١٧٦)، وتفسير القرآن العظيم (٤/١٥٥).

(٢ / ٢) النظم اللغوي:

- الآية الثالثة والثلاثون بعد المائة من سورة الأعراف:

« الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ للتفريع والترتيب أي: ففزع على إرسال الطوفان وما بعده استكبارهم، كما تفزع على أخذهم بالسنين غرورهم بأن ذلك من شؤم موسى ومن معه، فعلم أن من طبع تفكيرهم فساد الوضع، وهو انتزاع المدلولات من أصداد أدلتها، وذلك دليل على انغماسهم في الضلالة والخذلان، وبعدهم عن السعادة والتوفيق، فلا يزالون مورطين في وحل الشقاوة... وجملة: ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ فالمعنى: فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا، وإنما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام وتمكنه منه ورسوخه فيهم من قبل حدوث الاستكبار، وفي ذلك تنبيه على أن وصف الإجرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار الصادر منهم، ف﴿ كَانَتْ ﴾ دالة على استمرار الخير وهو وصف الإجرام»^(١).

وإقحام ﴿ قَوْمًا ﴾ دون الاقتصار على وكنتم مجرمين، للدلالة على أن الإجرام صار خلقاً لهم وخالط نفوسهم حتى صار من مقومات قوميتهم.

- الآية الخامسة والسبعون من سورة يونس:

تفريع قوله سبحانه: ﴿ اسْتَكْبَرُوا ﴾ على جملة ﴿ بَعَثْنَا ﴾ يدل على أن كل إعراض منهم وإنكار في مدة الدعوة والبعثة هو استكبار. وجملة: ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ في موضع الحال، أي وقد كان الإجرام دأبهم وخلقهم، فكان استكبارهم على موسى عليه السلام من جملة إجرامهم^(٢).

وعبر المولى عليه السلام بـ ﴿ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ دون: « كانوا مجرمين » للوجه الذي ذكرناه في آية الأعراف من قبل.

- الآية الواحدة والثلاثون من سورة الجاثية:

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ تُنذِرُ عَلَىٰ كَافِرٍ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾، الاستفهام توبيخ وتقرير. قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ﴾ فإن التقدير: ﴿ وَأَمَّا

(٢) المصدر نفسه (١١ / ٢٤٧).

(١) التحرير والتنوير (٩ / ٧٠، ٧١).

الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾ فيقال لهم: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ﴾ فحذف « يقال » اختصارًا وبقيت الفاء دالة على الجواب الذي تطلبه « أما » ثم قدم عليها ألف الاستفهام من حيث له صدر القول على كل حالة^(١).

وتعبير المولى ﷺ ب: ﴿ قَوْمًا ﴾ دون الاختصار على: وكنتم مجرمين، للدلالة على أن الإجماع صار خلقًا لهم وخالف نفوسهم حتى صار من مقومات قوميتهم^(٢).

الهوى

في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

النص من سورة البقرة وهي من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع. شأنها شأن سائر السور المدنية التي تعرض للنظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية. لقد اشتملت على معظم الأحكام في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وفي أمور الزواج والطلاق والعدة وغيرها، كما تحدثت بإسهاب عن أهل الكتاب وخاصة اليهود.

والنص المدروس هاهنا جاء في سياق الحديث عن أهل الكتاب، وبالتحديد اليهود الذين كانوا مجاورين للمسلمين بالمدينة. حيث نبه الله ﷻ المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم وما تتطوي عليه نفوسهم من لؤم وغدر ونقض للمعاهد والمواثيق وتكذيب الأنبياء والرسل وقتلهم والإفساد في الأرض، تنبيهًا إلى عظيم خطرهم وكبير ضررهم.

١ - مفهوم الهوى:

(١ / ١) في اللغة:

« الهاء والواو والياء أصل صحيح يدل على خلو وسقوط، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوه... ويقال: هوى الشيء يهوي: سقط. والهاوية جهنم؛ لأن الكافر يهوي فيها..

أما الهوى: هو النفس فمن المعنيين جميعًا، لأنه خال من كل خير ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي^(١).

والهوى: الحب، تقول: هوي يهوى هوى^(٢)، والهوى: العشق، يكون في مداخل الخير والشر^(٣)، والهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه^(٤). وهوى النفس إرادتها، والجمع الأهواء^(٥). وقال الأزهري: قال اللغويون: الهوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، قال الله ﷻ: ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠] معناه: نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله ﷻ^(٦).

ومتى تكلم بالهوى مطلقًا لم يكن إلا مذمومًا، حتى ينعت بما يخرج معناه إذ لما كان الغالب من موافق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع أطلق ذم الهوى والشهوات لعموم غلبة الضرر^(٧).

(٢/١) في القرآن الكريم:

ورد لفظ الهوى ثمانين وثلاثين مرة في القرآن الكريم، في خمس وعشرين آية مكية وثلاث عشرة آية مدنية. مما يوضح أن موضوعه يرتبط بالعقيدة أكثر. وذلك في سياق ذم الكافرين الذين اتبعوا أهواءهم وأترفوا ما هم فيه من الشهوات، فصددهم ذلك عن الحق واتباع سبيل الهدى، وأخلدوا إلى الأرض واستحقوا الضلالة والعمى في الدنيا وعذاب الله في الآخرة.

وجاء اللفظ في معظم الموارد مصدرًا، مما يدل على أن الله ﷻ يذم جنس الهوى. وورد ثمانين مرات فعلاً. ويتلخص معناه في القرآن الكريم في ميل النفس إلى ما تشتهيه من محارم ومعاصي من غير التفات إلى ما هو الحق الذي يجب اتباعه.

وأكثر استعماله فيما ليس بمحمود، روي عن ابن عباس أنه قال: ما ذكر الله ﷻ الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه^(٨).

(١) المقاييس «هوى».

(٢) العين «هوى».

(٣) اللسان «هوا».

(٤) ذم الهوى، لابن الجوزي (١٢/١).

(٥) اللسان «هوا».

(٦) تهذيب اللغة «هوى».

(٧،٨) ذم الهوى (١٢/١).

٢ - علاقة الاستكبار بالهوى في الآية:

(١ / ٢) السياق الدلالي للآية:

المخاطب في قوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴿﴾ [البقرة: ٨٧] الآية هم يهود بني إسرائيل^(١).

انتقل الله ﷻ من الإنحاء على بني إسرائيل لما رفضوا رسالة موسى إليهم وقابلوها بالعصيان وبما خالفوا من أحكام التوراة بعد موته ﷺ، إلى الإنحاء عليهم بما استقبلوا به رسالات الرسل والأنبياء من بعده من إغراض واستكبار.

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ يَمَّا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ ﴿﴾ يا معشر يهود بني إسرائيل أفكلما بعثنا لكم رسولاً بما لا يوافق شهوات أنفسكم ويلانمها، ترفعتم وتكبرتم وأنفتم من قبول رسالاتهم.

وسمي الهوى كذلك لأنه يهوي بصاحبه - بما هو ميل عن الحق إلى الشهوة - في النار وذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه، وهذه الآية من ذلك^(٢).

ولقد كانت حجة بني إسرائيل دائماً في رفض الانقياد لرسول الله، وخاصة محمد ﷺ، أن عندهم الكفاية من التعاليم، تكفيهم لتنظيم شؤونهم، وأنهم ماضون على شريعة أسلافهم ووصاياهم. لكن الله يفضحهم، ويبين أن السبب في رفضهم وإعراضهم عن الحق هو لأجل مخالفته أهواءهم، فهذا هو مدار القبول والرفض عندهم. « وإلا فكيف لم يجدوا خلال هاته العصور، ومن بين تلك المشارب، ما يوافق الحق ويتمحس للنصح^(٣) ».

قوله تعالى: ﴿ أَسْتَكْبِرْتُمْ ﴿﴾ أي: أنفتم وتعظمتن عن إجابة الرسل، احتقاراً لهم واستبعاداً للرسالة. وهذا الاستكبار منهم. « نتيجة للجهل بالنفس، المقارن للجهل بالخالق، وأن ذلك كان يتكرر منهم بتكرر مجيء الرسل إليهم، وهو استكبار بمعنى التكبر، وهو مشعر

(١) انظر: جامع البيان (١/٤٠٥)، ومجمع البيان (١/٣٢٩)، والكشاف (١/٢٩٥)، والمحرم الوجيز (١/١٧٧)، ومفاتيح الغيب (٣/١٩١)، وتفسير القرآن العظيم (١/١٢١)، وفي ظلال القرآن (١/٨٨)، والتحرير والتنوير (١/٥٩٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٥). (٣) التحرير والتنوير (١/٥٩٢).

بالتكلف والتفعل لذلك، لا أنهم يصيرون بذلك كبراء، عظماء، بل يفعلون ذلك ولا يبلغون حقيقته، لأن الكبرياء إنما هي لله تعالى^(١).

وكانت نتيجة استكبارهم أنهم كذبوا بعض الرسل وقتلوا آخرين. قال تعالى: ﴿فَقَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيفًا نَقُلْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧].

(٢/٢) النظم اللغوي للآية:

«كلما» ظرف، والعامل فيه «استكبرتم» وظاهر الكلام الاستفهام ومعناه التوبيخ والتقدير. ويتضمن أيضًا الخبر عن بني إسرائيل^(٢).

«والفاء للسببية، والاستفهام للتعجب من طغيانهم ومقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة، ساوى فيها الخلف السلف، مما يدل على أن ذلك سجية في الجميع... ومعنى الفاء هنا تسبب الاستفهام التعجبي الإنكاري على ما تقرر عندهم من تقية موسى بالرسول، أي فمن عجيب أمركم أن كل رسول جاءكم استكبرتم»^(٣).

«وبما» متعلق بقوله تعالى: ﴿جَاءَكُمْ﴾ و«ما» موصولة والعائد محذوف أي لا تهواه^(٤).

- وصيغ لفظ الهوى بصيغة الفعل المضارع للدلالة على تجدد ميلهم إلى أنفسهم، وانخلاعهم عن القيود الشرعية والانغماس في ملذاتهم كلما جاءهم رسول من الله يبلغهم رسالته.

- وصيغ مصطلح الاستكبار بصيغة الفعل الماضي للدلالة على رسوخهم عليه عبر العصور، حتى صار لصيقًا بهم. ومتعلق «استكبرتم» محذوف، أي عن الإيمان بما جاء به الرسول.

- وقوله سبحانه: ﴿فَقَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيفًا نَقُلْتُمْ﴾ ظاهره أنه معطوف على قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾. و«الفاء للسببية إن كان التكذيب والقتل مرتبين على الاستكبار وللتفصيل إن كانا نوعين منه»^(٥).

(١) البحر المحيط (١/٤٨٢، ٤٨٣).
 (٢) المحرر الوجيز (١/١٧٦).
 (٣) التحرير والتنوير (١/٥٩٦).
 (٤) البحر المحيط (١/٤٨٢).
 (٥) روح المعاني (١/٣١٨).

مستفادات:

« اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهون، كذبوه، وإن نهياً لهم قتله قتلوه. وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتهم الترويس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق. وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبونهم لأجل ذلك، ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين، ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم»^(١).

« محاولة إخضاع الهداة والشرايع للهوى الطارئ والنزوة المتقلبة ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته، المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت غير المصدر الإنساني المتقلب»^(٢).

الترف

في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿١١﴾ لَا يَجْتَرُوا يَوْمَ الْاِكْرَامِنَا لَا تُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ فَذَكَاتَ مَا بَيْنِي أُمَّتَلَّ عَلَيْكُم فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَغْفِيكُمْ نَنكُصُونَ ﴿١٣﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٧].

١ - مفهوم الترف:

(١ / ١) في اللغة:

« التاء والراء والفاء كلمة واحدة وهي الترفة، يقال: رجل مترف: منع، وترفة أهله إذا نعموه بالطعام الطيب والشيء يخص به»^(٣).

وقال ابن منظور: « الترف: الترف، والترفة: النعمة، والمترف: الذي أبطرت النعمة وسعة العيش. وأترفته النعمة أي أطفته... وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا قَالَ مَرْفُوهَا ﴾ [سبأ: ٣٤] أي أولي الترفة، وأراد رؤساءها وقادة الشر منها»^(٤).

وفي القاموس المحيط: المترف، كمكرم: المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع، والمتنعم لا يمنع من تنعمه، والجبار»^(٥).

(٢) في ظلال القرآن (١/٨٩).

(٤) اللسان « ترف ».

(١) مفاتيح الغيب (٣/١٩١).

(٣) المفاتيح « ترف ».

(٥) القاموس المحيط « ترف ».

(٢/١) في القرآن الكريم:

ورد لفظ الترف ثماني مرات في القرآن الكريم، في آيات كلها مكية^(١)، وهذا يدل على ارتباطه الشديد بموضوع العقيدة من جانب إنكار المشركين المترفين لدعوة الأنبياء وإفسادهم في الأرض.

وصيغ اللفظ في خمسة مواضع بصيغة اسم الفاعل للجمع، دلالة على تمكن صفة الترف من أعداء دعوة الحق ورسوخهم عليها، حتى ضروا بها وصارت لهم سجية، وللدلالة أيضًا على أن المترفين تكتل اجتماعي متكامل، له هدف أساسي هو مقاومة الرسالة ومحاربة أهلها. وقد نعتهم القرآن الكريم بالكفر والظلم والتكذيب، مما يدل على أن الترف صفة قبيحة عكس الغنى.

أما معناه في القرآن الكريم فهو التعم بملفات الدنيا والانشغال بها عن دعوة الله، المفضي إلى البطالة والبطر والعتو وترك التفكير في العاقبة.

٢ - علاقة الاستكبار بالترف في الآية:

(١/٢) السياق الدلالي للآية:

المراد بالمترفين في الآية المتعتمدين من كفار قريش، المستغرقين في المتاع والانحراف والذهول عن المصير. أو المراد بهم الرؤساء والقادرة منهم^(٢).

« وإنما جعل الأخذ واقعًا على المترفين منهم لأنهم الذين أضلوا عامة قومهم، ولولا نفوذ كلمتهم على قومهم لاتبعت الدهماء الحق، لأن العامة أقرب إلى الإنصاف إذا فهموا الحق، بسبب سلامتهم من جل دواعي المكابرة، من توقع تقلص سوّد وزوال نعيم... وتخصيص المترفين بالتعذيب مع أن شأن العذاب الإلهي إن كان دنيويًا أن يعم الناس كلهم، إيماء إلى أن المترفين هم سبب نزول العذاب بالعامّة، ولأن المترفين هم أشد إحساسًا بالعذاب، لأنهم لم يعتادوا مس الضراء والآلام. وقد علم مع ذلك أن العذاب يعم جميعهم من قوله: ﴿ إِذَا هُمْ يَحْتَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٤] فإن الضميرين في ﴿ إِذَا هُمْ ﴾ و ﴿ يَحْتَرُونَ ﴾ عائدان إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ مَتَرَفِينَ ﴾ بقرينة قوله: ﴿ فَذَكَرَتْ أَيْنِي تَلَنَ ﴾

(١) الأنبياء: ١٣، وهود: ١١٦، والإسراء: ١٦، والمؤمنون: ٣٣، ٦٤، وسبأ: ٣٤، والزخرف: ٢٣، الواقعة:

(٢) انظر: فتح القدير (٣/٤٨٩)، وفي ظلال القرآن (٤/٢٤٧٣)، والتحرير والتنوير (١٨/٨٢).

عَلَيْكُمْ ﴿ [المؤمنون: ٦٦] إلى قوله: ﴿ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، فإن ذلك كان من عمل جميعهم. ثم الظاهر أن المراد من هذا العذاب، عذاب يحل بهم في المستقبل بعد نزول هذه الآية التي هي مكية... ولذا فالعذاب المذكور هنا عذاب هددوا به، وهو إما عذاب الجوع الثاني الذي أصاب أهل مكة بدعوة النبي ﷺ بعد هجرته... وقيل: إن هذا العذاب عذاب وقع قبل نزول الآية وتعين أنه عذاب الجوع الذي أصابهم أيام مقام النبي ﷺ في مكة ثم كشفه الله عنهم ببركة نبيه وسلامة المؤمنين، وذلك المذكور في سورة الدخان: ﴿ رَبَّنَا كَيْفَ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان: ١٢]. ومعنى ﴿ يَهْجُرُونَ ﴾ يصرخون ومصدره الجأر، والاسم الجؤار بضم الجيم، وهو كناية عن شدة ألم العذاب، بحيث لا يستطيعون صبراً عليه، فيصدر منهم صراخ التأوه والويل والثبور^(١).

بعد ذلك عدد الله لهؤلاء المترفين صفتين قبيحتين وهما النكوص والاستكبار. قال تعالى: ﴿ فَذَكَاتَ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ تَعْتِكُمْ لِنَكْحُوصٍ ﴿٣٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] جيء بلفظ ﴿ نَكْحُوصٍ ﴾ استعارة لإعراضهم وإدبارهم عن الحق^(٢).

وقوله ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ في تفسيره قولان: أحدهما: أن « مستكبرين » حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبانهم إياه استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله، وقيل: المراد بقوله ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به^(٣). وجمهور المفسرين على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ بِهِ ﴾ عائد على الحرم وإن لم يتقدم له ذكر، لشهرته في الأمر، ومسوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وأنه لم تكن لهم معجزة إلا أنهم ولاته والقائمون به^(٤).

« وفيه إنحاء عليهم في استكبارهم، وفي كون استكبارهم في ذلك الموضع الذي أمر الله أن يكون مظهرًا للتواضع ومكارم الأخلاق. فالاستكبار في الموضع الذي شأن القائم

(١) التحرير والتنوير (١٨/٨٢ - ٨٤).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٤/١٤٩)، والبحر المحيط (٧/٢٧٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/١٣٦)، وتفسير القرآن العظيم (٣/٢٢١)، وفتح القدير (٣/٤٩٠)، والتحرير والتنوير (١٨/٨٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٢١، ٢٢٢).

(٤) انظر: المحرر الوجيز (٤/١٩٤)، والبحر المحيط (٧/٢٧٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/١٣٦)، وفتح القدير (٣/٤٩٠)، وروح المعاني (١٨/٤٩).

فيه أن يكون قانتاً لله حنيئاً أشنع استكباراً^(١).

(٢/٢) النظم اللغوي:

حتى في قوله تعالى: ﴿ حَقِّقْ إِذَا أَخَذْنَا مَتْرَفِهِمْ... ﴾، ابتدائية ما بعدها ابتداء كلام. وبهذه الغاية صار الكلام تهديداً للمتزين بعذاب سيحل بهم يجأرون منه ولا ملجأ لهم منه. وصيغ لفظ الترف بصيغة اسم الفاعل للدلالة على رسوخهم فيه حتى صار سمة بارزة لهم. والضمير المضاف إلى « مترفهم » عائد إلى جميع المشركين أصحاب الغمرة^(٢).

قوله: ﴿ فَذَكَرْنَاكَ آيَاتِنَا تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ... ﴾ استئناف. والخبر مستعمل في التنديم والتلهيف، وإنما لم تعطف الجملة على جملة ﴿ إِنْ كَرِهْنَا لَأُنْصِرُونَ ﴾ لقصد إفادة معنى بها غير التعليل؛ إذ لا كبير فائدة في الجمع بين علتين... وذكر فعل ﴿ كُنْتُمْ ﴾ للدلالة على أن ذلك شأنهم. وذكر المضارع للدلالة على التكرار، فذلك خلق منهم معاد مكرور^(٣).

وصيغ لفظ الاستكبار بصيغة اسم الفاعل للدلالة على رسوخهم فيه وتمكنه من قلوبهم. وهو هنا حال، وعدي بالضمير ﴿ بِهِ ﴾ إما جوازاً أن يكون عانداً على الآيات، لأنها بمعنى القرآن، فيكون ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ بمعنى معرضين استكباراً واستعلاء، وتكون الباء بمعنى عن^(٤)، وإما أن يكون ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ ضمن معنى مكذبين فعدي بالباء، أو تكون الباء للسبب، أي يحدث لكم بسببه استكبار وعتو^(٥)، ويجوز أن يكون الضمير للبيت العتيق وإن لم يتقدم له ذكر لأنه حاضر في الأذهان، فلا يسمع ضمير لم يتقدم له معاد إلا ويعلم أنه المقصود بمعونة السياق^(٦).

مستفادات:

- المترفون على مدار التاريخ كانوا ينكرون النبوات والقيم السامية، ويستكبرون على الهدى ويصرون على الباطل ويكذبون بلقاء الآخرة، تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغذيهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، وأنهم أعلى من الحساب والجزاء.

(٢) المصدر نفسه (١٨/٨١).

(١) التحرير والتنوير (١٨/٨٦).

(٤) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه (١٨/٨٥).

(٥) الكشاف (٣/٣٦)، والبحر المحيط (٧/٢٧٢).

(٦) التحرير والتنوير (١٨/٨٦).

- لقد رفض المترفون الحق الذي جاء من عند الله وصدوا عنه، ورفضوا كل مبدأ أخلاقي جاء ليضبط حركة الإنسان على الأرض يكرهون القيم العليا والمبادئ السامية، التي ترفع الإنسان وتخرجه من دركات الرذائل والهواء والشهوات، يكرهون هذه القيم والمبادئ ويستكبرون على اتباعها لأنها تسلبهم القيم الباطلة التي يعيشون بها، وتصطدم بأهوائهم المتأصلة التي يحققون بها امتيازات السيطرة والجبروت والريح الفاحش الذي لا يعرف أي ضابط أخلاقي سوى المصلحة الذاتية وإشباع الغرائز المنهومة.

القوة

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَا أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أُولَئِكَ رِجَالُ اللَّهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٦٠﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِّبَهُمْ بَعْدَ الْخُرْبِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِئَلَّامُ الْآخِرَةِ آخَرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [فصلت: ١٦٠، ١٦١].

١ - مفهوم القوة:

(١ / ١) في اللغة:

القاف والواو والياء أصلان متباينان: يدل أحدهما على شدة وخلاف ضعف، والآخر على خلاف هذا وقلة خير.

فالأول: القوة والقوي: خلاف الضعيف، وأصل ذلك من القوي^(١).

والقوة من تأليف « ق و ي » ولكنها حملت على فعلة فأدغمت الياء في الواو كراهية تغيير الضمة. والفعالة منها قوابة، يقال ذلك في الحزم ولا يقال في البدن^(٢)، والقوة بالضم ضد الضعف، والجمع قوى وقوى بالضم والكسر^(٣).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

تستعمل القوة في القرآن بمعان. قال الراغب:

« القوة تستعمل تارة في معنى القدرة نحو قوله: ﴿ حُدُّوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣، ٩٣، الأعراف: ١٧١]، وتارة للتهيؤ الموجود في الشيء نحو أن يقال: النوى بالقوة نخل، أي متهيئ ومرشح أن يكون منه ذلك، ويستعمل ذلك في البدن تارة، وفي

(١) المقاييس ٥ قوي ٤.

(٢) اللسان ١ قوا ١.

(٣) اللسان ٥ قوا ٥، والقاموس المحيط ٤ القوة ١.

القلب أخرى، وفي المعاون من خارج وفي القدرة الإلهية تارة، ففي البدن نحو قوله: ﴿ مِّنْ أَشَدِّ مِثْقَالٍ قُوَّةٍ ﴾ [فصلت: ١٥]... وفي القلب نحو قوله: ﴿ بَيِّنَجْنِ حُذِّ الصِّكْتِ بَ يَقُوقُ ﴾ [مريم: ١٢] أي بقوة قلب. وفي المعاون من خارج نحو قوله: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ ﴾ [هود: ٨٠] قيل: معناه من اتقوى به في الجند وما اتقوى به من المال... وفي القدرة الإلهية نحو قوله: ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥، المجادلة: ٢١]^(١).

٢ - علاقة الاستكبار بالقوة في الآية:

سبق تناولها في دراستنا لعلاقة الاستكبار بالجحود^(٢).

مستفادات:

- هذا الاستكبار « فيه وجهان: الأول: إظهار النخوة والكبر وعدم الالتفات إلى الغير، والثاني: الاستعلاء على الغير واستخدامهم. ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا ﴿ مِّنْ أَشَدِّ مِثْقَالٍ قُوَّةٍ ﴾ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة، ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم فقال ﴿ أَوْلَتِرُوهُنَّ إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُنَّ هُوَ أَشَدُّ مِثْقَالَهُنَّ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] يعني أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى خاضعين لأوامره ونواهيه^(٣).

المطلب الثاني

علاقات الاختلاف

الاستضعاف

في قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اتَعَلَمْتُمْ أَنَّ صَحَابًا مَّرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

(١) المفردات « قوي ».

(٢) انظر (ص ٩٩).

(٣) مفاتيح الغيب (١١٣ / ٢٧).

- ﴿ وَرَزَوُا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعُفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

- ﴿ وَلَوْ رَزَوُا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعُفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لَمَنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمِمْ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا أَتَدَامَةُ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَدَلِ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

- ﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعُفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

١ - السياق الدلالي للآيات:

- الآية الخامسة والسبعون من سورة الأعراف سبق أن تناولناه في دراستنا لعلاقة الاستكبار بالكفر^(١).

- الآية الحادية والعشرون من سورة إبراهيم:

قوله تعالى: ﴿ وَرَزَوُا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي ظهروا من قبورهم إلى جزاء الله وحسابه يوم القيامة. والضمير فيه عائد إلى الخلق المحاسبين^(٢).

« وإنما قال وبرزوا لله مع كونه سبحانه عالمًا بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى »^(٣).

(١) انظر: (ص ٦٩).

(٢) البحر المحیط (٦/٤٢٥)، وفتح القدير (٣/١٠٣).

(٣) فتح القدير (٣/١٠٣)، وانظر: الكشاف (٢/٣٧٢)، وإرشاد العقل السليم (٥/٤١).

وقوله تعالى: ﴿ جَمِيعًا ﴾ تأكيد ليشمل جميعهم من سادة ولفيف^(١)، والضعفاء في قوله: ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ هم الأتباع وعوام الناس^(٢).

واختار أبو السعود والأوسى أن المراد ضعف الرأي^(٣). أما الذين استكبروا فهم رؤساؤهم الذين استتعوهم واستغروهم لقوتهم ورياستهم^(٤).

قوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْتَبُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هو من قول الضعفاء لسادتهم. أي إنا كنا في الدنيا لكم تبعًا في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم. وقيل: المعنى أنا تبع لكم لا لرأينا. ولذا سماهم الله ضعفاء ولا يلزم منه كون الرؤساء أقوياء الرأي حيث ضلوا وأضلوا. ولو حمل الضعف على كونهم تحت أيديهم وتابعين لهم كان أحسن وليس بذلك^(٥).

وقوله: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْتَبُونَ عَنَّا ﴾ استفهام في سياق التوبيخ والتقريع، والمعنى: إنا اتبعناكم في غيكم وضلالكم فكفرتنا بالله وكذبنا الرسل، ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْتَبُونَ ﴾ أي دافعون عنا من عذاب الله من شيء. ﴿ قَالُوا ﴾ أي المستكبرون ﴿ لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ﴾ أي للإيمان وفقنا له. ﴿ لَهْدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن ضللنا فأضلناكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو: لو هداانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم ولكن سد دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص^(٦).

وجملة: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ من كلام الذين استكبروا. وهي مستأنفة تبين عن سؤال من الضعفاء يستفتون المستكبرين أيصبرون أم يجزعون تطلبًا للخلاص من العذاب، فأرادوا تيسهم من ذلك فلا نجاة من العذاب.

والجزع: حزن مشوب باضطراب... وجملة: ﴿ مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ واقعة موقع التعليل بمعنى الاستواء، أي حيث لا محيص ولا نجاة فسواء الجزع والصبر. والمحيص: مصدر ميمي كالمغيب والمشيبي، وهو النجاة^(٧).

(١) التحرير والتنوير (١٣/٢١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٩/١١٠)، والبحر المحيط (٦/٤٢٥)، والتحرير والتنوير (١٣/٢١٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٥/٤١)، وروح المعاني (١٣/٢٠٥).

(٤) انظر: الكشف (٢/٢٧٣)، والبحر المحيط (٦/٤٢٥)، وإرشاد العقل السليم (٥/٤١).

(٥) روح المعاني (١٣/٢٠٦).

(٦) إرشاد العقل السليم (٥/٤١)، وروح المعاني (١٣/٢٠٧).

(٧) التحرير والتنوير (١٣/٢١٧).

- الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة سبأ:

الخطاب في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ نَفْسٍ لَّكُلِّ مِّنْ يَّصْلِحُ لِنَفْسِهَا أَهْلٌ مِّنْ يَّعْبُدُكَ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لكل من يصلح لتلقي الخطاب ممن تبلغه هذه الآية^(١).

ومعنى ﴿ مَوْثُوقَاتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ محبسون في موقف الحساب، ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ أي يترجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب يلوم بعضهم بعضاً ويلقي بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض. ووقوفهم هذا، وقوف على غير إرادة منهم ولا اختيار، إنما هم مذنبون بالوقوف في انتظار الجزاء^(٢).

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾: أي يقول الاتباع للذين استكبروا في الدنيا واستضعفهم في النفي والضلال.

« والسين والناء في ﴿ اسْتَضَعُّوا ﴾ للعد والحسان أي الذين يعدهم الناس ضعفاء، لا يؤبه بهم، وإنما يعدهم الناس كذلك لأنهم يعلم أنهم يستضعفون أنفسهم بالأولى لأنهم أعلم بما في نفوسهم. والضعف هنا، الضعف المجازي، وهو حالة الاحتياج في المهمات إلى من يضطلع بشؤونهم ويدب عنهم ويصرفهم كيف يشاء. ومن مشمولاته الضعة والضراعة، ولذلك قوبل بـ ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي عدوا أنفسهم كبراء^(٣).

يقول المستضعفون: ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ ﴾ صدقتمونا عن الهدى ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ بما جاء به الرسول ﷺ. ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَغْرَىٰ صَدَدُكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحَرِّمِينَ ﴾ هذا رد لما قاله المستضعفون حين زعموا أن كفرهم كان لمانع.

« المانع ينبغي أن يكون راجحاً على المقتضى حتى يعمل عمله، والذي جاء به هو الهدى، والذي صدر من المستكبرين لم يكن شيئاً يوجب الامتناع من قبول ما جاء به، فلم يصح تعليلهم بالمانع ثم بين أن كفرهم كان إجراماً، من حيث أن المعذور لا يكون معذوراً إلا لعدم المقتضى أو لقيام المانع، ولم يوجد شيء منهما^(٤)، ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ هذا رد من المستضعفين لما أجاب به المستكبرون عليهم ودفع لما نسبوه إليهم من صدهم لنفسهم، « والمكر: الاحتيال بإظهار الماكر فعل ما ليس بفاعله،

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٢٠٣).

(٢) في ظلال القرآن (٥/٢٩٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/٢٠٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٥/٢٦٦).

لينفر المحتال عليه... والمعنى: ملازمتهم المكر ليلاً ونهاراً وهو كناية عن دوام الإلحاح عليهم في التمسك بالترك. والأنداد: جمع ند، وهو المماثل، والمعنى: أن نجعل لله أمثالاً في الإلهية. وهذا تطاول من المستضعفين على المستكبرين لما رأوا قلة غنائم عنهم واحتقروهم حين علموا كذبهم وبهتانهم^(١) إثر ذلك قال المولى عليه السلام: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِيَ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أضر المظالمون من الفريقين، المستكبرين والمستضعفين الندامة على ما كان منهم من الضلال والإضرار في حق المستكبرين، ومن الضلال فقط في حق المستضعفين، والندامة من المستضعفين على ضلالهم واضح، أما حصول الندامة من المستكبرين على إضرارهم فباعتبار قبوله تكلف، ولم يظهر الفريقان ما يدل على ندامتهم من المحاوراة وغيرها، إنما حصل ذلك ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لأنهم بهتوا لما عاينوه، فلم يقدرُوا على النطق واشتغلوا عن إظهارها بشغل شاغل، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِيَ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي القيود في أعناق الذين كفروا. وهم المستكبرون والمستضعفون سواء. ﴿هَلْ يُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لقد جوزوا مثل الذي كانوا يقترفونه من الشر. وحاصله لا يجزون إلا شراً^(٢).

- الآية السابعة والأربعون من سورة غافر:

«التحاجج، الاحتجاج من جانبين فأكثر، أي إقامة كل فريق حجته. وهو يقتضي وقوع خلاف بين المتحاججين، إذ الحجة تأيد لدعوى، لدفع الشك في صحتها، والضعفاء: عامة الناس الذين لا تصرف لهم في أمور الأمة. والذين استكبروا: سادة القوم، أي الذين تكبروا كبراً شديداً، فالسين والتاء للمبالغة. وقول الضعفاء للكبراء هذا الكلام يحتمل أنه على حقيقته، فهو ناشئ عما اعتادوه من اللجأ إليهم في مهمهم حين كانوا في الدنيا، فخالوا أنهم يتولون تدبير أمورهم...

وعلى وجه أن يكون قول الضعفاء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ إلى آخره، توبيخاً ولوماً لزعمائهم، يكون قول الزعماء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ اعترافاً بالغلط، أي دعوا لومنا وتوبيخنا فقد كفانا أنا معكم في النار^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٢/١٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/١٦٠، ١٦١).

٢ - النظم اللغوي للآيات:

- الآية الخامسة والسبعون من سورة الأعراف:

اختيار طريق الموصولية في وصف المستكبرين ووصف المستضعفين لما تومئ إليه الصلة من وجه صدور الكلام الذي قالوه منهم، أي أن استكبارهم هو الذي صرفهم عن طاعة صالح عليه السلام، وأن احتقار المؤمنين هو الذي لم يسغ عندهم سبقهم إياهم إلى الهدى والخير^(١).

واللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ لتعدية فعل القول. و ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الموصول، بإعادة العامل بدل الكل إن كان ضمير «منهم» لقومه، وبدل البعض إن كان للذين استضعفوا، على أن من المستضعفين من لم يؤمن، فيكونوا بذلك قسmin: مؤمنون وكافرون^(٢).

والاستفهام في قوله: ﴿أَتَقَلَّبْتُمْ﴾ للإنكار والتشكيك والاستهزاء، فهم يعلمون أنهم عالمون بذلك، ولذلك لم يجبههم على مقتضى الظاهر كما حكى عنهم بقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الجواب الموافق لسؤالهم هو نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى. وقد جيء في جواب الذين استضعفوا بالجملة الاسمية المؤكدة للدلالة على أن الإيمان متمكن منهم بمزيد الثبات، فلم يتركوا للذين استكبروا مطمعاً في تشكيكهم، بله صرفهم عن الإيمان بصالح عليه السلام^(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ استئناف أعيد فيه الموصول مع صلته، مع كفاية الضمير، إيداناً بأنهم قالوا ما قالوا بطريق العلو والاستكبار^(٤).

وصيغ جواب الذين استكبروا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ بالجملة الاسمية المؤكدة للدلالة على تصلبهم في كفرهم وثباتهم عليه، والموصول في قوله: ﴿بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ هو ما أرسل به صالح عليه السلام، وهذا كلام جامع لرد ما

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٢٨/٨).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم (٢٤٣/٣)، وروح المعاني (١٦٤/٨).

(٣) روح المعاني (١٦٤/٨)، والتحرير والتنوير (٢٢٣/٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢٤٣/٣)، وروح المعاني (١٦٤/٨).

جمعه كلام الذين استضعفوا حين قالوا: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فهو من بلاغة القرآن في حكاية كلامهم وليس من بلاغة كلامهم^(١).

- الآية الحادية والعشرون من سورة إبراهيم:

إيثار صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ للدلالة على تحقق وقوع ذلك البروز غدًا يوم القيامة فكانه قد وقع^(٢).

وقوله تعالى على لسان الضعفاء: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ تَبَعًا ﴾ مصدرًا، فيكون على نحو قولهم: قول عدل وقوم حرب، ويحتمل أن يكون جمع « تابع » على نحو غائب وغيب^(٣).

والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لتفريع الاستكبار على التبعية؛ لأنها سبب يقتضي الشفاعة لهم. وموجب تقديم المسند إليه على المسند في قوله: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ عَنَّا ﴾ أن المستهفم عنه هو كون المستكبرين يغنون عنهم، لا أصل الغناء عنهم؛ لأنهم آيسوا منه لما رأوا أثر الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم، يدل على هذا قول المستكبرين فيما بعد: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَكَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَرْجِيصٍ ﴾ فعلموا أنهم قد غروهم في الدنيا فتعين أن الاستهفام مستعمل للتوبيخ والتبكي، أي فأظهروا مكانتكم عند الله التي كنتم تدعونها وتغررنا بها في الدنيا.

فإيلاء المسند إليه حرف الاستهفام قرينة على أنه استهفام غير حقيقي^(٤).

و « من » في قوله تعالى: ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ للتبيين، فهي بدلية أي غناء بدلًا عن عذاب الله. و « من » الثانية للتبويض، واقع موقع المفعول، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله. ويجوز كونها معًا للتبويض، بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله؟ أي بعض بعض عذاب الله^(٥).

وقال الطاهر ابن عاشور - رحمه الله - : « و (من) في قوله: ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ مزيدة لوقوع

(١) التحرير والتنوير (٨/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/ ٤٢٥)، وإرشاد العقل السليم (٥/ ٤١)، وفتح القدير (٣/ ١٠٣).

(٣) جامع البيان (١٣/ ١٩٩)، والمحرق الوجيز (٣/ ٣٣٢)، والبحر المحيط (٦/ ٤٢٥)، وإرشاد العقل السليم (٤١/٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٢١٦).

(٥) الكشاف (٢/ ٣٧٣)، وإرشاد العقل السليم (٥/ ٤١)، وفتح القدير (٣/ ١٠٣).

مدخولها في سياق الاستفهام بحرف هل. و ﴿ثَيِّبُوا﴾ في معنى المصدر وحقه النصب على أنه مفعول مطلق فوقع جره بحرف الجر الزائد. والمعنى: هل تغنون عنا شيئاً^(١).
وجملة: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُكُمْ أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستأنفة، تبين عن سؤال من الضعفاء يستفتون المستكبرين أيصبرون أم يجزعون طلباً للخلاص من عذاب الله. وأراد المستكبرون تبيسهم من ذلك، يقولون: لا يفيدنا جزع ولا صبر، فلا نجاة من العذاب. وضمير المتكلم المشارك شامل للمتكلمين والمجايبين، جمعوا أنفسهم إتماماً للاعتذار عن توريطهم، وجملة: ﴿مَا لَنَا يَوْمَ مَجِيصٍ﴾ واقعة موقع التعليل لمعنى الاستواء، أي حيث لا محيص ولا نجاة، فسواء الجزع والصبر^(٢).

- الآيات: ٣١ - ٣٣ من سورة سبأ:

جملة: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ في موضع الحال من ﴿الظَّالِمُونَ﴾
أو من ضمير ﴿مَوْفُوتٌ﴾. وجيء بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ لاستحضار الحالة^(٣).

عبر المولى ﷺ في جانب الذين استضعفوا بالفعل المبني للمجهول؛ لأن الناس يعدونهم ضعفاء لا يابيه بهم، وإنما يعدهم الناس كذلك لأنهم كذلك، ولأن من مشمولات ضعفهم الضعة والضراعة، وعبر في جانب الذين استكبروا بالفعل المبني للمعلوم لأنهم عدوا أنفسهم كبراء، وهم لم يفعلوا ذلك إلا لما يقتضي استكبارهم، لأنهم لو لم يكونوا كذلك لوصفوا بالغرور والإعجاب الكاذب^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ أَدْدًا﴾ جيء بحرف العطف في حكاية هذه المقالة مع أن المستضعفين أجابوا بها قول الذين استكبروا: ﴿أَتَحْسَبُ صَدَدَنَّا كَذِبًا﴾ الآية، لنكتة دقيقة وهي التنبية على أن مقالة المستضعفين هذه هي في المعنى تكملة لمقالتهم المحكية بقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ تنبيهاً على أن مقالتهم تلفظها الذين استكبروا فابتدروها بالجواب، بحيث لو انظروا تمام كلامهم وأبلعوهم ريقهم لحصل ما فيه إبطال كلامهم، ولكنهم قاطعوا كلامهم من فرط الجزع أن يؤاخذوا بما يقوله المستضعفون^(٥).

والمكر بالليل والنهار هو كناية عن دوام إلحاح الذين استكبروا على الذين استضعفوا في التمسك بالشرك، و ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا ﴾ ظرف لما في ﴿ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ من معنى « صدنا » أي حين تأمرونا أن نكفر بالله^(١).

وضمير الجمع في قوله: ﴿ وَأَسْرُوا أَلْدَامَةَ لَنَا رَأَوْا أَلْعَذَابَ ﴾ عائد إلى جميع المذكورين من قبل، وهم الذين استضعفوا والذين استكبروا.

- الآية السابعة والأربعون من سورة غافر:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّوكَ فِي النَّارِ ﴾ معمول لذكر محذوف، أي واذكر لقومك وقت تخصمهم في النار، فالظرف منصوب بإضمار اذكر^(٢).

و « تبعاً » في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ جمع لتابع كخدم وخدام أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل أي: تابعين، أو على حذف مضاف أي: ذو تبع^(٣).

قول الذين استكبروا: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ جملة مستأنفة، جواب سؤال مقدر، والمعنى: إنا نحن وأنتم جميعاً في جهنم، فكيف نغني عنكم. و ﴿ كُلٌّ فِيهَا ﴾ مبتدأ وخبر في موضع رفع، ويجوز أن يكون « كل » خبر « إنا » والمعنى: إنا مجتمعون في النار^(٤).

مستفاد:

« لقد كان من أهداف الإسلام في القرآن الكريم تحرير إرادة الإنسان من الخضوع لتأثير القوة الظاهرة التي يمتلكها المترفون والمستكبرون كسبيل من سبل تحريره من الاستسلام لأفكار هؤلاء ونزواتهم ومخططاتهم التي لا تسير في اتجاه الخير غالباً، بل تسير باتجاه الشر دائماً، وذلك من أجل أن يبقى الإنسان مستقل الإرادة لنفسه كي يمارس مسؤوليته في المجتمع انطلاقاً من قناعاته الذاتية بما يعمل، فلا يستسلم لفكرة أنه محكوم للغير في تفكيره وحياته وأن غيره مسؤول عنه، وهو مجرد آلة مسخرة تتحرك بإرادة الآخرين وتقف بإرادتهم أيضاً^(٥) ».

(١) التحرير والتنوير (١٣/٢١٧).

(٢) فتح القدير (٤/٤٩٥)، وروح المعاني (٢٤/٧٤).

(٣) فتح القدير (٤/٤٩٥).

(٤) مجمع البيان (٢٤/٢٠٤)، وفتح القدير (٤/٤٩٥).

(٥) الحوار في القرآن (ص ٣٥٢).

الإيمان والعمل الصالح

في قوله تعالى:

﴿ قُلْ آتَىٰ بَشَرًا مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِكْرَامًا لِّمَن كَانَ مِنَ عِبَادِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ وَثِيلِهِ، فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحاف: ١٠].

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَبَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٣].

يلاحظ أن مصطلح الاستكبار له علاقة بالإيمان في النص الأول، وبالإيمان والعمل الصالح في النص الآخر. وهذا يقضي من بيان معنى الإيمان والعمل الصالح قبل عرض طبيعة هذه العلاقة عبر السياق الدلالي للآيتين ونظمهما اللغوي.

١ - مفهوم الإيمان:

(١ / ١) في اللغة:

الإيمان لغة: التصديق. قال الخليل: « الإيمان: التصديق نفسه »^(١).

وقال الكفوي: « الإيمان: الثقة .. (إفعال) من الأمن ضد الخوف. [ثلاثيته] يتعدى إلى مفعول واحد [نحو: أمنت، أي كنت أميناً] وإذا عدي بالهمزة يعدى إلى مفعولين تقول: (أمنت زيداً عمراً) بمعنى جعلته آمناً منه، (وقد يكون بمعنى صار ذا أمن) ثم استعمل في التصديق، إما مجازاً لغوياً لاستلزامه ما هو معناه، فإنك إذا صدقت أحداً أمنت من التكذيب في ذلك التصديق وإما حقيقة لغوية »^(٢).

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

قال الراغب - رحمه الله - : « والإيمان يستعمل تارة اسماً للشيعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام وعلى ذلك ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩]. ويوصف به كل من دخل في شريعته، مقراً باللّه وبنبوته، قيل وعلى هذا قال تعالى: ﴿ وَمَا

(١) العين « أمن ».

(٢) الكلمات (ص ٢١٢).

يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿ يوسف: ١٠٦ ﴾. وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالجوارح وعلى هذا قوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ءَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٩].

ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح: إيمان. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم... قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧] قيل معناه: بمصدق لنا.

إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ءُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكُفْرَةِ يَأْتُونَ بِالْحَيِّبِ وَالطَّعْمُوتِ ﴾ [النساء: ٥١] فذلك مذكور على سبيل الذم لهم وأنهم قد حصل لهم الأمن بما لا يقع به الأمن، إذ ليس من شأن القلب ما لم يكن مطبوعاً عليه أن يطمئن إلى الباطل، وإنما ذلك كقوله: ﴿ مَن سَرَّحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِّنَ اللهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦] وهذا كما يقال: إيمانه الكفر وتحيته الضرب ونحو ذلك^(١).

٢ - مفهوم العمل الصالح:

العمل: المهنة والفعل، وقيل: أخص منه، لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها بغير قصد وإلى الجمادات أيضاً، والعمل قلما ينسب إليها^(٢).

ويستعمل في الأعمال الصالحة والسيئة، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [البقرة: ٢٥] وقال: ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [المنكوت: ٤] والعمل الصالح - كما قال ابن تيمية هو: « ما أمر الله به ورسوله، وهو الطاعة، وكل طاعة عمل صالح وكل عمل صالح طاعة. وهو العمل المشروع المسنون، إذ المشروع المسنون هو الأمور به أمراً يجب أو استجاب، وهو العمل الصالح وهو الحسن وهو البر وهو الخير وضده المعصية والعمل الفاسد والسيئة والفجور والشر والظلم والبغي^(٣) ».

(١) المفردات « أمن ».

(٢) بصائر ذوي التمييز (١٢٠ / ٥).

(٣) الاستقامة (٢٢٨ / ٢).

٣ - علاقة الاستكبار بالإيمان والعمل الصالح في الآيات:

(١ / ٣) (السياق الدلالي للآيتين:

- الآية الثالثة والسبعون بعد المائة من سورة النساء:

لما ذكر المولى سبحانه أنه سيحشر المستكفين المستكبرين، المذكورين في الآية السابقة لم يذكر ما يفعله بهم بل ذكر أولاً ثواب المؤمنين المطيعين فقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَبَرِّئُكُمْ مِّنْ قُضِيِّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٣] أي: « لا يخس أحداً قليلاً ولا كثيراً. والزيادة يحتمل أن يكون في أن الحسنة بعشر إلى سبعمائة، والتضعيف الذي ليس بمحصور في قوله: ﴿ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١] قال معناه ابن عطية - رحمه الله -^(١).

ثم ذكر آخرًا عقاب المستكفين المستكبرين فقال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَسْتَنكفُؤْا وَءَسْتَكْبِرُوا فَيُعَذِّبُهُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٣]، والمعنى ظاهر لا إشكال فيه، وإنما قدم ثواب المؤمنين على عقاب المستكفين لأنهم إذا رأوا أولاً ثواب المطيعين ثم شاهدوا بعده عقاب أنفسهم كان ذلك أعظم في الحسرة^(٢).

- الآية العاشرة من سورة الأحقاف سبق أن تناولنا ذلك في دراستنا لعلاقة الاستكبار بالظلم^(٣).

(٢ / ٣) (النظم اللغوي للآيتين:

- آية « النساء » سبق أن تناولنا نظمها اللغوي عند دراستنا لعلاقة الاستكبار بالاستكفاف^(٤).

- آية الأحقاف:

قوله: ﴿ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير قد، وكذلك قوله: ﴿ وَتَبَدَّ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ يَمِينِهِ ﴾ والمعنى: أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة من عند الله والحال أنكم قد كفرتم به^(٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١١ / ١٣١).

(٤) انظر (ص ٩٠).

(١) البحر المحیط (٤ / ١٤٨).

(٣) انظر (ص ٨٢).

(٥) فتح القدير (٥ / ١٦).

قوله: ﴿ اَسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ معطوف على « شهد »، أي آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان^(١)، وجواب الشرط محذوف، والمعنى: أخبروني إن كان من عند الله تعالى وشهد على ذلك أعلم بني إسرائيل فأمن به من غير تلعثم، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة^(٢).

والفاء في قوله: ﴿ فَتَأَمَّنْ ﴾ أي بالقرآن، للسببية، فيكون إيمانه مرتبًا على شهادته له بمطابقته للوحي، ويجوز أن تكون تفصيلية فيكون إيمانه به هو الشهادة له^(٣).

وصيغ لفظا الإيمان والاستكبار بصيغة الفعل الماضي للدلالة على رسوخ الإيمان في قلب الشاهد، وتمكنه منه من جهة وعلى رسوخ الذين كفروا في الاستكبار وثباتهم عليه.



(٢) إرشاد العقل السليم (٨١ / ٨).

(١) فتح القدير (١٦ / ٥).

(٣) روح المعاني (١٢ / ٢٦).

الْبَحْثُ الثَّانِي

علاقات الاستضعاف

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

علاقات الائتلاف

أولاً: الألفاظ ذات العلاقة مع الاستضعاف بما هو فعل المستضعفين:

العلو

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدْرِكُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي، نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

١ - مفهوم العلو:

قد سبق تناوله في دراستنا لعلاقة الاستكبار بالعلو^(١).

٢ - علاقة الاستضعاف بالعلو في الآية:

(١ / ٢) السياق الدلالي للآية:

في هذه الآية الكريمة يصف الله تعالى فرعون بالعلو في الأرض، إذ جعل أهل مصر شيعاً وفاقاً ليسود فيهم ويتحكم، فاستضعف فئة منهم وأذاتهم الإذلال والتكليل، فكان عمله ذلك فساداً وكان هو من المفسدين.

وعلو فرعون هو استكباره وتجبره وتعظمه، والمراد به قوة الملك^(٢) ولكي يتحكم ويسود جعل أهل مصر فرقاً يشيعونه في كل ما يريد من الشر والفساد، أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه، يستعمل كل صنف في عمل من بناء وحرث وحفر وغير ذلك مما يشق من الأعمال والتكاليف.

وقد يكون المعنى أنه جعلهم فرقاً مختلفة، قد أعزى بينهم العداوة والبغضاء كي لا تتفق كلمتهم ولا يجمعهم جامع^(٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٤ / ٢٢٥).

(١) (ص ٥٥).

(٣) روح المعاني (٢٠ / ٤٢، ٤٣)، وانظر: جامع البيان (٢٠ / ٢٧)، والكشاف (٣ / ١٦٥)، والمحرم الوجيز =

ومن أعماله الشنيعة أنه يستضعف فئة منهم، وهم بنو إسرائيل^(١)، حيث جعلهم ضعفاء مقهورين وعدهم كذلك وأوقع بهم أشد الاضطهاد والبغي، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه^(٢).

(٢/٢) النظم اللغوي للآية:

ورد فعل العلو بصيغة الماضي دلالة على أن علو فرعون صفة ثابتة فيه وراسخة في نفسه. وصيغت ألفاظ الاستضعاف والذبح والاستحياء كلها بصيغة الفعل المضارع دلالة على أنها أعمال متجددة من فرعون ومستمرة الصدور منه.

وجملة: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ واقعة حالاً من ضمير «جعل» أو صفة لـ «شيعاً». وأبدلت منها بدل اشتمال جملة: ﴿يَذْبَحُ آبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ لأنه ما فعل ذلك بهم إلا لأنه عداهم ضعفاء، أي أذلة، فكان يسومهم الخسف ويمنعهم النصف ويسخرهم لخدمته بالقوة^(٣).

الإفساد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

١ - مفهوم الإفساد:

(١ / ١) في اللغة:

الفساد نقيض الصلاح^(١)، يقال: فسد يفسد ويفسد وفسد فساداً وفسوداً، فهو فاسد وفسيد^(٢).

ومعنى فسد: تغير. يقال: «فسد الشيء وفسد» و«حمض اللبن وحمض»، و«خثر اللبن وخثر»، و«خزن اللحم والسمن وخزن» إذا تغير^(٣). أي خرج من طبيعته الأصلية؛ ولهذا

= (٢٧٤ / ٤)، ومفاتيح الغيب (٢٢٥ / ٢٤) .

(١) المحرر الوجيز (٢٧٦ / ٤)، ومفاتيح الغيب (٢٢٥ / ٢٤)، والجامع لأحكام القرآن (٢٤٨ / ١٣)، وتفسير القرآن العظيم (٣٦٧ / ٣)، وروح المعاني (٤٣ / ٢٠)، والتحرير والتنوير (٦٨ / ٢٠) .

(٢) في ظلال القرآن (٢٦٧٧ / ٥) . (٣) التحرير والتنوير (٦٨، ٦٧ / ٢٠) .

(٤) جمهرة اللغة «فسد» . (٥) اللسان «فسد» .

(٦) الجمهرة «فسد» .

يقال: فسد الشيء: إذا خرج عن اعتداله، قليلاً كان ذلك الخروج أو كثيراً^(١).

فسد الشيء أفسده يفسده إفساداً وفساداً^(٢). ومعناه: أباه وأهلكه^(٣).

والإفساد كما قال الكفوي هو: « جعل الشيء فاسداً، خارجاً عما ينبغي أن يكون عليه وعن كونه منتفعاً به. وفي الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح^(٤)».

(٢ / ١) في القرآن الكريم:

ورد مصطلح الفساد والإفساد في القرآن الكريم خمسين مرة (٥٠) في سبع وأربعين آية (٤٧)، ثمانٍ وعشرون منها مكية (٢٨)، وتسع عشرة مدنية (١٩)، وورد المصطلح بالصيغة الاسمية اثنين وثلاثين مرة (٣٢)، في حين ورد بالصيغة الفعلية ثمانين عشرة مرة (١٨) . وهذا الفارق يبين أن القرآن الكريم يعني جنس الفساد، وهو ما توحى به صيغة المصدر التي وردت إحدى عشرة مرة (١١)، وكذلك صيغة اسم الفاعل الدالة على الرسوخ فيه والثبات عليه التي وردت إحدى وعشرين مرة (٢١) .

ويلاحظ كذلك أن ورود الفساد بصيغة الفعل المضارع كان أكثر من وروده بصيغة الفعل الماضي في أربع عشرة مرة (١٤)، مقابل أربع مرات (٤)، وهذا يدل على تجدد صدور الفساد من البشر واستمراريته.

ومعنى الفساد في القرآن الكريم هو خروج الشيء عن الاعتدال الذي خلقه الله تعالى له. ويستعمل في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

والإفساد هو فعل البشر، الناتج عنه إخراج الشيء عن حالته الأصلية الصالحة التي خلقه الله عليها إلى حالة فاسدة. قال تعالى: ﴿ يُفْسِدُ فِيهَا وَنُهَيْتَ أَنْ تُنْقَلُ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. وقال: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل: ٣٤].

٢ - علاقة الاستضعاف بالإفساد في الآية:

(١ / ٢) السياق الدلالي للآية:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهٗ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بيان أن ما كان يفعله فرعون مما ذكره الله من

(٢) التهذيب «فسد»، والقاموس المحيط «فسد».

(٤) الكلمات (ص ١٥٤).

(١) المفردات «فسد».

(٣) التهذيب «فسد».

قبل في الآية هو فساد وإفساد في الأرض. فكل تلك الأعمال الشنيعة التي صدرت فيه هي ذات صلة وثيقة بعلوه وتجبره. وإفساده إنما هو ناتج عن ذلك.

كما أن تلك الأعمال باعتبارها قبيحة ولا تستقيم مع منطق الصلاح والإصلاح في الأرض اعتبرت فسادًا وإفسادًا.

(٢/٢) النظم اللغوي للآية:

جملة ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ تعليل لجملة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. والخبر بهذه الصيغة أدل على تمكن الوصف، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] فهذه الصيغة أقوى مما لو قيل: أن أكون جاهلاً، فكذلك ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ دالة على شدة تمكن الإفساد من خلقه. ولفعل الكون إفادة تمكن خبر من اسمه، فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون^(١). وهذه هي دلالة الجمع بين «كان» وصيغة اسم الفاعل التي ورد بها مصطلح الإفساد.

مستفادة:

- من بين أهم العوامل في نهوض الأمم وانحطاطها ثنائية العدل والظلم: «في هذه الآية الكريمة ورد أولاً ذكر استعلاء فرعون وادعائه للألوهية واستعباده للآخرين وإلقاء التفرقة بين الناس، بإنحاء التمييز فيما بين طوائفهم، وإلقاء العداوة بينهم واحتقار طائفة خاصة من المواطنين وقتل أبنائهم وإبقاء نسائهم بغية استخدامهن. ثم أعلنت الآية أن فرعون من المفسدين.

ومن الواضح أن ذلك إشارة إلى أن هذه المظالم الاجتماعية تهدم أساس المجتمع وتفسده»^(٢).

ثانياً: الألفاظ ذات العلاقة مع الاستضعاف بما هو فعل واقع على المستضعفين:

التبع

اقرن مصطلح الاستضعاف بلفظ «التبع» مرتين في القرآن الكريم:

- ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْتَابُونَ

(١) التحرير والتنوير (٦٨/٢٠).

(٢) المجتمع والتاريخ (ص ٢٠٣).

المطلب الثاني

علاقات الاختلاف

الاستكبار^(١)

الظلم

في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفَيْتُمْ أَنْفُسَهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَبِعَمَّةٍ فَتَاهِرُونَ فَبِأَيِّ قَوْمٍ قَاتَلْتِكُمْ وَأَنْتُمْ جَاهِلُونَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

﴿ وَلَوْ نَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُوا فَوُتُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبا: ٣١].

١ - مفهوم الظلم:

سبق أن تناولناه عند دراستنا لعلاقة الاستكبار بالظلم^(٢).

٢ - علاقة الاستضعاف بالظلم في الآيتين:

(١ / ٢) (السياق الدلالي للآيتين:

- آية النساء :

مناسبة هذه الآية لما قبلها هي أن الله تعالى لما ذكر ثواب من أقدم على الجهاد أتبعه بعقاب من قعد عن الهجرة وسكن في بلاد الكفر^(٣).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ أي: « إن الذين تقبض أرواحهم الملائكة ﴿ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعني مكسبي أنفسهم غضب الله وسخطه. ﴿ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ ويقول: قالت الملائكة لهم: في أي شيء كنتم من دينكم، ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾، يعني قال الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم: كنا مستضعفين في الأرض يستضعفنا أهل

(١) تمت دراسة هذه العلاقة في العنصر الخاص بعلاقة الاستكبار بالاستضعاف (ص ١١٧).

(٢) انظر (ص ٨١، ٨٢).

(٣) البحر المحيط (٤ / ٤٠).

الشرك بالله في أرضنا وبلادنا، بكثرة عددهم وقوتهم فيمنعوننا من الإيمان بالله واتباع رسول الله ﷺ، وهي معذرة وحجة واهية: ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضًا مَّوَدَّعَةً فَتَنَاهَا فِيهَا ﴾ يقول: فخرجوا من أرضكم ودوركم وتفرقوا من يمنكم بها من الإيمان واتباع رسول الله ﷺ إلى الأرض التي يمنكم أهلها من سلطان أهل الشرك بالله فتوحدوا الله فيها وتعبدوه وتتبعوا نبيه. ﴿ فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ يعني: وساءت جهنم لأهلها، الذين صاروا إليها مصيرًا ومسكنًا وماوى^(١).

- آية سبأ:

سبق أن تناولنا ذلك في دراستنا حول علاقة الاستكبار بالاستضعاف^(٢).

(١ / ٢) النظم اللغوي للآيتين:

- آية النساء:

الموصول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أُنْفُسِهِمْ ﴾ في قوة المعرف بلام الجنس، وليس المراد شخصًا أو طائفة بل جنس من مات ظالمًا نفسه، ولما في الصلة من الإشعار بعلّة الحكم وهو قوله: ﴿ فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ ﴾ لأنهم ظلموا أنفسهم^(٣). وقد عدل سبحانه عن قوله « يموتون » أو « يتوفون » إلى قوله: ﴿ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ ليكون وسيلة لبيان شناعة فتنهم عند الموت^(٤).

وقوله: ﴿ ظَالِمِينَ أُنْفُسِهِمْ ﴾ حال من ضمير ﴿ تَوَفَّيْتُمُ ﴾، كأنه قيل: ظالمين أنفسهم، وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفرة، الموجبة للإخلال بأمر الدين^(٥).

وجملة: ﴿ قَالُوا فِيهِمْ كُنتُمْ ﴾ خبر (إن). وهذا الاستفهام معناه التوبيخ والتقريع. والذي يظهر أن قولهم: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ جواب لقوله: ﴿ فِيهِمْ كُنتُمْ ﴾ على المعنى لا على اللفظ لأن المعنى فيهم كنتم، في أي حال مانعة من الهجرة كنتم. قالوا: كنا مستضعفين، أي في حالة استضعاف في الأرض، بحيث لا نقدر على الهجرة. وهو جواب كذب^(٦).

(١) جامع البيان (٢٣٣ / ٥).

(٢) انظر (ص ١١٧).

(٣) (٤، ٣) التحرير والتنوير (١٧٣ / ٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٢٢٢ / ٢).

(٥) البحر المحيط (٤١، ٤٠ / ٤).

جاء باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ مَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ للتبنيهِ على أنهم أحرىء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة، من أجل الصفة المذكورة قبله، لأنهم كانوا قادرين على التخلص من فتنة الشرك بالخروج من أرضه^(١).

- آية سبأ:

سبق تناول ذلك عند تناولنا لعلاقة الاستكبار بالاستضعاف^(٢).

مستفادات:

- في آية النساء يصف القرآن المستضعفين بالظلم. إنهم أولئك الذين يهادنون الظلم ويسكتون عنه، فيعيشون حالة التوتر والقلق في أنفسهم. ولهذا عبر عنهم بأنهم ظالمو أنفسهم.

- وفي آية سبأ يتحدث القرآن عن قسمين من الظالمين: إلى من استضعف منهم ومن استكبر منهم. فالظالمون إذن فيهم مستكبرون وهم الذين يمثلون الفرعونية في المجتمع، وفيهم المستضعفون. وهؤلاء المستضعفون يحشرون يوم القيامة في زمرة الظالمين، وهم الذين يشكلون الحماية والسند للفرعونية. فكلا الفريقين ظالم، « هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان وإدراك الإنسان وحرية الإنسان وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان، وكلهم في العذاب سواء، لا يجزون إلا ما كانوا يعملون »^(٣).



(١) التحرير والتنوير (١٧٦/٥).

(٢) انظر (ص ١١٧).

(٣) في ظلال القرآن (٢٩٠٩/٥).

الفصل الثالث

ضمائم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: ضمائم الاستكبار.

المبحث الثاني: ضمائم الاستضعاف.

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ

ضمانم الاستكبار

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

ما ضم إلى المصطلح

الاستكبار في الأرض

١ - موارد الضميمة:

اقترن مصطلح الاستكبار بالمركب اللغوي (في الأرض) في القرآن الكريم في ستة مواضع هي:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِنْسَانِ الْأَعْمَىٰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ قُلْنَ نَحْنُ لَسُنَّتِ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

٢ - قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ بِنَاءِهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنْ عَلَى الظِّلِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلَّيْ أَلْبَسُ إِلَىٰ إِلَهٍ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَلْبَسُهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُثُوهُ فِي الْأَرْضِ بِكِبَرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُثُوهُ فَسَبَّوهُمْ فِي الْآيَةِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ [الفصل: ٣٨ - ٤٠].

٣ - قوله سبحانه: ﴿ وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَارُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا مَسْجُوعِينَ ﴿٤٠﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ [التكوير: ٣٩، ٤٠].

٤ - قوله عز من قائل: ﴿ فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿٤٢﴾ إِذْ

جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً
أَوَّلَتْ بِرِوَا أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْجَزَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ لَهُمْ وَلَا
يُصْزَرُونَ ﴿١٨﴾ [نص: ١٦-١٣].

٥ - قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَعْرِضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْعَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا
وَأَسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُفَرْتُمْ كُفْرُكُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾
[الأحقاف: ٢٠].

٦ - قوله سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَقْبِ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ
الْآخِرَةِ حَسِطَتْ أَعْيُنُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦، ١٤٧].

يلاحظ أن النصوص كلها آيات مكية تتناول أهم جوانب العقيدة الإسلامية: الوحدانية
والرسالة والبعث والجزاء. عرضت صوراً لمصارع المكذبين وضربت على ذلك أمثلة
باعتى الأمم وأقواها: فرعون وعاد وقريش وغيرهم من المستكبرين، وذكرت بما حل
بهم من هلاك في الدنيا ووعيد بالعذاب الأليم في الآخرة.

كما يلاحظ أن لفظ (الأرض) اقترن بمصطلح الاستكبار في صيغة الفعل الماضي
ثلاث مرات^(١)، وفي صيغة الفعل المضارع مرة واحدة^(٢)، وفي صيغة الفعل المضارع
المسبوق بفعل ماض ناقص مرة واحدة^(٣)، واقترن به أيضاً في صيغة المصدر المذكر مرة
واحدة^(٤)، ووردت لفظة (الأرض) في كل الموارد مفردة معرفة.

٢ - بيان دلالة الضميمة:

(١ / ٢) (دلالة لفظ « الأرض » في اللغة:

قال ابن فارس: الهمزة والراء والضاد ثلاثة أصول: أصل يتفرع وتكثر مسائله وأصلان

(١) القصص: ٣٩، المنكوت: ٣٩، نصت: ١٥. (٢) الأعراف: ١٤٦.

(٤) فاطر: ٤٤.

(٣) الأحقاف: ٢٠.

لا يتفاسان، بل كل واحد موضوع حيث وضعته العرب.

فأما هذان الأصلان فالأرض: الزكمة، رجل مأروض أي مزكوم، وهو أحدهما وفيه يقول الهذلي:

جهلت سموطك حتى نخا ل أن قد أرضت ولم تؤرض
والآخر: الرعد، يقال: بفلان أرض أي رعدة، قال ذو الرمة:

إذا تودس ركزاً من سنا بكها أو كان صاحب أرض أوبه موم
وأما الأصل الأول: فكل شيء يسفل ويقابل السماء، يقال لأعلى الفرس سماء ولقوائمه أرض، قال:

وأحمر كالديباج أما سماؤه فرياً وأما أرضه فمحول

سماؤه أعاليه وأرضه: قوائمه، والأرض التي نحن عليها وتجمع أرضين فهذا هو الأصل، ثم يتفرع منه قولهم: أرض أريضة، وذلك إذا كانت لينة طيبة، قال امرؤ القيس:

بلاد عريضة وأرض أريضة مدافع غيث في فضاء عريض

ومنه رجل أريض للخير أي خليل له، شبه بالأرض الأريضة، ومنه تأرض النبات إذا أمكن أن يجز، وجدي أريض إذا أمكنه أن يتأرض النبات، والإراض بساط ضخ من وبر أوصوف، ويقال: فلان ابن أرضي، أي غريب^(١).

والأرض مؤنثة اسم جنس، لم يقولوا بواحدتها^(٢).

(٢/٢) دلالة لفظ « الأرض » في الآيات:

وردت لفظة الأرض في جميع النصوص موضوع الدرس مفردة معرفة مما يعني أن المراد بها جنسها ويجوز أن يراد بها أرضاً معهودة، كأرض مصر مثلاً التي استكبر فيها فرعون، واستعلى فيها على أهلها، كما أن اقتران « الأرض » في جميع الموارد بحرف الجر « في » يدل على أن الاستكبار في هذه الأرض واقع في جزء أو أجزاء متفرقة منها لا فيها كلها، يقول الألويسي: « الحمل على جميع الأرض ليس بشيء إذ تعريف المفرد يفيد استيعاب الأفراد لا الأجزاء »^(٣).

(١) المقاييس « أرض ».

(٢) اللسان « أرض »، والقاموس المحيط « أرض »، والكليات (ص ٧٧).

(٣) روح المعاني (١/١٥٣).

وباستقراء جميع الموارد التي وردت بها الضميمة تبين أن اللفظة جاءت بمعنى جميع الأرض في بعض النصوص، وفي بعضها الآخر وردت بمعنى أرض مخصوصة، وفي نصوص أخرى تحتل هذا وذاك وفيما يلي بيان ذلك:

١ - كل الأرض:

وردت لفظة: « الأرض » بمعنى جميع الأرض في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَرْضَى الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبَعَهُمْ فِي حَيَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَأَسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزِرُونَ عُذَابَ الْهُونِ بِمَا كُفَرْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنتُمْ تَقْسُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿ سَاءَ صِرْفُ عَنِ الَّذِينَ يَنْكَرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا، آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْفِتْنِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ففي النص الأول يبين الله ﷻ مصير الكفار وما سيحل بهم يوم الحساب بسبب ما كان منهم من تكبر على الله ﷻ في الدنيا على ظهر الأرض، حيث أبوا إخلاص العبادة لله وحده ورفضوا الإذعان لأوامره ونواهيهِ^(١).

وفي النص الثاني يخبرنا المولى ﷻ أنه سيمنع الكذابين المتكبرين عن آياته ومعجزاته، وذلك بالطبع على قلوبهم وخذلانهم، فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها، وهذا بسبب ما يرون لأنفسهم من فضل على الناس ليس لغيرهم مثله، يجعلهم دائماً في موقف الرفض لدعوة الأنبياء والدعاة^(٢).

وزيادة قوله: ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ لفضح تكبرهم والتشهير بهم بأن كبرهم مظروف في الأرض، أي ليس هو خفياً مقتصراً على أنفسهم بل هو مبثوث في الأرض، أي مبثوث أثره فهو تكبر شائع في بقاع الأرض كقوله: ﴿ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٣]^(٣).

٢ - أرض مخصوصة:

ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيَتَّخِذَ اللَّهُ بَدَلَهُمْ بَدَلًا يُرِيدُونَ مِنْ آخِرَتِهِمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمُ بِالَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١٧]

(١) انظر: جامع البيان (٢٦/٢٢).

(٢) انظر: جمع البيان (٩/٢١)، والكشاف (٢/١١٧).

(٣) التحرير والتنوير (٩/١٠٤، ١٠٥).

الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٣﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴿٤٤﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣] جاءت الأرض بمعنى موطن القوم وهم هنا قريش، فتبين أن الأرض المقصودة هي شبه الجزيرة العربية فالتعريف في «الأرض» للعهد. والمعنى أنهم استكبروا في قومهم أن يتبعوا واحداً منهم^(١). «أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه: أن قريشاً كانت تقول: لو أن الله بعث منا نبياً، ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها، ولا أسمع لنبئها، ولا أشد تمسكاً بكتابها منا، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الصفات: ١٦٧، ١٦٨]، ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكَفَرْنَا بِهِ نَسِيئًا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْإِنْدَى الْأُمَمِ ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٢]»^(٢).

٣ - معنى مشترك:

وردت الأرض بهذا المعنى في النصوص الثلاثة المتبقية^(٣).

ففي الآية ٣٩ من سورة القصص وهي قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَكُفَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ * يجوز أن يراد بها المعهودة أي أرض مصر، وأن يراد بها الجنس، أي في عالم الأرض لأنهم [الفراعنة] كانوا يومئذ أعظم أمم الأرض^(٤).

وفي الآية ٤٠ من سورة العنكبوت يبين الله ﷻ أن قارون وفرعون وهامان كفروا عن عباد وكبرياء لا عن جهل وغلو، وأن استكبار كل منهم كان في جميع البلاد التي هو منها، فيومئذ ذلك أن كل واحد من هؤلاء كان سيذاً مطاعاً في الأرض، فالتعريف في «الأرض» للعهد فيصح أن يكون المعهود هو أرض كل منهم، وأن يكون المعهود الكرة الأرضية مبالغة في انتشار استكبار كل منهم في البلاد حتى كأنه يعم الدنيا كلها^(٥).

الأمر نفسه يسري على استكبار عاد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

(١) التحرير والتنوير (٣٣٤/٢٢). (٢) الدر المنثور (٣٥/٧).

(٣) هي: القصص: ٣٩، العنكبوت: ٤٠، فصلت: ١٥.

(٤) التحرير والتنوير (١٢٤/٢٠). (٥) التحرير والتنوير (٢٥٠/٢٠).

(٢/٢) دلالة ضميمة « الاستكبار في الأرض »:

إن اقتران مصطلح الاستكبار في القرآن الكريم بلفظ « الأرض » له دلالات مهمة، تزيد من السعة الدلالية لهذا المفهوم من جهة وتعطيه صورة واضحة وشمولية تتجاوز حدود الشروح اللغوية أو تلك التي تعطى للمصطلح حين دراسته منفرداً.

وفيما يلي، عرض لتلك الدلالات المحصلة من هذا الاقتران في القرآن الكريم:

(١/٣/٢) انحصار فعل الاستكبار في أهل الأرض:

باستقراءنا جميع النصوص التي وردت بها ضميمة « الاستكبار في الأرض » تبين أن ميدان هذا المفهوم بما هو حالة نفسية من جهة، وسلوك عملي من جهة أخرى، هو الكرة الأرضية حيث السيادة فيها للبشر فرادى وجماعات. وبما أن الإنسان مخلوق يعتريه الضعف، وبسبب ما يسكنه بحكم طبيعة التكوين من نزوع نحو التفرد والسيطرة، سيما إذا أعرض ونأى بجانبه عن دعوة الأنبياء، وصوت الفطرة يكون أقرب ما يكون من صورة ذلك المغتر بقوته، المستعلي على غيره والرافض لدعوة التوحيد.

يؤكد هذا الرأي نفيه تعالى هذا الخلق الخبيث عن الملائكة وهم أهل السماء، بحكم أصل تكوينهم وخلقهم والمهمة التي وكلوا بها من لدن العليم الخبير. يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسْبُحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الاعراف: ٢٠٦].

ويقول ﷻ أيضاً: ﴿ وَلَهُ، مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

يبقى السؤال هنا: هل يحق بمنطق الشرع والعقل لمن في الأرض أن يستكبر؟ بجيبنا الإمام الرازي وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَنَسٌ ﴾ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُؤَمِّنُونَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قَاتِلْهُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِرِينَ ﴾ [النبأ: ٣٩].

وقوله: « في الأرض » إشارة إلى ما يوضح فلة عقلمهم في استكبارهم؛ وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين ومن في السماء أقواهم، ثم إن من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته، فكيف [يستكبر] من في الأرض، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوا سَافِرِينَ ﴾ أي ما كانوا يفوتون الله لأننا بينا في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

في الأرض ﴿ [العنكبوت: ٢٢] أن المراد أن أقطار الأرض في قبضة قدرة الله^(١).

(٢ / ٣ / ٢) عموم معنى الاستكبار في الأرض:

باعتباره خلقاً قبيحاً وسلوكاً شنيعاً فإن آثار الاستكبار وأضراره تتعدى حدود المحيط الذي يعيش فيه المستكبرون، ولهذا عدل عن تسمية مكان الاستكبار وتحديده - وإن دل عليه سياق الآية - إلى التعبير عنه بلفظ « الأرض ». يقول تعالى: ﴿ وَقَنُوتُكُ وَفِرْعَوْنُكُ وَهَمَّزُكُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فالألف واللام في « الأرض » للعهد، أي بلد كل واحد منهم، حيث مقامهم وسيادتهم على قومهم. وإنما استعيض عنها بلفظ « الأرض » لبيان استكبار هذا الثالث، وأن ضرره لا يقتصر على حدود بلدانهم بل عم وانتشر، يكفي أن نشير مثلاً إلى أن الفرعونية تجاوزت حدود ذلك المفسد الذي عاش وحكم في عصر سيدنا موسى لتصبح صفة كل متكبر طاغية عبر التاريخ.

إن الاستكبار في جزء من الأرض هو استكبار في مجموع الأرض.

(٣ / ٣ / ٢) حقيقة الاستكبار في الأرض:

للاستكبار في الأرض مستويان اثنان:

١ - المستوى الأول: الاستعلاء على الناس - أهل الأرض - واحتقارهم: قال تعالى: ﴿ سَاءَ صِرْفٌ مِّنْ عَابِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الاعراف: ١٤٦] أي يرون لأنفسهم فضلاً على الناس وحققاً ليس لغيرهم مثله^(٢)، وشر التكبر ادعاء حق الربوبية في الأرض على عباد الله، ومزاولة هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله، وتعييدهم لهذا التشريع الباطل. ومن هذا التكبر تنشأ سائر ألوان التكبر، فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث^(٣).

٢ - المستوى الثاني: رفض دعوة الأنبياء وصد الناس عنها: يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا عُقُورًا ﴿١١﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣] أي ما زادهم

(٢) جمع اليان (٢١/٩).

(١) مفاتيح الغيب (٦٨/٢٥).

(٣) في ظلال القرآن (١٣٧١/٣).

مجيء النذير من الإيمان بالله واتباع الحق وسلوك هدي الطريق إلا نفورًا وهربًا.

وقوله: ﴿ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يقول: « نفروا استكبارًا في الأرض وخدعة سيئة وذلك أنهم صدوا الضعفاء عن اتباعه مع كفرهم به »^(١).

وهذا ما عبر الله تعالى عنه بوضوح في سورة الأعراف بقوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا مَائِمَةً لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَؤا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَؤا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إن ما يراه المستكبر من فضل على غيره وحق ليس لغيره هو الحامل له على ترك اتباع دعوة الأنبياء أنفة من الانقياد لهم والقبول منهم باعتبارهم - حسب زعمه الفاسد - بشرًا من البشر ورعاع من الرعاع (وحاشاهم ذلك) فالمستكبرون إن أدركوا طريق الهدى والساد لا يسلكونه لغلبة الهوى على قلوبهم، واستيلاء الشيطنة عليهم، وإن أدركوا الفساد يختارونه لأنفسهم مسلكنًا لا يعدلون عنه لموافقته أهواءهم. فالعمل بالصالح حمل للنفس على كلفة، وذلك تأباه النفس التي نشأت على متابعة مرغوبها وذلك شأن الناس الذين لم يروضوا أنفسهم على الهدي الإلهي ولا على الحكمة ونصائح العقلاء، بخلاف الغي فإن ما ظهر في العالم ليس إلا من آثار شهوات النفوس ودعواتها التي يزين لها الظاهر العاجل وتجهل عواقب السوء الأجلية^(٢).

لا يكتفي المستكبرون بهذا بل يحملون الناس على اتباع معتقدهم ورفض كل دعوة حق أتى بها الأنبياء، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ [الفصص: ٣٨] إنها « كلمة فاجرة كافرة يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم، ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة، ثم على القهر، الذي لا يدع لرأس أن يفكر ولا للسان أن يعبر، وهم يرونه بشرًا مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب »^(٣).

(٢/٣/٤) الاستكبار في الأرض إفساد فيها:

يتجلى هذا الإفساد أساسًا في عنصرين اثنين:

١ - تمزيق وحدة الأمة: المستكبرون على مر التاريخ الذين يبنون العلاقات بين الناس

(٢) التحرير والتوير (١٠٦/٩).

(١) جامع البيان (١٤٥/٢٢).

(٣) في ظلال القرآن (٥/٢٦٩٤).

على أساس الظلم والاستغلال يقومون بتجزئة المجتمع، وبعثرة إمكانياته وطاقاته. لقد قص علينا القرآن الكريم، كيف قام فرعون - وهو نموذج لاستكبار الحكام واستبدادهم - بتزيق أهل مصر إلى شيع وأحزاب، يعادي بعضها البعض الآخر ليسهل عليه التحكم في شؤونهم جميعاً، وليحول دون وقوف الأمة مجتمعة ضد ظلمه وطمغانه. قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَدَّيْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي. بِنِسَاءِهِمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النقص: ٤].

٢ - إلحاق الإنساد في مختلف ميادين الحياة: في السياسة والإدارة والاقتصاد والأخلاق والدين.

الاستكبار بغير الحق

١ - موارد الضميمة:

ضم المركب اللفظي « بغير الحق » إلى مصطلح الاستكبار في القرآن الكريم أربع مرات في أربعة نصوص هي:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَأَسْتَكْبَرُوا وَوَجُّوهُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ الْبِنْسَاءِ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [النقص: ٣٩، ٤٠].

٢ - قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴾ [فصل: ١٥].

٣ - قوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَمْ تَكُنْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

٤ - قوله عز من قائل: ﴿ سَاءَ صِرْفٌ عَنِ الْبَيْنِ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا ءَايَةً لَا يُؤْمِسُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الاعراف: ١٤٦].

تحتل ضميمة « الاستكبار بغير الحق » الرتبة الثانية من حيث حجم الورد بعد ضميمة

« الاستكبار في الأرض ». أما صيغ الاستكبار في كل نصوص الضميمة فجاءت فعلية: صيغتان ورد الفعل فيهما ماضيًا وصيغتان جاء الفعل فيهما مضارعًا.

أما من حيث موضع ورود فيلاحظ أن كل الآيات مكية عرضت لمفهوم الاستكبار كموضوع عقدي في سياق الحديث عن مصارع المكذبين المستكبرين الذين كفروا بالرسالات وكذبوا بالبعث والجزاء.

٢ - دلالة الضميمة:

(١ / ٢) دلالة لفظ « الحق » في اللغة:

« الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته.

فالحق نقيض الباطل، ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج وحسن التلفيق ويقال حق الشيء: وجب^(١).

وأصله كما قال الراغب: المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة^(٢)، أو هو ما غلبت حججه وأظهر الثمويه في غيره^(٣)، وزاد المناوي الأمر إيضاحًا حين قال: « الحق - لغة - الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وعرفاً: الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتغالها على ذلك، ويقابله الكذب.

وفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع، وفي الصدق من جانب الحكم. فمعنى صدق الحكم: مطابقتها للواقع، ومعنى حقيقته: مطابقة الواقع إياه، كذا في شرح العقائد^(٤).

والحق يقال على أوجه:

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٦٢].

الثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال فعل الله تعالى كله حق، وقال تعالى: ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [يونس: ٥].

(٢) المفردات « حق ».

(١) المقاييس « حق ».

(٤) التوقيف على مهيات التعاريف (ص ٢٨٧).

(٣) التكميلات (ص ٣٩١).

والثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق، قال الله تعالى: ﴿ فَهَدَىٰ اللَّهُ الْبَلَدَ الْأَمِينِ ۗ ءَأَمْثَلِمَا اٰخْتَلَفُوْا فِيْهِ مِنَ الْحَقِّ ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ويقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب كقولنا: فعلك حق وقولك حق، قال الله تعالى: ﴿ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمٰتُ رَبِّكَ ۗ ﴾ [يونس: ٣٣]^(١).

(٢ / ٢) دلالة لفظ « الحق » في الآيات:

وجبت الإشارة ابتداءً أن لفظ « الحق » ورد في جميع النصوص موضوع الدرس منفياً بحرف « غير » وهذا يدل على أن المقصود به ضده. كما أنه ورد في كل الآيات مفرداً معرباً بـ « أل ».

يمكن حصر دلالة « الحق » في الآيات في معنى جامع هو: « الاستحقاق »، فالذين استكبروا لم يكن لهم أدنى سند على حجية آرائهم وصواب مواقفهم اتجاه رسالة الأنبياء ودعوتهم. إنما استكبروا ورفضوا تعدياً وعتواً على ربهم. لقد كان استكبارهم بالباطل والعدوان ليس إلا.

فها هو ذا فرعون يرفض رسالة موسى ودعوته له بالترحيد والإقرار بالعبودية لله دون أن يمتلك ولو حجة واحدة تدفع ما جاء به كليم الله ﷺ. بل صدر منه ذلك لما حسب في نفسه أن لا يبعث بعد الممات ولا ثواب ولا عقاب. قال تعالى: ﴿ وَاسْتَكْبَرُ هُوَ وَخُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكِبَرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٩].

وعاد اعتزوا بقوتهم وما هم فيه من عظم الخلق وشدة البطش فنسوا أو تناسوا أن قوتهم تلك مصدرها القوي القدير. فحملهم ظنهم ذلك على التجبر والتعظم والطنغيان بما لا يستحقون به ذلك، إنما صدر منهم ما صدر كفرًا وظلمًا وعتواً: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥].

وكذلك شأن كل الكفار الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون. استعلوا على

(١) المفردات « حق »، وانظر أيضاً: التوقيف على معاني التعريف (ص ٢٨٧، ٢٨٨).

الخلق ورفضوا دعوة الأنبياء دون وجه حق إنما بالباطل، لما لم توافق الرسالات هوى أنفسهم، فاختاروا سبيل الغي بدلاً عن سبيل الرشاد وأترفوا في شهواتهم وانهمكوا فيما يشغلهم عن تدبر آيات الله وقبولها والعمل بمقتضاها. وهذا ما تؤكد الآيات العشر من سورة الأحقاف والآية السادسة والأربعون بعد المائة من سورة الأعراف.

(٢/٢) دلالة ضميمية: « الاستكبار بغير الحق »:

مما لا شك فيه أن اقتران مصطلح « الاستكبار » بالمركب اللفظي « غير الحق » يعطي للمفهوم المدروس دلالة خاصة تزيد من سعته المفهومية.

وفيما يلي عرض للدلالات هذه الضميمة في القرآن الكريم:

(١/٣/٢) كل استكبار في الأرض فهو بغير الحق:

وهذا يعني بتعبير آخر أن استكبار البشر لا يكون إلا بغير الحق. فكل الآيات موضوع الدرس أسند فعل الاستكبار فيها لبشر.

في آية « القصص » أسند الاستكبار لفرعون وجنوده، وفي آية « فصلت » أسند لقوم عاد، وفي آية « الأحقاف » وآية « الأعراف » أسند للذين كفروا عموماً.

فكل ما اغتر به هؤلاء من: حكم وسلطان وقوة في الأجسام والعدد لا يسوغ لهم بأي حال استكبارهم واستعلاءهم على الخلق، لوجود قوة فوق قوتهم وسلطان يحكم سلطانهم هو سلطان الله تعالى وقوته.

« قوله: « بغير الحق » زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق؛ إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه؛ لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك لا تبلغ الإنسان مبلغ الخلو عن النقص. وليس للضعيف الناقص حق في التكبر ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالى^(١١). فالحق أن يخضع العباد لله وألا يستكبروا في الأرض، ومن هم بالقياس إلى عظمة خلق الله؟ « فحيثما تكبر إنسان في الأرض كان ذلك تكبراً بغير الحق »^(١٢). كما أن امتلاك كل أسباب المنفعة التي ذكرت لا ينبغي أن تدفع بمالكها إلى الاستكبار والتعجب، إلا إذا كان قلبه وعقله تبعه، لا يتلقى عن الوحي وإنما يتلمذ على الهوى ويخضع لسيطرته. وهذا حال فرعون وعاد وجميع الكافرين.

(١) التحرير والتنوير (٢٤/٢٥٦).

(٢) في ظلال القرآن (٣/١٣٧١).

(٢ / ٣ / ٢) أسباب الاستكبار بغير الحق:

هي ثلاثة أسباب أمكن حصرها بعد تتبع معاني الآيات المدروسة في:

- ١ - الاعتزاز بالقوة: شاهدنا ذلك في قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ إنكارى أي لا أشد منا قوة، وهو بيان لاستحقاقهم العظمة وجواب لهود ﷺ عما خوفهم به من العذاب^(١)، وكانوا أصحاب خلق عظيم وجسم طويل فاغتروا بقوتهم تلك، وحملهم ذلك على رفض دعوة الله والاستكبار عليها وعلى الناس. يقول الطاهر ابن عاشور - رحمه الله - : « وهم قد اغتروا بقوة أجسامهم وعزة أمتهم وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى قولهم: « من أشد منا قوة » فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنهم اعتدوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم^(٢). ومما يدل على تهافت قولهم ذلك، قوله تعالى تعقياً عليهم: ﴿أَوْلَيْرَبُّوْا أَنْكَ اللهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ « فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى خاضعين لأوامره ونواهيته^(٣) ».
- ٢ - الاعتقاد بعدم البعث والحساب:

المستكبرون بطغيانهم الذي يحجبهم عن صوت الحق والانقياد إليه يتوهمون بما هم عليه من قوة وقدرة - عدم الرجعة إلى الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب والعقاب، فيحملهم هذا التوهم الكاذب على الاستكبار على أهل الأرض بغير حق والتكذيب بالآيات والنذر...

يقول تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

فرعون وجنوده ومعهم كل الطغاة ظنوا أن لا بعث ولا رجوع لأنهم كفروا بالمرجع إليه... ويجوز أن يكون المعنى: وظنوا أنهم في منعة من أن يرجعوا في قبضة قدرتنا^(٤).

(١) روح المعاني (١١٢/٢٤)، وجمع البيان (١١/٢٤)، والجامع لأحكام القرآن (٣٤٧/١٥)، وفتح القدير

(٢) (٤/٥١٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١١٣/٢٧).

(٤) (٤) التحرير والتنوير (١٢٤/٢٠).

وفي كلا الحالتين كذب هؤلاء وخنسوا لما أتاهم أمر الله، فظهر لهم ولمن سار مسارهم أن الاستكبار من البشر في الأرض لا يكون إلا بغير الحق. قال تعالى في نهاية المشهد لما أغرق سبحانه فرعون وجنوده في اليم: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] «اعتبارًا بسوء عاقبتهم لأجل ظلمهم أنفسهم بالكفر وظلمهم الرسول بالاستكبار عن سماع دعوته. وهذا موضع العبرة من سوق هذه القصة ليعتبر بها المشركون، فيقيسوا حال دعوة محمد ﷺ بحال دعوة موسى عليه السلام، وقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه فيوفتوا بأن ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيهم لا محالة... وكما طمع فرعون أن يبلغ إلى الله استكبارًا منه في الأرض سأل المشركون: ﴿تَوَلَّى أَنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكَةُ أَوْ رَيْنًا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله كما ظن أولئك، فيوشك أن يصيهم من الاستئصال ما أصاب أولئك»^(١).

٣ - فقدان الحججة لدفع الرسالة ورفضها: كل الذين استكبروا على أنبياء الله وتجبروا على المؤمنين لم تكن لهم حجة واحدة ترد ما كفروا به واستكبروا عليه، فكان ذلك منهم بالعدوان والباطل لا بالحق والاستحقاق. فهذا فرعون من جديد، لما ينس من دفع رسالة موسى بالحجج والبراهين وفقد كل حجة، بل كل شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات، قال قوله المشهورة: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. ولما اتهم المشركون محمدًا ﷺ بالكذب والسحر والجنون، لما جاءهم بالحجج الدامغة والبراهين الواضحة على صدقه ودعوته فلم يبق لهم بعد ذلك إلا الاستكبار. وصدق الله العظيم الذي وصف استكبارهم ذلك بأنه استكبار بغير حق.

(٢/٣/٣) دلالة الاستكبار بغير الحق:

يمكن حصر دلالة ضميمية «الاستكبار بغير الحق» في الآيات المدروسة في معنيين اثنين هما:

- ١ - من يستكبر من المخلوقين فهو غير محق. (غير مستحق).
 - ٢ - من يستكبر من المخلوقين فاستكباره هو بما ليس بحق.
- بيان المعنى الأول تم شرحه. أما المعنى الثاني فأورده بعض المفسرين حين اعتبروا

لفظ « بغير الحق » في الآيات صلة لفعل الاستكبار أو التكبر. واعتبروا أن هذا الذي ليس بحق هو ما كان عليه الكفار من دينهم^(١). فهم استكبروا وتكبروا وتعزوا بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط.

وحقيقة الاستكبار في الأرض الموصوف بغير الحق هو « إظهار النخوة والكبر وعدم الالتفات إلى الغير والاستعلاء عليهم واستخدامهم وتركيعهم، بل وادعاء حق الربوبية في الأرض على عباد الله ومزاولة هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله، وتعييدهم لهذا التشريع الباطل، ومن هذا التكبر ينشأ سائر ألوان التكبر، فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث^(٢)».

(٢ / ٣ / ٤) التكبر بالحق هو لله تعالى وحده:

إن صفة التكبر - كما أجمع المفسرون - لا تكون إلا لله ﷻ. لذلك وصف سبحانه استكبار البشر بأنه بغير حق. ووجه الحق في ذلك أنه سبحانه هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد سواه فلا جرم يستحق كونه متكبراً. فهي صفة ذم في جميع العباد وصفة مدح في حق الله جل جلاله، لأنه يستحق إظهار ذلك على سواه، فذلك في حقه حق وفي حق غيره من المتصفين بها باطل^(٣). قال الله ﷻ في الحديث القدسي عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ: « الكبرياء رذائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قذفته في النار^(٤)». إن وصفه تعالى لتكبر الكافرين والمشركين بأنه بغير الحق زيادة لتشنيع هذا الخلق في حق البشر بذكر ما هو صفة لازمة له وكاشفة لوصفه وهي مغايرة الحق.

وليس تكبر الله بمقصود أن يحترز عنه في جميع الآيات - موضوع الدرس - حتى يجعل القيد « بغير الحق » للاحتراز عنه^(٥).

الاستكبار في النفس

١ - مورد الضميمة:

اقترن مصطلح الاستكبار بلفظ الأنفس في قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا

(١) انظر: الكشاف (١١٧/٢)، والبحر المحيط (١٧٤/٥)، وفتح القدير (٢٤٤/٢)، وروح المعاني (٦١/٩).

(٢) في ظلال القرآن (١٣٧١/٣).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (٥/١٥)، والبحر المحيط (١٧٤/٥).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الكبر (٢٠٢٣/٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب

اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٥٩/٤). (٥) التحرير والتنوير (١٠٥/٩).

أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةَ أَوْ نَزَّلْنَا رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْٓ اَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيْرًا ﴿٢١﴾ [الفرقان: ٢١].

الآية من سورة الفرقان وهي مكية تعنى بشؤون العقيدة، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ وحول القرآن العظيم. ومحور السورة يدور حول إثبات صدق القرآن، وصحة الرسالة المحمدية، وحول عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، وفيها بعض القصص للظة والاعتبار.

٢ - دلالة الضميمة:

(١ / ٢) دلالة لفظ « النفس » في اللغة:

« النون والفاء والسين أصل واحد يدل على خروج النسيم كيف كان، من ربح أو غيرها، وإليه يرجع فروعه »^(١).

وشرحها المناوي بأنها الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية. وسماها الحكيم: الروح الحيوانية، فهي جوهر مشرق للبدن، فعند الموت ينقطع ضوؤه من ظاهر البدن وباطنه، وأما وقت النوم، فينقطع ضوؤه عن ظاهره دون باطنه، فثبت أن النوم والموت من جنس واحد، لأن الموت انقطاع كلي، والنوم انقطاع ناقص، فثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب:

- إن غلب ضوء النفس على جميع أجزاء البدن: ظاهره وباطنه فهو اليقظة.

- وإن انقطع ضوؤها عن ظاهره فقط، فالنوم.

- أو بالكلية: فالموت^(٢).

ومن معانيها الجزئية: حقيقة الشيء وذاته، وكل شيء بعينه نفس^(٣)، ومن معانيها أيضاً: العند ﴿ تَعَلَّمَ مٰٓ فِي نَفْسِيْ وَلَاۤ اَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: ما عندي وما عندك وأيضاً العظمة والعزة والهمة والأنفة والعيب والإرادة والعقوبة، قيل ومنه: ﴿ وَيَحٰذِرُكُمْ اَللّٰهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]^(٤).

« والنفس الدم، وهو صحيح، وذلك أنه إذا فقد الدم من بدن الإنسان فقد نفسه...

(١) المقاييس « نفس ».

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص ٧٠٥).

(٣) انظر: العين « نفس »، والقاموس المحيط « نفس »، والكليات « نفس ».

(٤) القاموس المحيط « نفس ».

والنفس قوامها بالنفيس... وقياس الباب في هذا وفيما معناه واحد»^(١).

(٢/٢) دلالة لفظ « النفس » في الآية الكريمة:

يمكن حصر دلالة النفس في الآية الكريمة في معنيين:

١ - القلب:

وذلك أن المشركين الذين طلبوا نزول الملائكة ورؤية الله أضرروا بذلك الكفر والاستكبار عن الحق في قلوبهم، فكان ذلك معتقدهم كما قال تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِسَلْفِينَ﴾ [غافر: ٥٦]^(٢).

٢ - الذات:

أي أن الكفار بالغوا في تعظيم أنفسهم حين اجتروا على التفوه بمثل تلك العظيمة الشعاء وسألوا ما ليسوا به بأهل^(٣).

(٣/٢) دلالة ضميمية « الاستكبار في النفس » في الآية الكريمة:

يمكن حصر دلالة هذا المركب اللفظي في معنيين متكاملين:

١ - تعظيم الذات ورفعها فوق منزلتها الحقيقية:

إن الله ﷻ وصف كفار قريش بأنهم استكبروا في أنفسهم وأعطوها من المكانة ما لا تستحق، للاعتبارات الآتية:

- عدم رجاء لقاء الله: قال القاضي أبو محمد: « والذي يظهر لي أن الرجاء في هذه الآية على باب، لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبداً برجائه، فإذا نفي الرجاء عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مكذب بالبعث لنفي الخوف والرجاء»^(٤).

ويمكن أن يكون المعنى: عدم توقعهم لقاء الله تعالى أصلاً، لإنكارهم البعث والحساب بالكلية لا عدم أهلهم حسن اللقاء ولا عدم خوفهم سوء اللقاء لأن عدمهما غير مستلزم لما هم عليه من العتو والاستكبار وإنكار البعث والحساب رأساً^(٥).

(١) المقاييس « نفس ».

(٢) الكشاف (٨٨/٣)، ومفاتيح الغيب (٧٠/٢٤)، والبحر المحيط (٩٦/٨)، وفتح القدير (٦٩/٤).

(٣) المحرر الوجيز (٢٠٥/٤)، وإرشاد العقل السليم (٢١٠/٦)، وروح المعاني (٣/١٩).

(٤) المحرر الوجيز (٢٠٥/٤). (٥) إرشاد العقل السليم (٢١١/٦).

- سؤال رؤية الله تعالى: إن وصف الله تعالى لمشركي قريش بالاستكبار والعتو لا يدل على أن الرؤية مستحيلة « لأن من طلب شيئاً محالاً، لا يقال إنه عتا واستكبر، ألا ترى أنهم لما قالوا: ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ ﴾ لم يثبت لهم بطلب المحال عتواً واستكباراً بل قال: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] بل العتو والاستكبار لا يثبت إلا إذا طلب الإنسان ما لا يليق به ممن فوقه أو كان لاثقاً به ولكنه يطلبه على سبيل التعتن... ومما يدل عليه أن موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو، لأنه ﷺ: طلب الرؤية شوقاً - وهؤلاء طلبوها امتحاناً وتعتناً - لا جرم وصفهم بذلك «^(١).

فما جاءهم به النبي ﷺ من المعجزات كاف لو وفقوا.

- سؤال تنزيل الملائكة: أي أن المشركين رفعوا أنفسهم فوق قدرها لما اشترطوا للإيمان برسالة النبي ﷺ نزول الملائكة عليهم، وهذا النزول يشمل معنيين:

١ - نزولهم إليهم وإخبارهم إياهم بصدق محمد ﷺ^(٢).

٢ - نزولهم عليهم بطريق الرسالة^(٣).

وكلا المعنيين ناشئ عن غاية غلوهم في المكابرة والعتو؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب^(٤). وهذا لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشراً.

من كل هذا يظهر أن شعور المشركين بأنفسهم تضخم « حتى شغلهم عن تقدير القيم الحقيقية ووزنها وزناً صحيحاً، لقد عادوا ما يحسون إلا أنفسهم وقد كبرت في أعينهم وتضخمت وعظمت حتى لا يحسبونهم شيئاً عظيماً في هذا الكون يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله ليؤمنوا ويصدقوا «^(٥).

٢ - إضمار الاستكبار عن الحق واعتقاده في القلوب:

فحرف « في » في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَنْفَسِهِمْ ﴾ [الفرقان: ٢١] للظرفية المجازية، شبهت

(١) مفاتيح الغيب (٦٩/٢٤، ٧٠).

(٢) البحر المحيط (٩٥/٨)، وروح المعاني (٢/١٩)، والجامع لأحكام القرآن (١٩/١٣).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢١١/٦)، وفتح القدير (٦٩/٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٣).

(٥) في ظلال القرآن (٢٥٥٨/٥).

أنفسهم بالظروف في تمكن المظروف منها، أي هو استكبار متمكن منهم، كقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [النار: ٢١] (١).

والمعنى: أن كفار قريش لما سألوا النبي ﷺ رؤية الله ﷻ ونزول الملائكة كان ذلك تجلياً لما أضمره في أنفسهم من الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد الكامن في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِئِهِ﴾ [غافر: ٥٦] (٢).

الاستكبار عن الآيات

١ - موارد الضميمة:

اقترن لفظ « الآيات » بمصطلح « الاستكبار » في القرآن الكريم في موضعين هما:

١ - قوله تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ رَسُولٌ مُسَلَّمٌ يُقْضَىٰ عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰ رَبِّي فَمَنْ أَنْقَضَ وَاصَلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦، ٣٥].

٢ - قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١].

٢ - دلالة الضميمة:

(١/٢) دلالة لفظ « الآية » في اللغة:

« الهزمة والياء والتاء أصل واحد، وهو النظر يقال: تأيا يتأيا تأيياً، أي تمكن... وأصل آخر وهو التعمد. يقال: تأيئت - على تفاعلت - وأصله: تعمدت آيته وشخصه... قال الأصمعي: آية الرجل شخصه (٣)». والآية: العلامة الظاهرة (٤). «وحقيقة كل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر

(١) التحرير والتنوير (٦/١٩).

(٢) انظر: الكشاف (٨٨/٣)، والبحر المحیط (٩٦/٨)، ومفاتيح الغيب (٧٠/٢٤).

(٣) معجم مقاييس اللغة «أي».

(٤) العين «أي»، ومقاييس «أي»، والقاموس المحيط «أي»، والمفردات «أي»، والتوقيف على مهمات التعاريف

(ص ١٠٧)، والكليات (ص ٢١٩).

الذي لم يدركه بذاته، إذ كان حكمهما سواء. وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات فمن علم ملازمة العلم للطريق المنهج ثم وجد العلم علم أنه وجد الطريق^(١). واختار الراغب أن الصحيح أنها مشتقة من التأني الذي هو الثبوت والإقامة على الشيء^(٢).

(٢/٢) دلالة لفظ « الآيات » في الآيتين الكريميتين:

المقصود بالآيات في الآيتين الكريميتين هو مجمل ما جاء به رسل الله لأقوامهم من حجج وأدلة وبراهين على صدق رسالاتهم من دلائل وأحكام وشرائع كتلك الدالة على وجود الخالق ووحدانيته، والدالة على النبوة والمعاد ونحو ذلك، ويشمل المعنى كذلك الآيات المتلوة في القرآن.

(٣/٢) دلالة ضميمية « الاستكبار عن الآيات » في الآيتين الكريميتين:

يمكن حصر ثلاث دلالات لضميمة الاستكبار عن الآيات، متكاملة ومتراصة، هي:
١ - عدم التصديق بآيات الله:

أول ما قابل به الكفار آيات الله تعالى المنزلة على أنبيائه الكرام هو الترفع والتكبر عن الإيمان بها كحجج وأدلة قاطعة على صدق الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، فلم يقبلوها جحدًا وكفرًا رغم وضوحها وقوتها. وهذا واضح في اقتران الاستكبار عن الآيات بالتكذيب بها في الآيتين الكريميتين، فالتكذيب نتج عنه الاستكبار والتعاضم لذلك قابل المولى ﷺ في الآية السادسة والثلاثين الإصلاح بالاستكبار؛ لأن إصلاح العمل من نتيجة التقوى والاستكبار من نتيجة التكذيب^(٣).

والكفار إما كذبوا بحسب اعتقادهم وإما استكبروا فكذبوا وإن كانوا غير مصممين في اعتقادهم على التكذيب. قال القاضي أبو محمد: وهذا نحو الكفر عنادًا^(٤).

المحصلة أن هؤلاء لم يكونوا ليتبعوا الرسل فيما جازوا به ولا ليقنوا بما أمروا به لأن من كذب بالشيء نأى بنفسه عن اتباعه.

(١) المفردات « أي ».

(٢) البحر المحيط (٤٦/٥).

(٣) المحرر الوجيز (٣٩٧/٢).

٢ - الأنفة من العمل بمقتضى الآيات:

هذه الدلالة نتيجة لسابقتها. فمن كذب بالشئ لم يعمل به ولم ينقد إليه، فهؤلاء رفضوا الانقياد للرسول ورفضوا اتباعهم؛ لذلك رفضوا الانقياد إلى ما جاؤوهم به من أدلة وبراهين على صدق دعوتهم، ولم يكن هذا الرفض منطقيًا ولم يستند إلى أي مبررات عقلية مقنعة، وإنما كان رفضهم أنفة فقط لذلك عبر المولى ﷺ بلفظ الاستكبار دون غيره من الألفاظ، ولذلك استحقوا أن يكونوا من أصحاب النار المخلدن فيها، وأن لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت أبواب السماء، ولا يصعد لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل، لأن أعمالهم خيثة، وإنما يرفع الكلم الطيب والعمل الصالح^(١)، لذلك أفاد تحقيق أنهم صاثرون إلى النار بطريق قصد ملازمة النار عليهم في قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لأن لفظ «أصحاب» مؤذن بالملازمة وبما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام، والثبات في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢).

٣ - الصد عن الرسالة وصد الناس عنها:

إن في تكذيب الكافرين بآيات الله واستكبارهم عنها صدًا لرسالة الأنبياء وصدًا للناس من أن يتبعوها ويتبعوا الهدى الذي فيها. ومصدق هذا فيما يرى من احتقار المشركين عبر تاريخ الرسالات لأصحابها من رسل وأنبياء، وكذلك لأتباعهم من الناس الذين صودر حقهم الطبيعي في حرية الاعتقاد بما رأوه دينًا حقًا.

الاستكبار عن عبادة الله تعالى

١ - موارد الضميمة.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾

[الأعراف: ٢٠٦].

- قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

- قوله ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غان: ٦٠].

(١) جامع البيان (٨/ ١٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (٨/ ١١١).

(١ / ٢) دلالة لفظ « العبادَة » في اللغة:

« العين والباء والذال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ... »

قال الخليل: « وأما عبد يعبد عبادة فلا يقال إلا لمن يعبد الله تعالى، يقال: منه عبد يعبد عبادة، وتعبد ويتعبد تعبدًا، فالمتعبد: المتمرد بالعبادة.. والأصل الآخر: العبد - وهي الغلبة والصلاة -، قال: هذا ثوب له عبدة إذا كان صفيقًا قويًا^(١). »

والعبادة: الطاعة^(٢)، قال الزجاج: « ومعنى العبادة في اللغة الطاعة »^(٣). وعبد الله يعبد عبادة ومعبدًا ومعبدًا تأله له^(٤).

والعبودية إظهار الخضوع والتذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل^(٥) ولا يستحقها إلا الله تعالى لأنه سبحانه غاية الإفضال، ولهذا قال: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]. كما أن العبادة تسقط في العقبى والعبودية لا تسقط^(٦).

(٢ / ٢) دلالة « العبادَة » في الآيات الكريمة:

يمكن حصر معنيين اثنين للفظ « العبادَة » في الآيات الكريمة، وهما:

١ - طاعة الله والتذلل له^(٧):

هذا المعنى تدل عليه آيتي « الأعراف » و « الأنبياء ».

فإن الله سبحانه ينفي الاستكبار عن طاعته والتواضع والخضوع له سبحانه عن الملائكة على مكائهم ومنزلتهم وكمال شرفهم، فكيف بالبشر الضعيف المتمرد عن عبادة الله. إن الملائكة مع تلك الرفعة لا يكلون ولا يعيون من تسبيح الله ﷻ ليل نهار، وإن الإنسان

(١) المقاييس « عبد ».

(٢) اللسان « عبد ٥، والصحاح « عبد ٥، والقاموس المحيط « عبد ٥.

(٣) اللسان « عبد ».

(٤) المفردات « عبد ٥، والكليات (ص ٥٨٣).

(٥) الكليات (ص ٦٥٠).

(٦) جامع البيان (٩/ ١٦٨)، والكشاف (٢/ ١٤٠)، والبحر المحيط (٥/ ٢٦٤)، ومفاتيح الغيب (١٥/ ١١٥)،

(٧) (١٤٨/ ٢٢)، وإرشاد العقل السليم (٦/ ٦٠)، والجامع (١١/ ٢٧٧)، وتفسير القرآن العظيم (٣٣/ ١٥٦)، وفتح

القدير (٣٠/ ٤٠٢).

رغم خلوه من ذلك الاختصاص تراه يستكبر عن طاعة الله وينأى بجانبه عنها.

٢ - الدعاء:

وردت العبادة بهذا المعنى في آية « غافر »؛ لأن الدعاء نوع من العبادة ومن أفضل أنواعها، بل روى ابن منذر والحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال: أفضل العبادة الدعاء وقرأ الآية .. وفي إيقاع العبادة صلة الاستكبار ما يؤذن بأن الدعاء باب من أبواب الخضوع، لأن العبادة خضوع ولأن المراد بالعبادة الدعاء، والاستكبار إنما يكون عن شيء إذا أتى به لم يكن مستكبراً^(١).

وما يعزز هذا المعنى أيضاً ما روي عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: « الدعاء العبادة » وقرأ هذه الآية^(٢)، ويذكر هذا قوله تعالى في نفس الآية: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

(٢ / ٢) دلالة ضميمة « الاستكبار عن عبادة الله » في الآيات الكريمة:

ينبغي الإشارة مسبقاً أن الاستكبار عن عبادة الله تعالى جاء منفياً في آيتي « آل عمران » و« الأنبياء »، إذ نفاه المولى ﷺ عن الملائكة، وجاء مثبتاً في آية « غافر » أثبت سبحانه للبشر.

أما دلالات هذه الضميمة في الآيات الكريمة فيمكن حصرها في الآتي:

١ - نفي الاستكبار عن عبادة الله موجب للطاعة وإثباته موجب للعصيان:

إن نفي الاستكبار عن عبادة الله تعالى عن الملائكة هو إظهار لعبوديتهم وموجب لطاعتهم، وإثباته لمن سواهم من المكلفين موجب لعصيانهم، فالملائكة مع كمال شرفهم وجلال قدرهم عند الله تعالى وبراءتهم من بواعث الشهوة والغضب وحوادث الحق والحسد، لا يستكبرون عن عبادة الله وطاعته، بل هم مواظبون على تسيبته والسجود له والخضوع ليلاً ونهاراً لا يفترون ولا يستحسرون، وأما غيرهم من المكلفين فرغم ضعفهم واحتياجهم، إذ النزوة والشهوة تغلب فيهم، مع ذلك يستكبرون عن طاعة المولى ﷺ، إذ نزع الشيطان في أنفسهم، فأرأوا لها مزية ليست لغيرهم، فمنعهم ذلك من الطاعة والخضوع.

فأولئك رغم مكانتهم أطاعوا وخضعوا وهؤلاء رغم وضاعتهم وضعفهم استعملوا واستكبروا. فتبين بذلك أنه من خاف الله لم يستكبر عن عبادته، سواء كان ملكاً أو بشراً مؤمناً، وبهذا أمكننا القول أن العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار وعدمها ناشئة عن ثبوته.

٢ - نفي استكبار الملائكة عن عبادة الله، نفي للبنوة عنهم.

إذ كيف يجوز عليه سبحانه اتخاذ الولد والشريك « ومن عنده » وهم الملائكة الذين لهم عند الله تعالى المنزلة، كما يقال عند الأمير كذا وكذا من الجند وإن كانوا متفرقين في الأماكن... لا يأنفون ولا يترفعون عن عبادته. وأراد بذلك نفي البنوة عنهم لأن أحداً لا يستعبد ابنه^(١).

الاستكبار بالبيت الحرام

١ - مورد الضميمة:

اقرن مصطلح الاستكبار بلفظ المسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴾ (١١) لَا يَجْتَرُوا يَوْمَ لِنَّاكَ مِنَّا لَا نُصْرُونَ ﴿١٢﴾ فَذَكَرْتَهُ لِنَبِيِّ نُنْتَلِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ نَنكِصُونَ ﴿١٣﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ، سَمِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٧].

المقصود في قوله تعالى: « به » هو البيت الحرام كما قال جمهور المفسرين^(٢). قال ابن عطية - رحمه الله -: « قال الجمهور: هو عائد على الحرم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته في الأمر »^(٣).

٢ - دلالة الضميمة في الآية الكريمة:

معنى الضميمة أن مترفي قريش كانوا يعتقدون في أنفسهم أن لهم بالبيت الحرام حقاً أعظم وأكثر من غيرهم، ولهم منازل عند الله ليست لغيرهم، لأنهم خدامه وولاته والقائمون عليه. قال النسائي: « كانوا يتكبرون ويسمرون فيه فلا يعمرونه ويهجرونه »^(٤). لذلك فهم يتكبرون به على سائر الناس.

وفي هذه الضميمة إنحاء من الله تعالى عليهم، قال الشيخ ابن عاشور: « وفيه إنحاء

(١) مجمع البيان (١٤/١٥)، وانظر أيضاً: جامع البيان (١٧/١٠، ١١).

(٢) جامع البيان (١٨/٣٨)، والمحرم الوجيز (٤/١٤٩)، والبحر المحيط (٧/٢٧٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/١٣٦)، وتفسير القرآن العظيم (٣/٢٢٢)، وفتح القدير (٣/٤٩٠)، وروح المعاني (١٨/٤٩).

(٣) المحرم الوجيز (٤/١٤٩). (٤) تفسير النسائي (٢/٩٨).

عليهم في استكبارهم، وفي كون استكبارهم في ذلك الموضع الذي أمر الله أن يكون مظهرًا للتواضع ومكارم الأخلاق فلا استكبار في الموضع الذي شأن القائم فيه أن يكون قانتًا لله حنيفًا أشنع استكبار^(١).

المطلب الثاني

ما ضم إليه المصطلح

﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾، ﴿ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، ﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ﴾

١ - موارد الضميمة:

- قول الله ﷻ: ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

[الأعراف: ٧٦].

- قول الله ﷻ: ﴿ وَرَزَوُا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَاتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنَوْنَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فَأُولَٰئِكَ لَوْ هَدَدْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَرَاءً عَلَيْنَا أَجْرٌ عَلَيْنَا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّجْحِينٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

- قول الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَمْخُ سَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْمُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَ كُرْبٌ بَلْ كُنْتُمْ تَجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٌ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْطَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴾ [س: ٣١-٣٣].

- قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ قِيَعُوا الضُّعِفَاتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنَوْنَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿١٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

- قول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

- قول الله ﷻ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيْتِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الاعراف: ١٤٦].

٢ - التعريف:

الذين استكبروا هم الذين تعظموا ورفعوا أنفسهم فوق مقدارها فجدوا الحق وأنفوا من اتباع رسل الله.

٣ - العلاقات:

- الترادف:

في النص الثالث ضرب من الترادف بين « الذين استكبروا » و « الظالمون » يقول ابن عاشور: « والظالمون المشركون، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَشْرَكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [نعمان: ١٣]. وقد وقع التصريح بأنه إيقاف جمع بين المشركين والذين دعواهم إلى الإشراك في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الآية في سورة يونس^(١).

وصفهم بالظلم لما كان منهم في الدنيا من الضلال والإضلال نظرًا للمتكبرين، ومن الضلال فقط نظرًا للمستضعفين^(٢).

- التقابل:

في النصوص: الثاني والثالث والرابع تقابل بين « الذين استكبروا » و « الذين يستكبرون » وبين « الذين استضعفوا » و « الضعفاء ». فهما على طرفي نقيض. ويمكن بيان دلالة هذا التقابل في المعاني الآتية:

- ١ - تباين الموقع الاجتماعي لكلا الفريقين: فالذين استكبروا كانوا رؤساء وسادة ومتبعين، والذين استضعفوا كانوا ضعفاء خائعين لا تصرف لهم في أمور الأمة.
- ٢ - تبعية الذين استضعفوا للذين استكبروا في الكفر والضلال وتكذيب الرسل عليهم السلام - والإعراض عن دعوتهم.
- ٣ - المصير المشترك لكلا الفريقين وهو عذاب الله المتمثل في نار جهنم والخزي

(٢) انظر: روح المعاني (٢٢/١٤٦).

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٢٠٣، ٢٠٤).

يوم القيامة، فالنصوص الثلاثة تؤكد كيف أن الجميع واجهوا نتائج المسؤولية في عذاب الله، وتصور لنا موقف من أخضعوا إرادتهم لإرادة الآخرين ونزواتهم في وقت كانوا يستطيعون فيه تحرير أنفسهم وإرادتهم منهم، ولكنهم خضعوا لمظاهر القوة عند أولئك الذين استكبروا واستبعوهم دون وعي.

﴿ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾

١ - موارد الضميمة:

- قول الله ﷻ: ﴿ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنَّ سَلِيلًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِمُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥].

- قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُجْرِكَكَ بِشَعْبِكَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِينًا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِيَّ مَلِئِينَ قَالُوا لَوْلَا كَرِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

٢ - مفهوم لفظ الملا:

(١ / ٢) في اللغة:

« والميم واللام والحرف المعتل كلمة واحدة هي الزمن الطويل.

... وإذا همز دل على المساواة والكمال في الشيء، وملأت الشيء أملأه ملأنا والملء: الاسم للمقدار الذي يملأ.

... ومنه الملا: الأشراف من الناس، لأنهم ملأوا كرمًا^(١).

- والملا: الجماعة، قال الشاعر:

وتحدثوا ملا لتصبح أمنا عذراء لا كهل ولا مولود

أي تشاوروا وتمالئين على ذلك ليقتلونا أجمعين، فتصبح أمنا كأنها لم تلد^(٢).

- والملا أيضًا: الرؤساء، سموا بذلك لأنهم ملاء بما يحتاج إليه^(٣).

(١) المقاييس ١ ملي ٤.

(٢) الصحاح ٥ ملا ٥، وانظر أيضًا: اللسان ٥ ملا ٥.

(٣) اللسان ٥ ملا ٥.

ومعناه أيضًا: الخلق، يقال: ما أحسن ملائني فلان: أي عشرتهم وأخلاقهم قال الجبيني:

تنادوا يا بهثة إذا رأونا
والملأ: العلية والجمع أملاء^(١).

(٢/٢) في القرآن الكريم:

- الملأ: الجماعة، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَلْمَلَاءُ يَأْتِرُونَكَ لِیَقْتُلُوكَ﴾ [الفصص: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى أَلْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والملأ أيضًا: الأشراف، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِيهِ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي صَلَائِلِ مُبِينٍ﴾

[الأعراف: ٦٠]، وقال: ﴿قَالَ أَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

ووصف به في القرآن الكريم، الذين كفروا دون المؤمنين وفي آيتين وصف به أهل

السماء، قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِهَا الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨].

وقال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْإِلَهِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩].

٣- التعريف:

الملأ الذين استكبروا هم الأشراف والعظماء الذين عتوا وتكبروا على الخالق

وحملتهم الأنفة على الكفر بما جاءت به رسل الله من الحق.

٤- العلاقات:

- التقابل:

في النص تقابل بين « الملأ الذين استكبروا » وبين « الذين استضعفوا » وهؤلاء هم

عامة الناس الذين أذلهم الرؤساء واستعبدهم؛ لأن زعامة الذين استكبروا كانت قائمة

على السيادة الدنيوية الخلية عن خلال الفضيلة من العدل والرفقة وحب الإصلاح فلذلك

وصف الملأ بالذين استكبروا وأطلق على العامة وصف الذين استضعفوا^(٢).

وكانت العلاقة بينهم قائمة على أساس فتنة الملأ الذين استكبروا للذين استضعفوا،

هؤلاء الذين خلعوا ربة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده وتحرروا من العبودية

للعبيد.

(٢) اللسان ١ ملاء.

(١) الصحاح ١ ملاء، واللسان ١ ملاء.

(٣) التحرير والتنوير (٨/٢٢٢، ٢٢٣).

فما لبثوا يسخرون منهم ويهددونهم، طمعاً في رجوعهم عن دينهم الذي جاء بدعوة تجرد الملائكة من كل سلطان في الأرض وترده إلى إله واحد هو رب العالمين.

وفي النص الثاني تقابل بين « الملائكة الذين استكبروا » وبين « الذين آمنوا » ومن هذا التقابل علم أن الملائكة الذين استكبروا، كفروا برسالة شعيب وحاولوا جاهدين بكل الأساليب صد الناس عنها والذين آمنوا هم أتباع شعيب عليه السلام.

﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

١ - مورد الضميمة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي. وَيَسَبِّحُونَكَ، وَلَهُ يُسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٢ - دلالة الضميمة:

- يلاحظ أن الضميمة في هذه الآية وصف لغير الكافرين.

وقد أجمع المفسرون على أن المقصود بالذين لا يستكبرون في الآية هم الملائكة.

- أخبر المولى عليه السلام عنهم بثلاثة أخبار: « الأول نفي الاستكبار عن عبادته وذلك هو إظهار العبودية. ونفي الاستكبار هو الموجب للطاعات، كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان، لأن المستكبر يرى لنفسه تفوقاً ومزية، فيمنعه ذلك من الطاعة... »

ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار وكانت على قسمين: عبادة قلبية وعبادة جسمانية، ذكرهما، فالقلبية تنزيه الله تعالى عن كل سوء، والجسمانية السجود وهي الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى ^(١).

- الملائكة مع نهاية شرفهم وغاية طهارتهم وعصمتهم وبراءتهم عن بواعث الشهوة والغضب وحوادث الحقد والحسد، لما كانوا مواظبين على العبودية والسجود والخضوع. فالإنسان مع كونه مبتلى بظلمات عالم الجسمانيات ومستعبداً للذات البشرية والبواعث الإنسانية أولى بالمواظبة على الطاعة ^(٢).

- قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ « ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة؛ لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك، وإنما أريد به التعريض بالمشركين، وأنهم على

التيض من أحوال الملائكة المقربين فخلق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة»^(١).
« ووجه العدول عن لفظ الملائكة إلى الموصولية: ما تؤذن به الصلة من رفعة منزلتهم،
فيتذرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم»^(٢).



الْمِجْحَةُ الثَّانِي

ضمانم الاستضعاف

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

ما ضم إلى المصطلح

الاستضعاف في الأرض

١ - موارد الضميمة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَاذَلَّتْكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿النساء: ٩٧﴾.

- قال عفي: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ. وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿الأنفال: ٢٦﴾.

- قال عز من قائل: ﴿وَرِيدٌ أَن تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ آيَةً وَجَعَلَهُمُ الْآيَاتِ الْكُورِ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّيَ يُرْعَوُونَ وَهَمَّ نَحْنُ وَجَعَلَهُمَا آيَةً لَهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿الفصص: ٦٥﴾.

٢ - دلالة الضميمة:

(١/٢) دلالة لفظ «الأرض» في اللغة:

سبق أن تناولنا ذلك عند دراستنا لضميمة الاستكبار في الأرض^(١).

(٢/٢) دلالة لفظ «الأرض» في الآيات:

قال ابن عطية: «ومتى جاءت الأرض هكذا عامة فإنما يراد بها الأرض التي تشبه قصة القول المسوق، لأن الأشياء التي تعم الأرض كلها قليلة^(٢) بناء عليه فالأرض

(١) انظر (ص ١٤١ - ١٤٣).

(٢) المحرر الوجيز (٤/٢٧٦).

في آتي النساء والأطفال هي أرض مكة^(١)، حيث كان الناس فيها قبل البعثة مستضعفين، مضطهدين من قبل أشرافها وكبرائها، وفيها أيضًا عانى المسلمون في بداية الدعوة قبل أن يفتحها النبي ﷺ، أما (الأرض) في آية القصص فهي أرض مصر^(٢)، حيث كان فرعون يستضعف بني إسرائيل فيها قبل أن يخلصهم نبي الله موسى ﷺ.

(٣/٢) دلالة ضميمية « الاستضعاف في الأرض » في الآيات:

من أهم دلالات هذه الضميمة ما يأتي:

- استضعاف قوم في أرض معينة يعني أن غيرهم من أهل تلك الأرض هم الذين يستضعفونهم. ففي مكة مارس مشركو مكة شتى صنوف التعذيب على من أسلم من أهلها. وكذلك بمصر كان فرعون يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحي نساءهم ويستخدمهم في مشاق الأعمال من دون الآخرين.

الأرض هنا تتجاوز دلالتها البعد الجغرافي إلى البعد العقدي، فإذا كان معظم أهلها على عقيدة الكفر كان الاستضعاف نصيب أولئك الحاملين لعقيدة مخالفة، خاصة إذا كان التوحيد هو الأمر الذي تنبني عليه رسالتهم.

لذلك أمر الله ﷻ المسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة، لأنهم بمكة لم يكونوا قادرين على الجهر بإسلامهم، وحتى لو فعلوا فيكون التعذيب والاضطهاد والاحتقار نصيبهم، أما في المدينة التي آمن معظم أهلها بالرسالة، فيمكن المسلم أن يعيش فيها بكل كرامة، ويسهم مع إخوته في إرساء قواعد الدولة الإسلامية استعدادًا لتحرير الأرض والإنسان وليس أسبق من مكة وأهلها.

وهكذا لما استبدلت الأرض تحول واقع الاستضعاف إلى واقع العزة والكرامة، فمن ذلك المشهد المفرغ إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم، في ظل الله الذي أوى المؤمنين إلى حماه.

(١) انظر: جامع البيان (٥/٢٣٣)، (٩/٢١٩)، والكشاف (١/٥٥٦)، (٢/١٣٥)، والمحرم الوجيز (٢/١٠٠ - ١٥٠)، والبحر المحيط (٤/٤٠)، (٥/٣٠٦)، ومفاتيح الغيب (١١/١٣)، وإرشاد العقل السليم (٢٠/٢٢٢)، (٤/١٧)، والجامع لأحكام القرآن (٥/٣٤٥)، (٧/٣٩٤)، وتفسير القرآن العظيم (٢/٢٨٧)، وروح المعاني (٩/١٩٤)، والتحرير والتنوير (٥/١٧٥).

(٢) انظر: جامع البيان (٢٠/٢٧)، والمحرم الوجيز (٤/٢٧٥)، والجامع لأحكام القرآن (١٣/٢٤٨)، وروح المعاني (٢٠/٤٢)، وفي ظلال القرآن (٥/٣٦٧)، والتحرير والتنوير (٢٠/٦٧ - ٧٠).

المَطْلَبُ الثَّانِي

ما ضم إليه المصطلح

﴿ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾

وردت هذه الضميمة مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَابْتَدِكُمْ بَصِيرِهِ. وَرَزَقَكُمْ مِنَ اللَّيْلِ لَمَلِكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

١ - دلالة « القلة » في اللغة:

« القاف واللام أصلان صحيحان، يدل أحدهما على نزارة الشيء، والآخر على خلاف الاستقرار، وهو الانزعاج. فالأول قولهم: قل الشيء يقل قلة « فهو قليل »^(١). والقلة: خلاف الكثرة والقل خلاف الكثر، وقد قل يقل قلة وقلاً فهو قليل وقلال وقلال^(٢).

ورجل مقل وأقل: فقير وفيه بقية^(٣).

وأصبح فلان في قلّ وكان في كثر إذا صار مقلّاً أي فقيراً بعد الإكثار^(٤).

و « القلة والكثرة يستعملان في الأعداد، كما أن العظم والصغر يستعملان في الأجسام، ثم يستعار كل واحد من الكثرة والعظم ومن القلة والصغر للآخر »^(٥).

٢ - دلالة « القلة » في القرآن الكريم:

« قوم قليلون وأقلاء وقلل وقللون. ورجل قليل وقوم أقلّة: خساس. قال تعالى: ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾، وقد يعكس ويكنى بها عن العزة اعتباراً بقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ [سبأ: ١٣]، وذلك أن كل ما يعز يقل وجوده.

والإقلال: قلة الجدة. رجل مقل وأقل: فقير وفيه بقية.

وقوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة: ٤١] أي تؤمنون إيماناً قليلاً. والإيمان القليل

(١) المقاييس « قل ».

(٢) اللسان « قلل ».

(٣) ترتيب القاموس المحيط « ق ل ل ».

(٤) أساس البلاغة « ق ل ل ».

(٥) المفردات « قل ».

هو الإقرار العامي المشار إليه بقوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] ^(١).

٣ - دلالة الضميمة ﴿ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ ﴾ في الآية:

- هذه الضميمة تصف حال المسلمين في مكة قبل الهجرة وفي بداية الإسلام، لقد كانوا قليلي العدد بين المشركين، أذلاء، يخافون أن يتخطفهم الناس.

- قلة العدد، مظهر من مظاهر الضعف، وسبب لوقوع الاستضعاف، إن تلك الحال تغري الأعداء باستضعاف المؤمنين وفتنتهم عن دينهم ونيلتهم بالمكروه في أنفسهم وأعراضهم.

- جاءت الضميمة جملة اسمية للدلالة على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيهم واستمرارهما وما يتبع ذلك من الضعف والخوف.

قال قتادة بن دعامة السدوسي:

« كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراة جلوداً وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قليلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد ووسع في الرزق وجعلهم به سلوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله » ^(٢).

﴿ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا ﴾

وردت هذه الضميمة في ثلاثة مواضع:

- ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمَلُوكُمْ أَنِك صَالِحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الاعراف: ٧٦، ٧٥].

- ﴿ وَرَبُّدُ أَنْ نَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمْ

الَّذِينَ ﴿ [القصص: ٥] .

- ﴿ وَلَوْ نَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْتُواهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَاءَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَدَ لِمَنْ أَصَابَ فِي أَصْحَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [سبأ: ٣١-٣٣] .

١ - تعريف الضميمة:

الذين استضعفوا هم الذين يستحقهم غيرهم لضعفهم المادي أو المعنوي.

٢ - العلاقات:

- التقابل:

في آية الأعراف وسبأ تقابل بين ﴿ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا ﴾ و ﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ (١).



(١) انظر دراستنا للضميمة ﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ (ص ١٦٥ - ١٦٨).

البُصْلُ الرَّابِعُ

مشتقات الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مشتقات الاستكبار.

المبحث الثاني: مشتقات الاستضعاف.

المبحث الأول

مشتقات الاستكبار

بعد بيان امتدادات مفهوم الاستكبار داخل المركبات الاصطلاحية التي تمثلها ضمائمه، فقد تعين تبين امتداداته خارج الأبعاد التي ترسمها نصوصه، وهذا ما تتيحه دراسة الألفاظ التي تشترك معه في نفس الجذر اللغوي والمفهومي ونعني بذلك مشتقاته.

زيادة على الفعل - بأزمته المختلفة - والمصدر اللذين بني عليهما البحث فيما سبق، نجد مشتقات أخرى، وهي: اسم الفاعل بصيغة: مستكبر ومتكبر، وجمع مستكبر الذي هو مستكبرون، وجمع متكبر الذي هو متكبرون، وجمع كبير الذي هو كبراء، وجمع أكبر الذي هو أكابر.

وبما أن لكل مشتق من الخصوصية ما يميزه عن غيره، فقد خصص له كلام في تعريفه وذكر صفاته إن كانت، وعلاقاته، وضمائمه، وغير ذلك مما تعلق به.

المستكبر

ورد هذا المشتق في القرآن الكريم مرتين في موضعين:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِئْسَ عِلْمٌ وَّيَخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٧﴾ وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا بئسرةً يعذاب ألبير ﴿٧﴾ [لقمان: ٧، ٦].

﴿ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ سَمِعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبئسرةً يعذاب أليم ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِن آيَاتِنَا سِتًّا أَخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٧﴾ [الجناب: ٧-٩].

يلاحظ أن مشتق « مستكبر » جاء نكرة في الآيتين معاً، مضافاً إلى لفظ « ولَّى » في النص الأول وإلى لفظ « يصر » في النص الثاني. ولم يوصف به في القرآن الكريم سوى الإنسان الكافر.

١ - التعريف:

المستكبر هو المتعظم عند نفسه عن الإيمان بآيات الله والإذعان للحق.

٣ - الصفات:

هذا المشتق جاء في الآيتين واصفًا، والموصوف هو الإنسان. ففي النص الأول وصف به نموذج من الناس موجود في كل زمان ومكان، إنه ذلك الذي يشغل بكل ما يلهي عن الخير من الملاهي والأحاديث المكذوبة وكل ما هو منكر، فيضل ويضل بذلك عن سبيل الله ويتخذها هزواً.

أما في النص الثاني فالموصوف به هو كل أفك أثيم، كذب دعوة الله وعاند في معجزاته تعالى، وخاصة منها القرآن الكريم.

- مفهوم الأفك:

الأفك صيغة مبالغة من الإفك وهو الكذب، على وزن الفعال، وهو الكذاب المارد على الكذب. « ويطلق كذلك على من يكثر كذبه ويعظم كذبه وإن كان في خبر واحد ككذب مسيلمة في ادعاء النبوة »^(١).

قال الكفوي: « كل شيء في القرآن إفك فهو كذب »^(٢).

والأفك: الذي يأفك الناس عن الحق، أي يصددهم عن الحق بباطله وكذبه^(٣).

- مفهوم الأثيم:

الأثيم بناء مبالغة، اسم فاعل من أثم يأثم. وهو المبالغ في اقرار الآثام، أي كثير الإثم.

« والإثم: الذنب الذي يستحق العقوبة عليه، ولا يصح أن يوصف به إلا المحرم، سواء أريد به العقاب أو ما يستحق به من الذنوب. وبين الذنب والإثم فرق من حيث إن الذنب مطلق الجرم، عمدًا أكان أم سهواً بخلاف الإثم، فإنه ما يستحق فاعله العقاب فيختص بما يكون عمدًا ويسمى الذنب تبعه، اعتبارًا بذنبي الشيء، كما أن العقوبة باعتبار ما يحصل من عاقبته، والهمزة فيه من الواو، كأنه يثم الأعمال أي يكسرها، وهو أيضًا عبارة عن الانسلاخ عن صفاء العقل، ومنه سمي الخمر إثمًا؛ لأنها سبب الانسلاخ عن العقل ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٩] أي في تناولهما إبطاء عن الخيرات، و ﴿ إِثْمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

(١) مجمع البيان (٢٥/١٢٧).

(٢) الكليات (ص ١٥٣).

(٣) العين « أفك »، واللسان « أفك ».

أي ممسوخ»^(١). وصف الله تعالى هذا الأفاك الأثيم في الآية بوصفين متلازمين:

- الأول: أنه يصر على الباطل ويقيم على الكفر رغم سماعه للحجج الدالة على صدق الرسالة.

- الثاني: أنه يستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله.

وجعلت حالة هذا الأفاك الأثيم « أنه يسمع آيات الله ثم يصر مستكبراً؛ لأن تلك الحالة وهي حالة تكرر سماعه آيات الله وتكرار إصراره مستكبراً عنها تحمله على تكرير تكذيب الرسول ﷺ وتكرير الإثم، فلا جرم أن يكون أفاكاً أثيمًا بله ما تلبس به من الشرك الذي كله كذب وإثم»^(٢).

٣ - الضمائم:

- ﴿وَلَنْ مُسْتَكْبِرًا﴾

وردت هذه الضميمة في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِ، أَيْسَأَلُكَ مَنْ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَنْ يُسْمِعَهُمْ كَافً فِي آذَانِهِمْ وَقُرْآنًا فَتَسْتَرْهُ يَعَذَابُ أَلِيمٌ﴾

[القمان: ٧].

دلالة لفظ التولي:

- في اللغة:

ولى الشيء وتولى: أدير. وولى عنه: أعرض عنه أو نأى^(٣).

« وقد يكون وليت الشيء ووليت عنه بمعنى. وفي التهذيب: تكون التولية إقبالاً. ومنه قوله تعالى: ﴿قَوْلِي وَجَهَكَ سَطَرَ أَلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٩] أي: وجه وجهك نحوه وتلقاه، والتولية تكون انصرافاً، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]»^(٤).

- في القرآن الكريم:

قال الراغب: « وقولهم: تولى إذا عدي بنفسه اقتضى معنى الولاية وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال: وليت سمعي كذا ووليت عيني كذا ووليت وجهي كذا أقبلت به

(٢) التحرير والتوير (٢٥/٣٣١).

(١) الكلبيات (ص ٤٠).

(٣) (٤، ٣) اللسان « وتولى ».

عليه. قال الله ﷻ: ﴿ فَلَنَوَلِّسَنَّاكَ قِبَلَهُ رَضَاهَا ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وإذا عدي بـ « عن » لفظاً أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وترك قربه، فمن الأول قوله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ يَتَكْفُرْ فَإِنَّ اللَّهَ بِكُفْرِهِمْ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المائدة: ٥٦]، ومن الثاني قوله: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْرِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٣]، ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكُفَّرَ ﴾ [الغاشية: ٢٣].

والتولي قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والانتصار. قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠] أي لا تفعلوا ما فعل الموصوفون بقوله: ﴿ وَأَسْتَفْتُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَنْتُمْ كَرُّوا أَسْتَكْبَرُوا ﴾ [نوح: ٧].

ويقال: ولاء دبره إذا انهزم. وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ أَلْأَدْبَارَ ﴾ [آل عمران: ١١١]^(١).

دلالة ضميمة: ﴿ وَلَنْ مُسْتَكْبِرًا ﴾ في الآية:

- تدل هذه الضميمة على أن إعراض ذلك الذي يشتري لهو الحديث عن آيات الله، إنما هو إعراض استكبار لا إعراض تفريط في الخير فحسب؛ لذلك شبهه الله في الآية بالذي لا يسمع الآيات التي تلى عليه، ووجه الشبه هو عدم التأثر ولو تأثراً يعقبه إعراض كتأثر الوليد بن المغيرة^(٢). في هذا إشارة إلى أن من يسمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها.

- تدل الضميمة أيضاً على أن المتصف بها يعرض عن الحق فور السماع به. فهو لا يترث ولا يتأمل فيما تلى عليه حتى يكتشف وجه الصواب فيه، إنما يسرع إلى الإعراض وتأخذ العزة بنفسه على ترك الاستجابة.

- إعراض المتولي لم يكن بحجة إذا لم يثبت أدنى شبهة حول صدق الرسالة تصرفه عن الإيمان بها، إنما كان الإعراض منه تكبراً وأنفة.

- ﴿ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾:

وردت هذه الضميمة في قوله تعالى: ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أُمَّةٍ رِسَالَهَا إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿ يَتَّبِعُ مَا آتَى اللَّهُ نَزْلًا عَلَيْهِ نَزَّامًا ﴾ [الأنعام: ١١١]، ﴿ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً مِمَّا يَدَّبَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٨٠، ٧].

(١) المفردات ١، رلى ٤، وانظر: الكلبيات (ص ٢٨، ٣٠٩).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٤٤/٢١).

دلالة لفظ « الإصرار »:

سبق أن تناولنا ذلك في دراستنا لعلاقة الاستكبار بالإصرار في الفصل الثاني من الباب الأول^(١).

دلالة الضميمة في الآية:

- هذه الضميمة حال من المضممر المرفوع في « يصر » تقديره: ثم يصر على الكفر بآيات الله في حال تكبره.

- يدل هذا المركب الإضافي على أن ذلك الأفك الأثيم عندما تعرض عليه آيات الله ليؤمن بها، يقيم على كفره وباطله متعظماً عند نفسه عن الانقياد للحق، وإنما يفعل ذلك لأن الرسالة لا توافق هواه، ولا تسير مع مألوفه، ولا تعاونه على باطله ولا تقره على شره ولا تمشى له مع اتجاه!

المستكبرون

وردت هذه الصيغة أربع مرات في القرآن الكريم.

- ﴿إِنَّهَا كُذِّبَتْ بِاللَّهِ وَرَبِّكَ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٣﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُغِيبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٣، ٢٤].

- ﴿حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٢٥﴾ لَا تَجْعَلُوا آلَئِكُمْ يَتَّبِعُوا لَكُمْ قِيْلًا لَتَصْرُونَّ ﴿٢٦﴾﴾ فَذَكَاتٌ آتَيْنِي لَنْتُنَّ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَعْقَبِكُمْ نَنْكِبُونَ ﴿٢٧﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٧].

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَلَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المنافقون: ٥٠].

١ - الصفات:

جاء هذا المشتق في كل موارد واصفًا لا موصوفًا؛ ففي النص الأول وصف به الذين لا يؤمنون بالآخرة، وفي النص الثاني وصف به المترفون، أما في النص الثالث فوصف به المنافقون.

- مفهوم « الذين لا يؤمنون بالآخرة »:

هم الكفار الذين لا يصدقون بالبعث والمعاد إلى الله بعد الممات.

قال أبو حيان: « ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة مبالغة في نسبة الكفر إليهم، إذ عدم التصديق بالجزاء في الآخرة يتضمن التكذيب بالله تعالى وبالبعث إذ من آمن بالبعث يستحيل أن يكذب الله ﷻ »^(١).

- مفهوم المترفين:

« الترف: التمتع، والترفة النعمة. والمترف: الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش. وأترفه النعمة أي: أطعته ».

والمراد بالمترفين في الآية المتنعمون من كفار قريش، المستغفرون في المتاع والانحراف والذهول عن المصير أو المراد بهم الرؤساء والقادة منهم^(٢).

- مفهوم المنافقين:

المنافق: إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب^(٣). قال الحرالي: « المنافق من يضم الكفر اعتقادًا ويظهر الإيمان قولاً »^(٤).

والمقصود بالمنافقين في النص أولئك الذين عاشوا مع النبي ﷺ في المدينة. بين الله تعالى أخلاقهم وصفاتهم الذميمة وأظهرها الكذب، ومخالفة الظاهر للباطن، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم، فهم بتظاهرهم بالإسلام يصدون الناس عن دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله الكفار، المعلمين لكفرهم؛ لذلك كان خطرهم أعظم وضررهم أكبر. وهم مع ذلك يفرضون أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ استكبارًا واستعلاء.

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: « قيل لعبد الله بن أبي: لو أتيت النبي ﷺ، فاستغفر لك، فجعل يلوي رأسه، فنزلت فيه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٥]»^(٥).

(١) البحر المحيط (٦/٥١٨).

(٢) انظر: فتح القدير (٣/٤٨٩)، وفي ظلال القرآن (٤/٢٤٧٣)، والتحرير والتنوير (١٨/٨٢).

(٣) التعريفات (١/٣١١).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (ص ٦٨١).

(٥) جامع البيان (٢٨/١٠٨).

٢ - العلاقات:

- التعاطف:

عطف مشتق « المستكبرون » في النصوص الثلاثة على ثلاثة مصطلحات، هي: الإنكار والنكوص والصد.

- الإنكار:

وردت هذه العلاقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَرِهُوا إِلَهًا وَجَدُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبَهُمْ مُنْكَرًا وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

مفهوم الإنكار:

نَكَرَ فلان الأمر كفرح نَكَرًا محرّكة ونُكِرًا ونُكُورًا بضمها ونكيرًا، وأنكره واستنكره وتناكره: جهله^(١).

يقال: أنكر الشيء ونكره واستنكره، وقيل: نكر أبلغ من أنكر. وقيل: نكر بالقلب وأنكر بالعين^(٢).

والإنكار: الجحود^(٣)، وهو ضد العرفان^(٤). « وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل... وقد يستعمل ذلك فيما ينكر باللسان. وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب، لكن ربما ينكر اللسان الشيء وصورته في القلب حاصلة، ويكون في ذلك كاذبًا^(٥) ».

قال الكفوي: « الإنكار: ثلاثيه فيما يرى بالبصر، ورباعيه فيما لا يرى من المعاني، وإنكار الشيء قطعًا أو ظنًا إنما يتجه إذا ظهر امتناعه بحسب النوع أو الشخص أو بحث عما يدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد^(٦) ».

ومعنى ﴿قُلُوبَهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ في الآية، أي جاحدة بما هو واقع، استعمل الإنكار في جحد الأمر الواقع لأنه ضد الإقرار، فحذف متعلق « منكرة » لدلالة المقام عليه، أي منكرة للوحداية^(٧).

(١) القاموس المحيط • نكر ١.

(٢) اللسان • نكر ١.

(٣) المفردات • نكر ١، والتوقيف على مهمات التعاريف (ص ١٠١).

(٤) المفردات • نكر ٢.

(٥) الكليات (ص ٢٠٠).

(٦) التحرير والتنوير (١٤/١٢٨).

وإسناد الإنكار إلى القلوب لأنها محلها، وهو أبلغ من إسناده إليهم. ولعل الله ﷻ لم يفعل ذلك حين أسند إليهم الاستكبار؛ لأنه أثر ظاهر.

وقد قال بعض العلماء: كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر فإنه فسق يلزمه الإعلان^(١).

« والمعنى: أن الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العقاب الدائم إذا أسمعوا الدلائل والترغيب والترهيب؛ خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعون، فلا جرم يتفهمون بسماع الدلائل، ويرجعون من الباطل إلى الحق.

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فإنهم لا يرغبون في حصول الثواب ولا يرهبون من الوقوع في العقاب، فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم، ويستكبرون عن الرجوع إلى قول غيرهم، فلا جرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال^(٢).

وجيء بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿ قُلُوبُهُمْ مُّكْرَمَةٌ ﴾ للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم دائم، لاستمرارهم على الإنكار بعدما تبين من الأدلة. وذلك يفيد أن الإنكار صار لهم سجية، وتمكن من نفوسهم؛ لأنهم ضروا به من حيث إنهم لا يؤمنون بالآخرة فاعتادوا عدم التبصر في العواقب^(٣).

وكذلك جملة: ﴿ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ بنيت على الاسمية للدلالة على تمكن الاستكبار منهم^(٤).

- النكوص:

في قوله تعالى: ﴿ حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مَتْرَفِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴾ ﴿ لَا تَجْتَرُوا يَوْمَ الْإِنكَارِ ﴾ ﴿ لَا تُصْرَعُونَ ﴾ ﴿ فَذَكَاتَ مَا بَيْنِي نَسَلٍ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَهْقَابِكُمْ تَنكَبُونَ ﴾ ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٧].

(١) روح المعاني (١٤/١٢١)، وانظر: البحر المحيط (٦/٥١٨، ٥١٩)، والجامع لأحكام القرآن (١٠/٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/١٧).

(٣) (٤٠٣) التحرير والتوير (١٤/١٢٨).

مفهوم النكوص:

- في اللغة:

« النون والكاف والصاد كلمة، يقال: نكص على عقبيه، إذا أحجم عن الشيء خوفاً وجبنًا. قال ابن دريد: نكص على عقبيه: رجع عما كان عليه من خير، لا يقال إلا في الرجوع عن الخير^(١). »

تقول: نكص عن الأمر ينكص وتنكص نكصًا ونكوصًا: أحجم^(٢).

والنكوص: الإحجام عن الشيء والرجوع عنه. ونكص هو وأنكصه غيره. والنكيسة: التأخر عن الشيء^(٣).

- في القرآن الكريم:

ورد لفظ النكوص في القرآن الكريم مرتين؛ مرة في سورة « الأنفال » في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ أَفْسَانًا نَّكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨]. ومرة في سورة « المؤمنون »، محل بحثنا في هذا الركن.

والآية الأولى مدنية تعرض لخدلان الشيطان للكفار يوم بدر وانفصاله عنهم، بعد أن وعدهم - كذبًا - النصر على المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

والآية الثانية مكية تحدث عن عذاب الله لمرتفي قريش، جزاء إعراضهم عن آيات الله واستكبارهم عنها.

ومعنى النكوص في الآيتين: هو الرجوع والإعراض؛ ففي الآية الأولى رجع إبليس - لعنه الله - عن مساندة الكفار ونصرتهم ولم يكتف بالفعل حتى أكد ذلك بالقول. وفي الآية الثانية استعير اللفظ للدلالة على إعراض مرتفي قريش عن الحق.

وجيء بفعل « كتتم » للدلالة على أن ذلك شأنهم. وذكر المضارع في « تنكصون » للدلالة على التكرار، فذلك خلق منهم معاد مكرور^(٤). و « مستكبرين » حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه.

(١) المقاييس « نكص »، وانظر: العين « نكص »، واللسان « نكص »، والصحاح « نكص »، والقاموس المحيط « نكص ».

(٢) اللسان « نكص ».

(٣) العين « نكص ».

(٤) التحرير والتنوير (١٨ / ٨٥).

- الصد:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ
وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

مفهوم الصد:

- في اللغة:

الصد: الإعراض والصدود. صد عنه يصدُّ ويصدُّ صدًّا وصدودًا: أعرض... ويقال: صدّه عن الأمر يصدّه صدًّا: منعه وصرفه عنه^(١).

« وما صدك عني؟ ولم تصد عني؟ وفلان مصدود عن الخير ورأى فيك صدودًا وازورارًا. وأخذ يصاده ويضاده. ولا صدد لي دونه. أي لا مانع من صدّه عنه... ومن المجاز: صد السبيل: إذا اعترض دونه مانع عن عقبه أو غيرها فأخذت في غيره^(٢).

وأضاف الخليل معنى آخر للصد، وهو شدة الضحك والجلبة، مستشهدًا بقوله تعالى في الزخرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾^(٣).

- في القرآن الكريم:

ورد مصطلح «الصد» و«الصدود» في القرآن الكريم واحدًا وأربعين مرة. ورد واحدًا وعشرين مرة (٢١) في السور المكية، وعشرين مرة (٢٠) في السور المدنية. ومن حيث شكل الورد، ورد فعلاً مضارعًا عشرين مرة (٢٠)، وماضيًا ست عشرة مرة (١٦)، ولم يرد المصطلح مصدرًا إلا ثلاث مرات (٣)، وجاء مبنياً للمجهول مرتين (٢).

والصد والصدود في القرآن الكريم إما أن يكون انصرافًا عن الشيء وامتناعًا، نحو قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] وهو هنا يستعمل لازماً. وقد يستعمل متعديًا، بمعنى الصرف والمنع نحو قوله تعالى: ﴿وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

وجاء الصد في الآية الكريمة بصيغة الفعل المضارع المسند للجمع، وهو جملة

(١) اللسان «صد»، وانظر: الصحاح «صد»، والقاموس المحيط «صد».

(٢) أساس البلاغة «صد».

(٣) العين «صد».

حالية، ووجه صوغه مضارعاً للدلالة على استمرار المنافقين على هذا الفعل وتجده منهم.

أما الاستكبار فجاء اسم فاعل مسند للجمع، وجملة ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿يَصِيدُونَ﴾ أي يصدون صد المتكبر عن طلب الاستغفار، أي ورأيتهم صادين مستكبرين^(١).
يقول الشهيد سيد قطب - رحمه الله -:

« فهم يفعلون الفعلية ويطلقون القولة، فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ﷺ جنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالآيمان يتخذونها جنة، فإذا قال لهم قائل: تعالوا يستغفروا لكم رسول الله وهم في أمن من مواجهته، لووا رؤوسهم ترفعاً واستكباراً! وهذه وتلك سمتان متلازمان في النفس المنافقة. وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام، ولكنهم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة، فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمان من المواجهة حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والآيمان! »^(٢).

٣ - الضمائم:

- ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٦﴾ لَا يَجْعَلُونَ الْيَوْمَ بِنَا لَأَنْصُرُونَ ﴿٦٧﴾ فَذَكَاتَ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ ﴿٦٨﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْتَجِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٦٧].

المقصود في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ هو البيت الحرام، كما قال جمهور المفسرين^(٣). قال ابن عطية - رحمه الله - : « قال الجمهور: هو عائد على الحرم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته في الأمر »^(٤).

(١) التحرير والتنوير (٢٨/٢٤٤).

(٢) انظر: جامع البيان (١٨/٣٨)، والمحزر الوجيز (٤/١٤٩)، والبحر المحيط (٧/٢٧٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٢/١٣٦)، وتفسير القرآن العظيم (٣/٢٢٢)، وفتح القدير (٣/٤٩٠)، وروح المعاني (١٨/٤٩).

(٤) المحزر الوجيز (٤/١٤٩).

دلالة الضميمة في الآية الكريمة:

معنى الضميمة أن مترفي قريش كانوا يعتقدون في أنفسهم أن لهم بالبيت الحرام حقوقاً أعظم وأكثر من غيرهم، ولهم منازل عند الله ليست لغيرهم؛ لأنهم خدامه وولاته والقائمون عليه، لذلك فهم يتكبرون به على سائر الناس.

وفي هذه الضميمة إنحاء من الله تعالى عليهم. قال الشيخ الطاهر ابن عاشور: وفيه إنحاء عليهم في استكبارهم، وفي كون استكبارهم في ذلك الموضع الذي أمر الله أن يكون مظهرًا للتواضع ومكارم الأخلاق، فالاستكبار في الموضع الذي شأن القائم فيه أن يكون قائمًا لله حينئذ أشنع استكبار^(١).

المتكبر

وذلك في موضعين هما:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾

[غانر: ٢٧].

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غانر: ٣٥].

١ - التعريف:

المتكبر هو الذي يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة إلا لنفسه، فيدفعه هذا الشعور إلى التعظم عن قبول دعوة الرسل بعبادة الله تعالى.

٢ - الصفات:

جاء هذا المشتق واصفًا وموصوفًا.

ففي النص الأول وصف المتكبر بأنه لا يؤمن بيوم الحساب وجعلت هذه الصفة مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك لأنها تتضمن الإشراك وزيادة، لأنه إذا اجتمع في المرء التجبر والتكذيب بالجزاء قلَّت مبالاته بعواقب أعماله، فكمملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس^(٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢٧/٢٤).

(١) التحرير والتنوير (٨٦/١٨).

قال الإمام الرازي: « إن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران: أحدهما: كون الإنسان متكبراً قاسي القلب.

والثاني: كونه منكراً للبعث والقيامة؛ وذلك لأن المتكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقراً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجري على موجب تكبره. فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلاً، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلاً فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء»^(١).

وفي النص الثاني جاء المشتق واصفاً والموصوف هو القلب. وسنعرض لطبيعة ذلك في دراستنا لضميمة « قلب متكبر ».

٣ - العلاقات:

لمشتق « المتكبر » علاقة ائتلاف مع لفظ « جبار » في النص الثاني:

- مفهوم « جبار »:

« الجيم والباء والراء أصل واحد، وهو جنس من العظمة والعلو والاستقامة »^(٢).

والجبر: الاسم، وهو أن تجبر إنساناً على ما لا يريد وتكرهه جبرية على كذا^(٣).

والله تبارك وتعالى: الجبار العزيز، أي قهر خلقه، فلا يملكون منه أمراً وله التجبر وهو التعظم. والجبار: العاني على ربه. القتال لرعيته.

والجبار من الناس: العظيم في نفسه الذي لا يقبل موعظة أحد.

وقلب الجبار الذي قد دخله الكبر لا يقبل موعظة^(٤).

قال الراغب: « والجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من العالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم كقوله ﷻ: ﴿ وَحَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣٢]، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢]، وقوله ﷻ: ﴿ كَذَلِكَ يَطْمَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥] أي متعالٍ عن قبول الحق والإيمان له. ويقال للقاهر غيره جبار نحو:

(١) مفاتيح الغيب (٢٧ / ٥٧).

(٢) المفاتيح جبر ٩.

(٣، ٤) العين جبر ٩.

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ [ق: ٤٥] (١).

وجاء لفظ « متكبر » ولفظ « جبار » صفتين متلازمتين للقلب في الآية الكريمة. ووصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه مركزهما ومنبعهما (٢).

قال الرازي: « قال مقاتل: (متكبر) عن قبول التوحيد (جبار) في غير الحق. وأقول: كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله. فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله، والله أعلم » (٣).

٤ - الضمائم:

- ﴿ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ ﴾:

ضم لفظ « متكبر » إلى لفظ « القلب » في موضع واحد، هو قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُتُبٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطَّعُّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

قرأ الجمهور: ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ ﴾ بإضافة ﴿ قَلْبٍ ﴾ إلى ﴿ مُتَكَبِّرٍ ﴾ (٤).

مفهوم القلب:

- في اللغة:

« القاف واللام والباء أصلان صحيحان: أحدهما: يدل على خالص شيء وشريفه، والآخر: على رد شيء من جهة إلى جهة.

فالأول القلب: قلب الإنسان وغيره؛ سمي لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه. وخالص كل شيء وأشرفه قلبه » (٥).

وقال الراغب: « وقلب الإنسان قيل سمي به لكثرة قلبه، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك » (٦).

(٢) انظر: الكشاف (٣/ ٣٢٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٤٥).

(١) المفردات « جبر ».

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٤).

(٥) المقاييس « قلب ».

(٦) المفردات « قلب ».

- في القرآن الكريم:

ورد القلب في القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ^(١):

الأول: بمعنى العقل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴿

[ق: ٣٧].

الثاني: بمعنى الرأي والتدبير: ﴿وَقُلُوبُهُمْ سَتَىٰ ﴿ [الحشر: ١٤] أي آراؤهم مختلفة.

الثالث: بمعنى حقيقة القلب الذي في الصدر، كقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي

فِي الصُّدُورِ ﴿ [الحج: ٤٦].

دلالة ضمنية « قلب متكبر » في الآية:

- وصف القلب بالتكبر لأنه مركزه ومنبعه، كما تقول: رأيت العين وسمعت الأذن. فهو من أفعال القلوب، فالله تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب، فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعو إلى الطاعة والانقياد لأمر الله والتعظيم له.

« فمتكبر نعت للقلب، فكنتى بالقلب على الجملة؛ لأن القلب هو الذي يتكبر وسائر الأعضاء تبع له؛ ولهذا قال النبي ﷺ: « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »^(٢) «^(٣).

فمتى تكبر القلب تكبر صاحبه وبالعكس.

- وقال الطبري: « التكبر فعل الفاعل بقلبه كما أن القاتل إذا قتل قتيلاً وإن كان قتله بيده فإن الفعل مضاف إليه، وإنما القلب جارحة من جوارح المتكبر وإن كان بها التكبر، فإن الفعل إلى فاعله مضاف... فالعرب لا تمنع أن تقول: بطشت يد فلان ورأت عيناه كذا وفهم قلبه، فتضيف الأفعال إلى الجوارح وإن كانت في الحقيقة لأصحابها »^(٤).

- ومعنى تكبر القلب: قسوته، لأنه إذا قسا ترك طاعة الله^(٥). فلا يعقل الرشاد ولا يقبل

الحق.

(١) بصائر ذوي التمييز (٢٨٩/٤).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٢٨/١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣١٤/١٥).

(٤) جامع البيان (٦٤/٢٤).

(٥) الحجّة في القراءات السبع (٣١٤/١).

المتكبرون

ورد هذا المشتق في النصوص الآتية:

﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا النَّارَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَوُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَمَنْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَتَوَفَّيْتَهُمْ بِعِلْمِكُمْ ﴿٧٣﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٤﴾ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّو تَرَكُنَّ نَدْعُوهُ مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٧٨﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَمَنْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٩﴾ [عافر: ٧٠-٧٦].

١ - الصفات:

جاء المشتق في كل مواده واصفاً والموصوف به هم الكافرون. ففي النص الأول بين المولى ﷺ مصير أولئك الجاحدين في مكة الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يرد وتدبيرهم لا يخيب والله من ورائهم محيط، فتقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله؛ إذ ذاك يستسلمون ويتقادون عند الموت على خلاف عاداتهم في الدنيا من العناد والمكابرة.

وفي النص الثاني وصف به الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك والولد له سبحانه وعبدوا آلهة من دون الله. وهم من قوم سيدنا محمد ﷺ^(١).

(١) انظر: جامع البيان (٢٤/٢٢)، ومجمع البيان (٢٤/١٦٧)، والمحزر الوجيز (٤/٥٣٩)، وتفسير القرآن العظيم (٤/٥٣).

والنص الثالث عام في كل الكافرين « وفي التعبير بالمتكبرين إيماء إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسول المنذرين عليهم الصلاة والسلام، وهو في معنى التعليل بالكفر، ولا ينافي تعليل ذلك بسبق كلمة العذاب عليهم؛ لأن حكمة الله وقضائه سبحانه عليهم بدخول النار ليس إلا بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له سبحانه في الأزل »^(١).

أما في النص الرابع فالمتكبرون هم أولئك المكابرون، الذين يجادلون في آيات الله الواضحة والذين كذبوا بالقرآن وبساتر الكتب والشرائع السماوية. قال الإمام الطاهر ابن عاشور: « والمراد بالمتكبرين: المخاطبون ابتداءً؛ لأنهم جادلوا في آيات الله عن كبر في صدورهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقْعِرْ سُرْطَانِي عَنْهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْقِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦] ولأن تكبرهم من فرحهم. وإنما عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر وهو « المتكبرين » للإشارة إلى أن من أسباب وقوعهم في النار تكبرهم على الرسل، وليكون لكل موصوف بالكبر حظ من استحقاق العقاب إذا لم يتب ولم تغلب حسناته على سيئاته إن كان من أهل الإيمان »^(٢).

٢ - الضمائم:

- ﴿ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ، ﴿ مَتَوَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ :

وردت هذه الضميمة في جميع النصوص الأربعة التي ورد فيها مشتق « المتكبرين » مفهوم « المتوى »:

« الثاء والواو والياء كلمة واحدة صحيحة تدل على الإقامة، يقال: توى يثوي فهو ثاو. وقال الشاعر:

أذنتنا بيبينها أسماء رب ثاويمل منه الشواء^(٣)

والشواء: طول المقام^(٤). تقول: توى المكان وبه، يثوي ثواء وثوياً بالضم وأثوى به: أطلال الإقامة به^(٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤ / ٢٠٧).

(٤) العين « توى ».

(١) روح المعاني (٢٤ / ٣٢ ، ٣٣).

(٣) المقاييس « توى ».

(٥) ترتيب القاموس المحيط « ثوى ».

قال الراغب: الثواء: الإقامة مع الاستقرار^(١)، وقال الخليل: المثنوى: الموضع^(٢).

دلالة ضميمه ﴿ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، ﴿ مَثْوَى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ في الآيات:

« المثنوى » في الآيات الكريمة هو جهنم، سميت بذلك لأن المتكبرين باستكبارهم على الله وصددهم عن رسالات الأنبياء اقترفوا جرماً عظيماً استحقوا به خلوداً وإقامة في نار جهنم؛ لذلك عبر المولى ﷺ عن جهنم بالمثنوى لدلالة اللفظ على الخلود والإقامة. فالمثنوى هي محل الثواء، والثواء هو الإقامة الدائمة. لذلك أُوثر لفظ « مثنوى » في الآيات عوض لفظ « مدخل » رغم أن السياق يناسبه بقوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا ﴾ لأن المثنوى أدل على الخلود، فهو أولى بمساءتهم^(٣).

- هؤلاء المتكبرون « يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها^(٤) ».

وذكرهم سبحانه بعنوان التكبر للإشعار بعليته لثوابهم فيها^(٥).

كبراء

ورد هذا المشتق في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُجَادُونَ لِإِيْسَىٰ وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَانَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيْلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي ضَعِفَتِي مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِمْ لَعْنَا كِبِرًا ﴿٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٨].

١ - التعريف:

الكبراء هم قادة الكفار الذين كانوا يمثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم.

٢ - العلاقات:

- الترادف:

في النص ترادف بين مشتق « كبراء » ولفظ « سادة » في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَانَنَا ﴾.

(١) المفردات « ثوى ».

(٢) العين « ثوى ».

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢٠٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢ / ٥٦٨).

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم (٥ / ١٠٩).

- مفهوم « السيد »:

قال الراغب: « والسيد المتولي للسواد أي الجماعة الكثيرة، وينسب إلى ذلك فيقال: سيد القوم ولا يقال سيد الثوب وسيد الفرس، ويقال: ساد القوم يسودهم. ولما كان من شرط المتولي للجماعة أن يكون مهذب النفس، قيل لكل من كان فاضلاً في نفسه سيد. وعلى ذلك قوله: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقوله: ﴿ وَالْفِيَا سَيِّدَهَا ﴾ [يوسف: ٢٥] فسمي الزوج سيِّداً لسياسة زوجته. وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاتَنَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧] أي ولاتنا وسائسنا»^(١).

وجاء اللفظان في سياق ذكر طاعة الكفار سادتهم وكبراءهم مقابل ما تمنوه من إطاعة الله ورسوله، حينما ذاقوا عذاب النار.

« والتعبير عنهما بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة، وقدموا في ذلك إطاعة السادة لما أنه كان لهم قوة البطش بهم لو لم يطيعوهم فكان ذلك أحق بالتقديم في مقام الاعتذار وطلب التشفّي»^(٢).

« وهذا شأن الدهماء أن يسودوا عليهم من يعجبون بأضغاث أحلامه ويفرون بمعسول كلامه ويسرون على وقع أقدامه، حتى إذا اجتنا ثمار أكمامه، وذاقوا مرارة طعمه وحرارة أوامه عادوا عليه باللائمة، وهم الأحقاء بلامه»^(٣).

أكابر

ورد هذا المشتق في قوله تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِينَ كَثِيرٌ مُّجْرِمِينَ كَانُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

١ - مفهوم « أكابر »:

أكابر جمع أكبر وكابر وهم العظماء والسادة. والكابر: السيد أو الجد الأكبر^(٤). يقال: ورثوا المجد كابرًا عن كابر، أي عظيمًا وكبيرًا عن كبير في العز والشرف^(٥)، والكابر: الكبير^(٦).

(٢) روح المعاني (٢٢/٩٣).

(٤) اللسان « كبر ».

(٦) القاموس المحيط « كبر ».

(١) المفردات « سود ».

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/١١٨).

(٥) التهذيب « كبر »، واللسان « كبر ».

٢ - الضمائم:

- ﴿ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا ﴾:

دلالة لفظ « مجرم »:

أصل الجرم: قطع الثمرة عن الشجر ثم استعير لاكتساب أي مكروه.

والجرم والجريمة: الذنب، وهو من الأول؛ لأنه كسب، والكسب اقتطاع^(١). وهو:

جرم يجرم جرماً واجترم وأجرم فهو مجرم وجريم^(٢).

والمجرم: المذنب^(٣).

ومعنى: « المجرمين » في الآية هم أهل الشرك بالله والمعصية له. المفسدون في

الأرض بغدرهم ومكرهم وعدائهم للرسول وإذابتهم للمؤمنين^(٤).

وقال الكفوي: « كل مجرم في القرآن فالمراد به الكافر »^(٥).

دلالة ضميمة « أكابر مجرميها » في الآية:

- هذه الضميمة فيها تقديم وتأخير، تقديره: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها

أكابر، وقدم الأهم؛ إذ لعل كبرهم أجزموا^(٦).

- والأكابر المجرمين هم رؤساء الأقوام وعظماؤهم، أهل الشرك بالله، والداعون إلى

الكفر به والصد عن سبيله. وإنما خصهم المولى ﷺ بالذكر دون غيرهم؛ لأنهم الحاملون

الناس على الضلال والماكرون بهم. فهم أقدر بما لديهم من سلطان وقوة على استتباع

الدهماء من الناس وضعاف النفوس منهم والمكرب بهم. إنهم الأقدر على الفساد والإفساد

دون غيرهم. لذلك وصفهم الله في الآية بالمكرب.

« والمراد بالمكرب هنا تحصيل زعماء المشركين على الناس في صرفهم عن النبي ﷺ

وعن متابعة الإسلام »^(٧).

(١) المقاييس « جرم »، والمفردات « جرم ».

(٢) اللسان « جرم ».

(٣) العين « جرم ».

(٤) انظر: جامع البيان (٢٤/٨)، والجامع لأحكام القرآن (٧٩/٧)، والبحر المحيط (٤/٦٣٥)، ومفاتيح الغيب

(١٣/١٨٣، ١٨٤)، وفي ظلال القرآن (٣/١٢٠٢).

(٥) الكلمات (ص ٨٠٢).

(٦) انظر: المحرر الوجيز (٢/٣٤١).

(٧) التحرير والتنوير (٨/٥٠).

قال مجاهد رضي الله عنه: « كانوا يجلسون على كل عقبة أربعة ينفرون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم ^(١) ».



الْمِجَّتُ الثَّانِي

مشتقات الاستضعاف

أمكن حصر هذه المشتقات في الصيغ الآتية:

- صيغة اسم المفعول: « المستضعفون ».

- صيغة المبالغة: « ضعيف ».

- صيغة المبالغة للجمع: « الضعفاء ».

المستضعفون

ورد هذا المشتق في النصوص الآتية:

- ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الظَّالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَلْجَرُوا فِيهَا فَاوَلَتْكَ مَاوَدُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٦﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ فَاوَلَتْكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَمْفُوهُمُ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

- ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوَفُّوهُنَّ مَا كَتَبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧].

- ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بَصِيرَةً. وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

١ - التعريف:

المستضعفون هم أولئك الذين يستذلهم غيرهم لضعفهم أو لتمسكهم بدينهم، لفتنتهم وصددهم عنه.

٢ - شرح التعريف:

- قولنا: « يستذلهم غيرهم » يعني أن الاستضعاف ليس صفة بقدر ما هو فعل ممارس من بعض الناس على البعض الآخر. وكون أولئك مستضعفين معناه أن غيرهم يستذلونهم ويحتقرونهم ويسومونهم سوء العذاب.

- قولنا: « لضعفهم أو لتمسكهم بدينهم » بيان لسبب الاستضعاف وهو الضعف أو التمسك بالدين.

فأما الضعف فينقسم إلى قسمين: ضعف مادي يتمثل في الفقر ورثانة الحال وضعف البدن كما هو حال زمني الرجال وضعفة النساء والولدان. وضعف معنوي يتجلى في ضعف الهمة وانعدام النخوة والرضا بالذل والاستعباد.

أما التمسك بالدين فيدل عليه ما وقع للمسلمين الأوائل بمكة من استضعاف بسبب تمسكهم بالدين الجديد ورفضهم التخلي عنه. فعاشوا المحنة في عقيدتهم التي هي « أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض؛ لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني الذي تتبعه كرامة النفس والعرض وحق المال والأرض »^(١).

- وقولنا: « لفتنتهم وصددهم عنه » بيان لهدف المستضعفين الذي هو بالإضافة إلى الاضطهاد في الرزق وفي المقومات الأرضية اضطهاد في العقيدة والشرع. لقد قصد أولئك أن يحولوا بين المستضعفين وبين عقيدة الإسلام التي تحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله.

٣ - الصفات:

جاء هذا المشتق في كل النصوص واصفًا، والموصوف به في جل الموارد هم المسلمون الذين كانوا بمكة تحت إذلال كفرة قريش وأذاهم، لا يستطيعون الهجرة

(١) في ظلال القرآن (٢/٧٠٨).

ولا تطيب لهم على الأذى إقامة^(١).

وفيهم قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسُلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعِيَاشَ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»^(٢).

وقال ابن عباس: «كنت أنا وأمي من المستضعفين أنا من الولدان وأمي من النساء»^(٣). ونفى الله تعالى في الآية السابعة والتسعين من سورة النساء صفة الاستضعاف عن أولئك الذين بإمكانهم الهجرة ولم يهاجروا مع المسلمين خوفاً على مصالحهم وأموالهم وأنفسهم رغم أنهم كانوا يستطيعون الحيل ويهتدون السبيل.

٤ - الضمائم:

يمكن تحديد ضميمتين في كل موارد المشتق وهما:

«مستضعفون في الأرض» و«قليل مستضعفون» وكلاهما تمت دراستهما في فصل «الضمائم» فليُنظر^(٤).

الضعيف

ورد هذا المشتق أربع مرات في القرآن الكريم^(٥) ونص واحد فقط هو الذي له علاقة بموضوع الاستضعاف، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَعُهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّنَاكَ مِنَّا ضَعِيفًا لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ [هود: ٩١].

١ - التعريف:

الضعيف هو الذي لا قوة له ولا منعة. فلا يقدر على الامتناع من غيره إن أَرَادَهُ بِمَكْرُوهِهِ.

(١) انظر: الكشاف (١/٥٤١ - ٥٤٣)، والمحرم الوجيز (٢/٧٨، ٧٩)، والبحر المحيط (٣/٧١٠، ٧١١)، ومفاتيح الغيب (١٧٨/١٠)، وإرشاد العقل السليم (٢/٢٠٢)، والجامع لأحكام القرآن (٥/٢٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستقفاء، باب: الاستقفاء وخروج النبي ﷺ في الاستقفاء (١/٣٤١)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة بالمسلمين (١/٤٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصل عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١/٥٥٥).

(٤) بالنسبة لـ «المستضعفون في الأرض» انظر (ص ١٧١)، وبالنسبة لـ «قليل مستضعفون» انظر (ص ١٧٣).

(٥) البقرة: ٢٨٢، والنساء: ٢٨، ٧٦، هود: ٩١.

٢ - الصفات:

جاء هذا المشتق في الآية واصفاً والموصوف به هو نبي الله ﷺ، فقد عده قومه ضعيفاً لا قوة له ولا قدرة على رد إذابتهم.

قال الرازي: « والنوع الثاني من الأشياء التي ذكروها قولهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِتْنًا ضَعِيفًا ﴾ . وفيه وجهان:

الأول: أنه الضعيف الذي يتعذر عليه منع القوم عن نفسه.

والثاني: إن الضعيف هو الأعمى بلغة حمير. واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه: الأول: أنه ترك للظاهر من غير دليل، والثاني: أن قوله: ﴿ فِتْنًا ﴾ يبطل هذا الوجه، ألا ترى أنه لو قال: إنا لنراك أعمى فينا كان فاسداً؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم. الثالث: أنهم قالوا بعد ذلك: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ فنفوا عنه القوة التي أثبتوها في رهطك، ولما كان المراد بالقوة التي أثبتوها للرهط هي النصر، وجب أن تكون القوة التي نفوها عنه هي النصر^(١).

٣ - العلاقات:

لمشتق « ضعيف » في الآية علاقة اختلاف مع لفظ « عزيز ».

- مفهوم لفظ « عزيز »:

« العين والزاء أصل صحيح واحد يدل على شدة وقوة وما ضاهاهما من غلبة وقهر^(٢) ».

والعز في الأصل: القوة والشدة والغلبة. والعز والعزة: الرفعة والامتناع. وعز يعز، بالكسر، عزاً وعزة وعزازة. ورجل عزيز من قوم أعزة وأعزاء وعزاز^(٣). ذو منع لا يغلب ولا يقهر^(٤).

- طبيعة العلاقة بين اللفظين في الآية:

لما قاس قوم شعيب القوة بالمقياس المادي المتمثل في القدرة والعدة والأتباع

(٢) المقياس « عز ».

(١) مفاتيح الغيب (١٨ / ٥٠).

(٣) اللسان « عز ».

والأشياء؛ اعتبروا شعبيًا **الضعفاء**، ضعيفًا. ولما اعتبروا في العزة بعدها المادي فقط نفوها عنه فاستحقروه وسفهاوا كلامه.

فالعزة عندهم بما هي غلبة وقهر، قوة ومنعة وفقدانها مظهر جلي للضعف والاستكانة. فوجودها يتتفي الضعف وبفقدانها يتحقق.

إنهم يؤكدون على دور القوة العددية أو الاجتماعية في تبرير امتناعهم عن القيام برجم شعيب **الضعفاء**؛ لأنه لا يمثل قوة ذاتية. أما هو فيبين لهم خطأ ما ارتكزوا عليه؛ لأن رهنه - مهما بلغت قوتهم - لا يمثلون شيئًا أمام قوة الله وعزته لأنها قوة لا تقف عند حد ولا تنحصر في مجال معين، فمن العقل أن يجعلوا لهذا اعتبارًا في أذهانهم، وأن يتصرفوا وفق ذلك.

الضعفاء

ورد هذا المشتق في القرآن الكريم أربع مرات في أربع آيات^(١).

اقتصرنا في الدراسة على نصين اثنين لعلاقتهما الجلية بموضوع الاستضعاف. وهما قوله تعالى:

﴿ وَبَرُّوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّنا اللَّهُ لَهَدَّيناكُمْ سِوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ عَلَيْنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧].

١ - التعريف:

الضعفاء هم الأتباع الذين رضوا بالذل وخضعوا للقوة الظاهرة التي يمتلكها المستكبرون. يقول الإمام الشهيد سيد قطب في وصفهم: «الضعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله، حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله».

(١) هي: البقرة: ٢٦٦، والتوبة: ٩١، وإبراهيم: ٢١، وغافر: ٤٧.

والضعف ليس عذراً، بل هو الجريمة. فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه، يعتزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائفاً عن نصيبه في الحرية - التي هي ميزته ومناط تكريمه - أو أن ينزل كارهاً. والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ويستمسك بكرامة الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحسه، أما الضمير، أما الروح، أما العقل فلا يملك أحد حبسها ولا استدلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال.

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟

لا أحد، لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء، لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً، كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء، إنما هم ضعفاء؛ لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان! إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة، فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ ومن ذا الذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان!

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أردت، فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان!
إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء، وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة»^(١).

٢ - العلاقات:

- في النصين علاقة تقابل بين لفظ «الضعفاء» و«الذين استكبروا» فالذين استكبروا هم القادة والرؤساء الذين أخضعوا الضعفاء في الدنيا فأصلوهم عن سبيل الرشاد ففضلوا وأضلوا.

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٠٩٦).

- وتؤكد لنا الآيات كيف أن الجميع واجهوا نتائج المسؤولية في عذاب الله، وتصور لنا موقف من أخضعوا إرادتهم لإرادة الآخرين ونزواتهم في وقت كانوا فيه يستطيعون تحرير أنفسهم وإرادتهم منهم، لكنهم خضعوا واستكانوا لمظاهر القوة الزائفة ومطامع المال والجاه التي يملكها المستكبرون، فساروا خلفهم دون وعي أو شعور.

وحين يأخذهم الله بعذابه، يحاول الضعفاء التخلص من بعض قسوته فيتوجهون إلى من كانوا يتبعونهم في الدنيا ليطالبوهم بتحمل تبعاتهم في الآخرة كما تحملوا تبعاتهم في الدنيا؛ حيث كانوا يؤمنون لهم «الحماية» مقابل ما يقدمونه لهم من أعمال ولاء وخضوع. وفي الطرف الآخر، يتصل المستكبرون في موقف هروبي باعتبار الموقف يائسا للطرفين، فهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً فكيف يملكون لهم الحماية؟

فليس في الموقف إلا الاستسلام للمصير الذي يعبر عنه المولى أبلغ تعبير: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾.

مستفادات:

«إن هذه الآيات الكريمة توحى لنا بأن للإنسان حرية مطلقة في ما يرى ويعتقد، وفي ما يأخذ وفي ما يدع. فقد خلقه الله حر التفكير والإرادة، لتتحول الحرية في حياته إلى عقيدة وإيمان وتصميم وعمل.

فليس له أن يتنازل عن حريته للآخرين بحجة ضغطهم عليه؛ لأن القضية قضية تتعلق بالاستعداد الداخلي للخضوع، والانسحاق أمام إرادة الآخرين وتخطيطهم.

وهذا ما لا يملك الآخرون أن يخلقوه بالضغط، بل كل ما يملكونه هو الإغراء والتزيين والتعزير والتخويف... الذي يضعف الإرادة ويوهن القوة ويستعمر الفكر.

وهي ضغوط يمكن للإنسان أن يواجهها ويثبت أمامها بما يحمله من فكر يواجه فيه فكر الآخرين، أو بما يملكه من إرادة يقاوم بها ضغط إرادتهم أو بما رزقه الله من عقل وما أوحى به عليه من رسالات عبر أنبيائه.

فإذا أغفل فكره وأهمل إرادته، وجمد عقله ونسي رسالته، واستسلم لشهواته ورغباته ونقاط ضعفه وأسلم نفسه للطغاة والمستبدين والمنحرفين؛ استحق أن يواجه نتائج ذلك أمام الله...

فسر الحرية في الإسلام، أن يملك الإنسان الخيار في أن يريد أو لا يريد، ولا مانع بعد ذلك من وقوف الحواجز والعقبات بينه وبين تنفيذ ما يريد، أو أن تضغط عليه للقيام بما لا يريد^(١).



الباب الثاني

مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم تفسير موضوعي

ويشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: أسباب الاستكبار والاستضعاف في
القرآن الكريم.

الفصل الثاني: مظاهر الاستكبار والاستضعاف في
القرآن الكريم.

الفصل الثالث: جزاء المستكبرين والمستضعفين
في القرآن الكريم.

الفصل الرابع: سبل مقاومة الاستكبار وعلاج داء
الاستضعاف في القرآن الكريم.

الفصل الأول

أسباب الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أسباب الاستكبار.

المبحث الثاني: أسباب الاستضعاف.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

أسباب الاستكبار

المطلب الأول

التعصب للجنس

يشكل التعصب للجنس أحد الأسباب الرئيسة للاستكبار. وقد ألقت إليه القرآن الكريم في سياق بيانه لموقف إبليس، الذي أمره الله بالسجود لآدم، فعصى الأمر بداعي تفضيل أصله على أصل الإنسان ممثلاً بآدم. فكان بذلك أول من نازع الله رداء الكبرياء ولبس لباس التعزز وخلع فتاع التذلل لله سبحانه، فتعاظمت نفسه الشريرة أمام أمر الله ﷻ، فأدى به ذلك إلى الكفر، ثم الطرد من رحمة الله ﷻ.

لقد تحدث القرآن عن إبليس كقوة مادية مخلوقة من النار، وصوره لنا ككائن متمرد، يعيش في داخله زهو العظمة بالعنصر الذي خلق منه بإزاء الإنسان الذي ينتمي إلى عنصر التراب. فإن النار تنفي التراب وتحرقه؛ ولذا فإنها أعظم منه، مما يجعل لما يتولد منها سر العظمة بالنسبة لما يتولد من الآخر، وهذا ما دفعه إلى التمرد على الله في موضوع الجود التكريمي الذي أحاط به الله خلق آدم، ودوره في الأرض عندما أمر الملائكة بالسجود له^(١).

وقد حدثنا الله تعالى في القرآن الكريم في أكثر من آية عن ذلك، وأفاض في إبراز الملامح الذاتية لإبليس، التي يبدو فيها مخلوقاً مستكبراً ومتمرداً. من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

[البقرة: ٣٤].

وقال: ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١].

وقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَضَلُّمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦].
 وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَلٍ مَّنْثُونٍ ﴿٦٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٦٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٣١].

وقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَتَمَّ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٨١﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهُنَا مِنهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧١-٧٧].

من هذه النصوص نستنتج أن الله سبحانه لم يأمر الملائكة بالسجود لأدم لمادته الأرضية التي سوي منها، وإنما للنفخة التي نفخها الله فيه من روحه، الحاملة للشرف كل الشرف^(١). لكن إبليس لم يلتفت إلى أمره، بل جعل لنفسه رأياً مع النص، وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرى من سبب وعلّة مع وجود الأمر، وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر والاجتهاد، ويبطل التفكير، وتتعين الطاعة، ويتحتم التنفيذ. وهذا إبليس - لعنة الله - لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق، المالك الرازق، المدبر، الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بإذنه وقدره. ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه، ولم ينفذه بحجة أنه خير من آدم^(٢): ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

فالذي دفعه إلى الاستكبار ومنعه من السجود هو ما يرى لنفسه من الخيرية، وليس عدم القدرة على السجود، فقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ يدل على أنه لم يكن معذوراً في ترك السجود، وأنه رفض السجود مع القدرة على ذلك لأن (الإباء)

(١) انظر: الميزان، للطباطبائي (٢٦/٨).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١٧٧/٣).

معناه: الامتناع مع الاختيار. وأما من لم يكن قادرًا على الفعل فلا يقال له: إنه أبيت^(١).

إن هذه الآيات التي عرضناها تعطينا صورة واضحة عن شخصية إبليس، فهي شخصية مستكبر يعتز بعنصره فيتحدى إرادة الله عند تعارضها مع نزعة الكبرياء في ذاته وتعاظم العقدة في نفسه، إلى درجة يكون مستعدًا لمواجهة أسوأ النتائج في قضية مصيره، للمحافظة على كبريائه الذاتي.

وهكذا نرى أن التعصب يحمل صاحبه على تبني جملة معايير وقيم خاصة، تفضي إلى التعامي عن الحقائق والنظر إلى الأمور من زوايا محددة، بدلًا من تشريع الأبواب للحقيقة، فتتظم في ضوء تلك المعايير سلسلة من الأحكام والمواقف والرؤى والتصورات، ليس لها ما يسوغها إلا كونها نابعة من الشعور بالانتماء لعنصر معين أو لعصب محدد.

الْمَطَلَبُ الثَّانِي

مخالفة الرسالات لأهواء المستكبرين

من أهم أسباب استكبار الناس وإعراضهم عن دعوة الحق التي جاء بها الأنبياء عبر التاريخ هو مخالفة الشرائع السماوية لأهواء نفوسهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ رُوحَ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذِبُكُمْ وَفَرِّقًا تَفْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

لقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم وإبانهم أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم. لكن القرآن يفضحهم ويكشف عن حقيقة موقفهم، ويثبت أنهم كلما واجهوا الحق الذي لا يخضع لأهوائهم استكبروا. فهم ترفعوا عن اتباع الرسل وأعجبوا بأنفسهم واعتقدوا أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل ويكونوا أتباعًا لهم. وتلك أماره على أنهم إنما يعرضون ويستكبرون عن الحق لأجل مخالفة الحق أهواءهم^(٢).

فالنفس المريضة تتخذ هواها إلها لها تأتمر بأوامره وتنتهي بنواهيها، فهي محجوبة

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١ / ٥٩٠).

(١) انظر: مغنايح الغيب (١ / ٢٥٥).

عن الحق معرضة عنه؛ لأنه يحطم كيانه ويقوم اعوجاجها ويسد أحكامها. والتعبير القرآني يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية، حيث ترك الأصل الثابت وتستكبر عنه وتتبع الهوى المتقلب. وحين تتعبد لهواها وتخضع له، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها وتقيمه إليها قاهراً مستولياً عليها، تتلقى إشاراته المتقلبة بالتسليم والقبول.

يقول تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَ غَشْوَةٍ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ [الجنابة: ٢٣].

إن اتباع هؤلاء للهوى يقتضي - حسب زعمهم - أن يأتيهم الله تعالى بتشريع يلائم أهواءهم وإلا أعرضوا واستكبروا. ولا يخفى ما في مثل هذا التصور من مفسدة للتدبير السائد في الكون. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۗ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمن: ٧١].

فهم يطالبون بتشريع ينسجم مع ما يهوونه من الاعتقاد والعمل، وما يريدونه من المنكر والفساد، وبما أن الهوى لا يقف عند حد ولا يستقر على حال، فإنهم يريدون مع كل جيل كوناً جديداً ينسجم مع أهوائهم.

إن الحياة التي تنتهي بسالكها إلى السعادة الإنسانية طريقة متعينة، يقتضيها النظام بالحق، وتكشف عنها تجهيزات وجوده بالحق. وهذا الحق هو القوانين الثابتة، غير المتغيرة التي تحكم في النظام الكوني، الذي أحد أجزائه النظام الإنساني، وتدبره وتسوقه إلى غايته. وهو الذي قضى به الله سبحانه فكان حتماً مقضياً. فلو اتبع الحق أهواءهم، فاقتضى لهم من الشرع ما تجازف به أهواؤهم، لم يكن ذلك إلا بتغيير أجزاء الكون عما هي عليه وتبدل العلل والأسباب غيرها، وتغير الروابط المنتظمة إلى روابط مختلة متدافعة، توافق مقتضياتها مجازفات أهواؤهم. وفي ذلك فساد السموات والأرض ومن فيهن في أنفسها والتدبير الجاري فيها؛ لأن كينونتها وتدبيرها مختلطان غير متمايزين، والخلق والأمر متصلان غير منفصلين^(١).

فالإنسان إذن لما يستكبر عن اتباع الحق لمجرد أن هذا الحق يخالف هواه ولا يساير شهواته وورغباته وتصوراتها، فهذا مؤشر قوي على فساد فطرته وانطماسها، هذه الفطرة التي تقتضي عدالة المنطق الإنساني فيها أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت غير المصدر الإنساني المتقلب.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ

التبعية العمياء للأباء والأجداد والجمود على العادات والتقاليد

تحول الأعراف والتقاليد والمفاهيم المتسالم عليها، وما تتناقله الأجيال من قيم وأفكار وعادات، دون التبصر بكل جديد أو مستجد، وكثيراً ما يحصل الاستكبار والصد والإعراض رأساً ودون نقاش لمجرد معرفة الملزمين بالتقاليد والملتزمين بتراث الآباء والأجداد أن ثمة شيئاً جديداً يعمل على زحزحة الراكد. فالمرء مسكون بمشاعر الرضا والانبساط والتسليم بما هو قائم ومتداول، وقد يشعر بالضيق والانكسار إذا ما تعرض النسيج المفاهيمي والقيمي للاحتراق. وغالباً ما يندفع بصورة تلقائية لمقاومته لمساسه بالسكونية التي ألفها ودرج عليها، أو لتهديده للمصالح التي يجنيها من هذا السكون ولهذا يواجه المصلحون موقفاً معترضاً من جمهور الناس.

والمؤكد وفق ما عرضه القرآن الكريم من قصص أن جميع الأنبياء تعرضوا لحالي الإعراض والصد. والمنطق الذي واجههم كان واحداً: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ شَرِّ مَنَاقِبِهِمْ مُّقْتَدِرِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

والاستكبار على أنبياء الله والإعراض عن دعوتهم بسبب التعصب للآباء بدأ في مرحلة مبكرة من تاريخ البشرية، فقد وقف قوم نوح عليهم السلام يعترضون على دعوته متذرعين بأنهم لم يسمعوا بما جاءهم به عند آبائهم الأولين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُرُونَ﴾ [٢١] فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنْ سَمِيعَتِنَا هَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ [٢٢] إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعِي، حَتَّىٰ فَتَرَوُا بِهِ، حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٢٥].

وهكذا ردوا أمر الإيمان بدعوة نبيهم إلى ما ورد عن آبائهم، لا إلى العقل الداعي المتدبر ولا إلى الآيات البينة الواضحة التي جاءهم بها.

ومن بعدهم وقف قوم هود عليه السلام: نفس الموقف مع نبيهم، بل أخذتهم العزة بالإثم ووقفوا موقف التحدي لنبيهم. قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَدْرَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فَأَنزَلْنَا يَمًا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الاعراف: ٧٠].

إنه مشهد بانس لاستعباد الواقع المألوف للعقول والقلوب، هذا الاستعباد الذي

يسلب الإنسان خصائصه الأصلية: حرية التدبر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبداً للعادة والتقليد وعبداً للعرف والمألوف وعبداً لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور. وهكذا استعجلوا العذاب فرازاً من مواجهة الحق، بل فرازاً من تدبر تفاهة الباطل الذي هم له عبيد^(١).

ولم يكن قوم صالح أحسن حالاً مع نبيهم، فتعجبوا منه كيف يدعوهم إلى ترك عبادة ما كان يعبد الآباء والأجداد، وأعلنوا شكهم في صدق دعوته، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَصَلِحُ فَذَكَرْتُمْ فِيمَا مَرَجُوا قَبْلَ هَذَا أَنَّهُمْ لَنَآءٍ أَنْ تَعْبُدُوا مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٦].

يقولون: كنت فينا موضع رجائنا ومعقد آمالنا لعلكم ولعقلك وخلقتك وحسن تدبيرك، ولكن هذا الرجاء قد خاب، فكيف تدعوننا إلى ترك عبادة آبائنا؟ وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه، بل يستنكرون ما هو واجب وحق ويدهشون لأن يدعوهم صالح إلى عبادة الله وحده، لماذا؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير، ولكن لأن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة. لقد بلغ بهم التحجر حد التعجب من الحق المبين وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء^(٢).

ويتكرر نفس الموقف مع شعيب عليه السلام، فيسأله قومه متعجبين ومندهشين ومستهزئين كما قال الله عنهم: ﴿ قَالُوا يَسْمَعِيْبُ أَصَلَتْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا دَشَّنُوا إِلَيْكَ لِأَنَّ الْخَلِيْفَةَ الرَّشِيْدُ ﴾ [هود: ٨٧].

ونفس الأمر تكرر مع فرعون وملكه عندما جاءهم موسى عليه السلام بالآيات والدلائل الواضحة، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِذْ يَرْعُونَ وَمَلَأْنَاهُ بِنَائِبِنَا فَانْتَكَبُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ ﴿٣١﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْحَرُّ هَذَا وَلَا يُبْلَغُ الشَّجَرُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٥ - ٧٨].

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٥٤٨).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٥٩٤)، والتفسير الواضح، لمحمد محمود حجازي (١/ ٤٦٠).

فالمانع لهم من الإيمان والدفاع بهم إلى الاستكبار هو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة عن الآباء والتي يقوم عليها نظامهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي؛ لذلك سموا ما جاء به موسى عليه السلام سحرًا مفترى، واستكبروا أن يتبعوه. ولا حجة لهم في ذلك إلا لأنه جديد عليهم، ولم يسمعوا به من آبائهم. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا مَسَعَيْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴾ [الفصل: ٣٦].

فقد تمسكوا بالتقليد ودفنوا الحجة الظاهرة بمجرد الإصرار. وهذا ما يدل على أنهم انقطعوا على الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة، ولم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم، بل لجؤوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينات وهو الرياسة الدنيوية التي خافوا عليها وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا^(١١).

ولما أرسل الله تعالى محمدًا - عليه الصلاة والسلام - بدين الحق وقفت قريش تدافع عن دين آبائهم دفاعًا مستميتًا. فأعرضت عن دين الله وعن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضلوا ما وجدوا عليه آباءهم من العادات والتقاليد، وإن كانت مخالفة لمقتضى العقل والصواب. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهَا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤] فاتبعوا شرع العبيد وتركوا ما شرعه رب العبيد ورفضوا نداء التحرر من عبودية العباد للعباد، واختاروا عبودية العقل والضمير للآباء والأجداد، فلو كان آباؤهم يعلمون شيئًا لما جاز لهم أن يتبعوهم ويتركوا ما أنزل الله، فكيف إذا كان الآباء لا يعلمون شيئًا بل ولا يهتدون؟^(١٢).

وهكذا يظهر أن طبيعة المستكبرين المعرضين عن الهدى واحدة، وحجتهم كذلك مكرورة، وهي تقليد الآباء، لتغلق قلوبهم على هذه المحاكاة وتطمس عقولهم عن التدبر لأي جديد، ولو كان أهدى، ولو كان أجدى، ولو كان سطح بالدليل؛ لذلك لا يكون لهؤلاء إلا التدمير والتنكيل لهم لا يريدون فتح أعينهم لترى أو فتح قلوبهم لتحس أو فتح عقولهم لتستبين^(١٣).

(٢) في ظلال القرآن (٦٠/٣).

(١) انظر: فتح القدير (٤٦٥/٢).

(٣) في ظلال القرآن (٣٢٣/١).

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ

الاعتزاز بالقوة والخوف على فقد الرياسة

القوة التي يمنحها الله لإنسان أو لمجموعة من الناس تكون صفة حسنة إذا استغلت في ما يرضي الله سبحانه، أما حين تكون بعيدة عن الحق وحين تنبعث من النفوس المعرصة، تصير سبباً من أسباب الاستكبار والطغيان، بل من أخطر أسبابه. فهي تحمل أصحابها على نسيان أول بديهة من البديهيات، وهي أنهم خلقوا اليموتوا، فبقدر ما يبتون في هذه الدنيا مشيدين، متفاخرين، فإنهم يهدمون من جانب آخر بنيانهم الإنساني، فيصبح البطش طبيعتهم والتجبر دينهم، فلا تزداد قلوبهم إلا قسوة. ومن هنا فهم أبعد ما يكونون عن أن يتأثروا بنصح ناصح أو وعظ واعظ، فتعميمهم القوة عن كل شيء^(١).

وقد ذكر القرآن الكريم بعض الأقوام والأشخاص الذين اغتروا بقوتهم فأعمتهم عن معرفة الحق والهدى وأغرتهم بالكفر والضلال.

ومن هؤلاء قبيلة عاد، فقد كانت قبيلة ذات قوة وبطش، وأهلها أصحاب زرع وضرع، زادهم الله بصطة في الجسم والمال. قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام الذي أرسل إليهم: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَأذْكُرُوا مَا آتَاهُ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، يقول الزمخشري في تفسيره: كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم^(٢).

لقد ذكرهم هود عليه السلام وهو يدعوهم إلى الله، ذكرهم بأن هذه القوة هبة ونعمة من الله يجب عليهم شكرها وتسخيرها فيما يرضي الله ويعود بالنفع على الناس. قال تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُرِّدْكُمْ قُوَّةَ إِنْ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

فهو لم يحارب مبدأ القوة فيهم ولكن أراد ترشيد هذه القوة وتوجيهها بما يهدب نفوسهم. ولكنهم استعصوا وأخذتهم العزة بالإثم، وازدادوا استكباراً في الأرض. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

(١) انظر: القصص القرآني، لفضل عباس (ص ١٠٤).

(٢) الكشاف (٣/ ٤٤٨).

فلاستكبار هنا تسنده القوة، التي تعطي أصحابها شعورًا كاذبًا بأنه لم تعد هناك قوة تقف في وجههم أبدًا، حتى ولا قوة الله الجبار، الذي يدعوهم هود إلى عبادته.

وقد يحصل الاستكبار بسبب الاغترار بالقوة الظاهرة التي يمنحها الحكم والسلطان. ولعل أبرز نموذج عرضه القرآن الكريم في هذا الباب هو فرعون. فهو رمز حقيقي لكل حاكم طاغية، حملته قوته على الاستكبار على دعوة موسى عليه السلام والاستعلاء في الأرض والإفساد فيها.

فرعون رفض النبي البشر واستكبر وأعرض عن دعوة موسى وهارون. قال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٨].

وقال: ﴿ تَرَبَّعْتُمْ مِّنْ بَعْدِهِمْ مُّؤْمِنٍ وَهٰنُوتَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، يَتَّبِعُنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥].

وقال: ﴿ وَقُرُوتَ فِرْعَوْنَ وَهٰنُوتَ وَهٰنُوتَ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سٰبِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقال: ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا وَخٰنُوهُ فِي الْأَرْضِ يُكْفِرُ الْخٰقِ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنِنَّا لَا يَرْجِعُهُمْ ﴾ [الفصص: ٣٩].

وقال: ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهٰنُوتَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْبُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر: ٢٣ - ٢٧].

فهذه النصوص وغيرها تظهر أن فرعون وملاه اغتروا بقوتهم وسلطانهم، فدفعهم ذلك إلى رفض دعوة موسى عليه السلام استكبارًا واستعلاء. لقد توفرت لهم كل أسباب القوة

والمنعة وملكوا أرض مصر واستغلوا أهلها وصيروهم عبيداً وخدمًا. يقول الله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

إن فرعون علا في الأرض وتجبر، وتفوق فيها بيسط السلطة على الناس، وإنفاذ القدرة فيهم، وجعل أهلها شيئاً ورفقاً مختلفة لا تجتمع كلمتهم على شيء، وبذلك ضعفت قوتهم على المقاومة دون قوته والامتناع من نفوذ إرادته.

لقد رفع لافتة الحق الإلهي، ففرق الناس حتى لا يجتمعون على كلمة. وحارب دعوة الله ومن اعتنقها وأسرف في الظلم والتعذيب؛ لذلك وصفه القرآن بأنه: ﴿كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُتْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١] وأنه طغى وأضل قومه وما هدى، وأنه ذو الأوتاد الذي كان يتفذن في قتل ضحاياه.

وفرعون هذا الذي استكبر في الأرض، كان هو المصدر الوحيد للتشريع، فلقد أعلن على قومه إعلانه الشهير: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ووفقاً لهذا الإعلان: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ومثل فرعون جعل الله في كل أرض أكابر وزعماء مجرمين، يمكرون بأهلها ويحاربون كل دعوة للإصلاح. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمَّكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وهؤلاء الأكابر يعرضون عن الإيمان ويستكبرون عن اتباع الرسالة خيفة أن يرجعوا عباداً لله كسائر العباد فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً، يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع، ويكبر عليهم أن يؤمنوا للنبي ويسلموا له. وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع، وأن يأمروا فيجدوا منهم الطاعة والخضوع^(١).

قال تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِيَلْفِنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَكُنَّا لَكُمْ الْكَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]. لقد عللوا عدم قبول دعوة موسى بأمرين: التمسك بالتقليد للأباء والحرص على الرياسة الدنيوية؛ لأنهم إذا أجابوا النبي وصدقوه صارت مقاليد أمر

أتمته إليه ولم يبق للملك رئاسة تامة؛ لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات^(١).

إنها العلة القديمة الجديدة التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات وانتحال شتى المعاذير، ورمي الدعاة بأشنع التهم، إنها ﴿الْكَبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ وما تقوم عليه من مقذورات باطلة، يحرص المتجبرون على بقائها متحجرة في قلوب الجماهير، لأن تفتح القلوب للعقيدة الصحيحة خطرٌ على مكانة الطغاة^(٢).

إن أصحاب السلطان يملكون القوة والمال والعدد، بخلاف غيرهم من الناس، وينظر هؤلاء إلى الرسائل السماوية أنها تهدد سلطانهم وتقلل نفوذهم وتحرمهم من بعض ما يعتبرونه حقاً لهم، وسيلاً للاستكبار والتعالي على غيرهم؛ ولذلك كانوا أشد الناس مقاومة لرسالة الأنبياء.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ

التترف

تنتج حالة الترف في المجتمع والحضارة حينما تسيطر غرائز التملك على عقول فئة اجتماعية معينة، يتجه نشاطها كله وجهة واحدة، هي الحصول على وسائل الراحة المادية، فلا يستطيع العقل أن يفكر في شيء مما وراء ذلك. وتأتي أيام على إثر أيام وهذه الفئة مشغولة بجمع المال بشتى الوسائل والطرق المشروعة ومنها وغير المشروعة، واستغلاله في الفسق والفساد وإشاعة الفواحش والانحرافات المدمرة لكيان الأمة.

وكان طبيعياً أن يندد الذين يملكون المال ويستغلونه على هذا النحو بكل محاولات الإصلاح والتغيير، ويرفضون كل دعوة جديدة تدعو الإنسان إلى العدل، ويستكبرون على أصحابها ويصمون آذانهم عن النصح الخالص والمشورة التي تقيهم سوء المنزلق في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: ٣٥، ٣٦].

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ١٨١٤).

(١) انظر: فتح القدير (٢/ ٤٦٥).

يقول سيد قطب: إذن فهي قصة معادة وموقف مكرور على مدار الدهور، وهو الترف الذي يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب، ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل ولا تفتح للنور. والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل ويغرمهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله ويخالون أنه آية الرضا عنهم أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء^(١).

يقول الحق سبحانه: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٦﴾ لَا تَجْعَلُوا آلِيكُمْ
 إِكْرَامًا لِتُنصَرُونَ ﴿٦٧﴾ فَمَا كَانَتْ آيَاتِي تَنْتَلِي عَلَيْكُمْ فَاكْتُمُوا عَلَيَّ أَعْيُنَكُمْ نَسْكُونَ ﴿٦٨﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
 بِهِ سَنِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٩﴾ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ إِذْ جَاءَهُمْ مَا بُرِّئُوا بِأَيْمَانِهِمْ الْأُولَىٰ ﴿٧٠﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ
 فَهُمْ لَهُ مُسْكِرُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ حِقَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَانَتْ لَهُمْ كُرْهُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ
 الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنِ
 ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٣﴾ [المؤمنون: ٦٤ - ٧١].

لقد رفض هؤلاء المترفون الحق الذي جاءهم من عند الله وصدوا عنه واستكبروا ورفضوا كل مبدأ أخلاقي جاء ليضبط حركة الإنسان على الأرض. يكرهون القيم العليا والمبادئ السامية التي ترفع الإنسان إلى الأعلى وتخرجه من معتك الرذائل والهوى والشهوات، يكرهون هذه المبادئ والقيم؛ لأنها تسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون، وتصطدم بأهوائهم المتأصلة التي يحققون بها امتيازات السيطرة والجبروت والربح الفاحش الذي لا يعرف أي ضابط أخلاقي سوى المصلحة الذاتية وإشباع الغرائز المنهومة.

وفي مقابل دعوات الإصلاح التي حدد بشأنها المترفون موقفهم الرافض لها من الأساس، يرفعون شعارات السكون والرجوع إلى العداة وفرض سياسة الأمر الواقع بتقليد الآباء والأجداد والسير على نهجهم؛ لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تضمن لهم المحافظة على امتيازاتهم ومصالحهم.

يقول الدكتور عبد العزيز كامل: المترفون أعداء أي تطور وتقدم يكفيهم ما كان عليه

الآباء والأتباع. والتقليد أقرب إليهم من الاجتهاد وتحمل مسؤولية الجديد من الآراء والمواقف الجديدة دعوة إلى الفطرة السليمة^(١).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنْتُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّتٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ [الزخرف: ٢٠ - ٢٢].



الْمَجِئُ الثَّانِي

أسباب الاستضعاف

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

ضعف القوة المادية

إن استضعاف أمة أو فئة من الناس يكون منشؤه في الغالب ضعف قوتهم المادية من عدد وُعد، مما يغري من هم أقوى منهم بالاعتداء عليهم من أجل إخضاعهم والسيطرة عليهم وتسخيرهم في خدمتهم وخدمة مصالحهم.

وقد عرض القرآن الكريم لبعض الأقوام والجماعات، استضعفت من قبل غيرها لهذا السبب. ومن أبرز النماذج في هذا الباب بنو إسرائيل زمن فرعون والمسلمون بمكة قبل الهجرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

فرعون علا في الأرض، وتفوق فيها بيسط سلطته على الناس وإنفاذ القدرة فيهم، وجعل أهلها شيعاً وفاقاً متنافرة ومتناحرة، لا تجتمع كلمتهم على شيء، وبذلك يضعفون على المقاومة والامتناع.

واستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل بحيث تفنن في تعذيبهم والتنكيل بهم وسخرهم في خدمته، فكان يتصرف في شأنهم كما يريد له هواه البشع، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

فمن تكبره وتجبره - وهو مفسدة عظيمة - تولدت مفاسد جمّة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم وسوء ظنه بهم، وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه. فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجترأ على دحض حقوقهم وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم، وأن يبتز منافعهم

لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة. وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته^(١).

وقال تعالى في شأن المسلمين لما كانوا بمكة قبل الهجرة:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَائْتِدِمُّكُمْ بِضُرِّهِمْ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

لقد كان المسلمون أيام إقامتهم بمكة طائفة قليلة العدد، قد جناهم قومهم وعادوهم، فصاروا لا قوم لهم، يأخذهم أعداؤهم بدون كبرى مشقة ولا طول محاربة؛ إذ كانوا القمة سائغة لهم وكانوا أشد منهم قوة.

ويرسم التعبير القرآني مشهداً حياً للقللة والضعف والقلق والخوف: ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ وهو مشهد التربص الوجل والترقب الفرع، حتى لتكاد العين بالسماوات الخائفة والحركات المفزعة والعيون الزائغة والأيدي تمتد للتخطف، والقللة المسلمة في ارتقاب وتوجس!^(٢).

يقول قتادة بن دعامة السدوسي رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبياً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام، فمكّن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به سلكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٦٨/٢٠).

(٢) في ظلال القرآن (١٤٩٦/٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٨٨/٢).

المطلب الثاني

مخالفة المستضعفين للمستكبرين في العقيدة

اللَّهُ ﷻ قص قصص من كان قبلنا باعتبار أنه كان هناك في وجه كل نبي مستكبرون، كفروا بالرسالة واتبعوا الهوى، ومع كل نبي مستضعفون آمنوا واتبعوا الهدى. إن هذا الاختلاف، بل التناقض على مستوى عقيدة كل طرف كان سبباً مهماً في استضعاف المؤمنين عبر التاريخ والتكبير بهم.

فالقرآن الكريم لا يتحدث عندما يقص علينا نبأ من كان قبلنا إلا عن صراع المستضعفين بقيادة الرسل والأنبياء والدعاة إلى الله مع المستكبرين من أمثال فرعون وصناديد قريش وغيرهم.

فقد حدثنا عن استضعاف من آمن مع نوح ﷺ وكذلك المؤمنين مع صالح وشعيب وسيدنا محمد وكثير من الأنبياء - عليهم السلام -.

وكان الملا من قوم نوح ﷻ يصفون أتباعه بأنهم أراذل القوم وضعفاؤهم، وأنهم ليس لهم شأن يذكر في مجتمعهم. قال تعالى: ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]. وقال تعالى على لسانهم: ﴿ وَمَا زَيْنَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الْأَرَى ﴾ [هود: ٢٧]، ويحدثنا القرآن أيضاً عن استضعاف أتباع صالح ﷺ على أيدي الملا من قومه، قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأعراف: ٧٥].

وحدثنا القرآن كذلك عن استضعاف بني إسرائيل زمن فرعون؛ حيث كان يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم ويسومهم سوء العذاب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ مِذْيَبًا مِنْهُمْ يُدْعِيْنَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِيْنَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

ويذكر القرآن الكريم لنا أن بعض الأقوام لم يستضعفوا المؤمنين فحسب، بل استضعفوا أنبياءهم أيضاً، كما كان حال شعيب ﷺ، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِتْنًا ضَعِيفًا ۗ وَتَوَلَّىٰ رَهْطًا لَّ رَحْمَتِكَ لَرَجَمْنَكَ وَرَمَّا أَنْتَ عَلَيْنَا يَعْزِرُ ﴾ [هود: ٩١]. بل إن القرآن ذكر الاستضعاف بالنص عند الحديث عن هارون ﷺ، قال تعالى: ﴿ قَالَ ابْنُ أُمَّ

إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴿١٥٠﴾ [الاعراف: ١٥٠] يعني أنه لم يأل جهدًا في كفههم بالوعظ والإنذار وبما بلغت طاقته من بذل القوة في مضادتهم حتى قهره واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه.

كل هؤلاء عاشوا المحنة في أشد صورها وأبشع أشكالها، والمحنة في العقيدة - كما قال سيد قطب - أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض؛ لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني الذي تتبعه كرامة النفس والعرض وحتى المال والأرض^(١).

ونبقى دائمًا مع بني إسرائيل والمسلمين الأوائل بمكة.

لقد استبد فرعون ببني إسرائيل واستذلهم وسخرهم في خدمة القبط في مصر. وقبل مبعث موسى عليه السلام زاد فرعون من طغيانه، فكان يقتل أبناء بني إسرائيل ويستحيي النساء من أجل القضاء عليهم والتخلص منهم، بعد أن بدأ يشعر بخطرهم عليه وعلى ملكه. فقد طغى في الأرض وجعل أهل مصر فرقًا، كل طائفة في شأن من شؤونه وأوقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل؛ لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه. فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب. ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف فقد بقي أصل الاعتقاد بالله وإنكار ألوهية فرعون.

وكذلك أحس الطاغية أن هناك خطرًا على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة في مصر. وابتكر طريقة خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعبده ولا تعتقد بألوهيته، تلك هي: تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال، واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب. وبعد ذلك كله تذيب الذكور من أطفالهم عند ولادتهم، واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم، وبذلك يضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث، فوق ما يحسب عليهم من نكال وعذاب^(٢).

وقد استمر فرعون بذلك العمل الشنيع مدة لا يعلمها إلا الله حتى بعث الله موسى وأمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله، وتخليص بني إسرائيل من أسرهم. فمكّن لهم سبحانه في الأرض وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين. قال ﷻ: ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥١﴾ وَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٦/٣٢٨).

(١) في ظلال القرآن (٢/٤٤٤).

فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿ [الفصص: ٦٥]، وقال: ﴿ وَأُزِّنَا
 الْقَوْمَ الذَّرِيرَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَسْكِرَةَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَنَسَتْ
 كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ.
 وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿ [الأعراف: ١٣٧].

ولما جاء النبي ﷺ برسالة الإسلام من ربه وصدع بالحق، انفجرت مكة بمشاعر
 الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتاً جديداً يجهر بتضليل
 المشركين وعباد الأصنام.

وقامت قريش لأنها عرفت أن معنى الإيمان بنفي الألوهية عما سوى الله، ومعنى
 الإيمان بالرسالة وباليوم الآخر؛ هو الانقياد التام والتفويض المطلق، بحيث لا يبقى لهم
 خيار في أنفسهم وأموالهم فضلاً عن غيرهم. ومعنى ذلك انتفاء سيادتهم وكبريائهم على
 العرب التي كانت بالصيغة الدينية^(١).

وأعمل المشركون شتى الوسائل لكف الدعوة وإسكات أصحابها ولكنهم لما رأوا
 أن تلك الأساليب من سخرية واستهزاء وتشويه وإثارة الشبهات لا تجدي نفعاً قرروا أن
 لا يألوا جهداً في محاربة الإسلام وإيذاء رسوله وتعذيب الداخلين فيه والتعرض لهم
 بشتى صنوف النكال والإيلام.

وبدؤوا الاعتداءات ضد النبي ﷺ. قال ابن إسحاق: كان نفر الذين يؤذون
 رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط،
 وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم
 إلا الحكم بن أبي العاص، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وكان
 أحدهم يطرحها برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً ليستر به منهم إذا
 صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوها عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به
 على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟! ثم يلقيه في الطريق^(٢).

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: بينا النبي ﷺ في حجر الكعبة
 إذ أبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى

(١) الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري (ص ٥٧).

(٢) سيرة ابن هشام (١/٤١٦).

أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله^(١).

وأما بالنسبة إلى المسلمين - ولا سيما الضعفاء منهم - فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب حتى مات منهم من مات تحت التعذيب وعمي من عمي.

وفي شأنهم قال المولى عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لِمَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فقد كان أبو جهل يغري أهل مكة بتعذيب المسلمين، وإذا سمع برجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنه وخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك ولنفلين رأيك^(٢) ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به^(٣).

ومن هؤلاء المستضعفين بلال بن رباح، وكان أمية بن خلف بن وهب يخرجهم إذا حميت الظهر فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد، أحد، حتى مر به أبو بكر الصديق عليه السلام يوماً وهم يصنعون ذلك به، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى، فاشتراه من أمية بعبد له أسود فأعتقه وأراحه من العذاب^(٤).

ومن المستضعفين أيضاً عمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية. وكان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهر، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله عليه السلام فيقول: «صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة»، فأما أمه فقتلها وهي تأبى إلا الإسلام^(٥).

وقد بلغ من شدة العذاب الذي وقع على المسلمين أن طلبوا من الرسول عليه السلام أن يدعوا الله لهم أن يخفف عنهم ما هم فيه، فها هو خباب بن الارت عليه السلام وهو واحد من الذين ذاقوا ألوان العذاب، يقول: شكونا إلى رسول الله عليه السلام وهو متوسد بردة له في ظل

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب: ما لقي النبي عليه السلام وأصحابه من المشركين بمكة (١٤٠٠/٣).

(٢) لنفلين رأيك: أي لنقبه ولنخطئه.

(٣) سيرة ابن هشام (١/٣٤٢).

(٤) المصدر نفسه (١/٣٣٩).

(٥) المصدر نفسه (١/٣٤٢).

الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، واللّٰه لينمّن اللّٰه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللّٰه والذّنب على غنمه ولكنكم تستعجلون»^(١).

وكان الرسول ﷺ يدعو في صلاته للمسلمين المستضعفين في مكة ويدعو على أعدائهم، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: لما رفع النبي ﷺ رأسه من الركعة قال: «اللّٰهُم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكة من المؤمنين، اللّٰهُم اشدد وطأتك على مضر، اللّٰهُم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»^(٢).

ونزل القرآن الكريم يخاطب الجماعة المسلمة بالمدينة، لاستجاشة مروءة النفوس وحساسية القلوب اتجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين كانوا يقاسون في مكة ما يقاسون وهم يتطلعون إلى الخلاص، ويدعون اللّٰه أن يجعل لهم مخرجاً من دار الظلم والعدوان، فقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

المطلب الثالث

الاستكانة بدعوى الخوف على المصلحة

رأينا في المطلبين السابقين أن سبب استضعاف المستكبرين للمستضعفين يتمثل في عوامل خارجة عن إرادة المستضعفين، بحيث يكون المستضعف معذوراً في ضعفه، فهو في قرارة نفسه يرفض الذل والهوان والخنوع والتخلي عن الإيمان لإرضاء الفئة المستكبرة، لكنه لا يستطيع تغيير وضعه بسبب ضعف في الجسم أو قلة في العدد والعدة.

على أن هناك حالة مناقضة، يكون بمقدور المستضعف فيها تغيير واقعه الذي

(١) أخرجه البخاري، في كتاب الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٢٥٤٦/٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب: الاستسقاء وخروج النبي ﷺ في الاستسقاء (٣٤١/١)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جمع الصلاة بالمسلمين (٤٦٧/١).

يعيشه، لكنه لا يفعل ذلك لمرض في قلبه وهوى في نفسه، وليس بسبب قوة خارجية ضاغطة عليه.

إن الحفاظ على الحياة والرزق من أخطر القضايا التي تشغل بال الإنسان، وهما قضيتان قد تؤديان إلى قبول الإنسان بالذل والهوان والخضوع للغير في سبيل المحافظة عليهما. وهذا الأمر ناشئ عن شعور وتصور يسيطران على نفس الإنسان، وهو أن الأقوياء الذين يملكون زمام الأمور بين الناس، هم أيضاً الذين يملكون قضية الحياة وقضية الرزق، فمن أطاعهم حافظ على حياته ودام رزقه، ومن خالفهم فقد حياته وانقطع رزقه.

هذا الشعور الوهمي هو الذي يسيطر على نفوس بعض من أسلم في مكة. فعندما أذن الله لرسوله وللمؤمنين بالهجرة إلى المدينة فضل أولئك البقاء في مكة، تمسكاً بأموالهم وخوفاً من مشاق رحلة الهجرة؛ لذلك قال الله تعالى في هؤلاء وأمثالهم من الذين يفضلون أن يبقوا أحياء حتى ولو على حساب كرامتهم وإنسانيتهم، بل وعلى حساب دينهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ [النساء: ٩٧].

فلاستكانة وفق منطوق هذه الآية مرفوضة، طالما أن ثمة العديد من الخيارات أمام الإنسان، فإذا استسلم للواقع وأفنى حياته، التي هو مؤتمن عليها، هكذا، فسيحاسب في الآخرة حساب المتجاوز للتكاليف، وسيلقى حساباً عسيراً.

لذلك وصف الله تعالى أولئك في الآية بالظلم؛ لأن الذي حملهم على قبول الذل والاستضعاف والفتنة عن الدين، ليس العجز الحقيقي، وإنما هو حرصهم على أموالهم ومصالحهم وأنفسهم. مع أن في الهجرة فسحة ومنطلقاً، فلا تضيق بهم الأرض، ولا يعدمون الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴿١٠٠﴾ [النساء: ١٠٠].

وإنما هو ضعف النفس وحرصها وشحها، يخيل إليها أن وسائل الحياة والرزق مرهونة بأرض ومقيدة بظروف ومرتبطة بملابسات، لو فارتقتها لم تجد للحياة سبيلاً.

وقال تعالى في هؤلاء أيضاً: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْفُورَاتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا

مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا اَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْمُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ النَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسْرَأُ التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِيْ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ [س: ٣١-٣٣].

إن هذه الآيات الكريمة توحى لنا أن للإنسان حرية مطلقة في ما يرى ويعتقد، وفي ما يأخذ وفي ما يدع. فقد خلقه الله حر التفكير والإرادة، لتتحول الحرية في حياته إلى عقيدة وإيمان وتصميم وعمل. فليس له أن يتنازل عن حريته للآخرين، بحجة ضغطهم عليه؛ لأن القضية قضية تتعلق بالاستعداد الداخلي للخضوع، والانسحاق أمام إرادة الآخرين وتخطيطهم. وهذا ما لا يملك الآخرون أن يخلقوه بالضغط، بل كل ما يملكونه هو الإغراء والتزيين والتغريير والتخويف... الذي يضعف الإرادة ويوهن القوة ويستعمر الفكر، وهي ضغوط يمكن للإنسان أن يواجهها ويثبت أمامها بما يحمله من فكر يواجه به فكر الآخرين، أو بما يملكه من إرادة يقاوم بها ضغط إرادتهم، أو بما رزقه الله من عقل وما أوحى الله إليه من رسالات - عبر أنبيائه - فإذا أغفل فكره وأهمل إرادته وجمد عقله ونسي رسالته، واستسلم لشهواته ورغباته ونقاط ضعفه، وأسلم نفسه للطغاة والمستبدين والمنحرفين، استحق أن يواجه نتائج ذلك أمام الله^(١).



الفصل الثاني

مظاهر الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مظاهر الاستكبار.

المبحث الثاني: مظاهر الاستضعاف.

الْمِحَّةُ الْأُولَى

مظاهر الاستكبار

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

الاستعلاء

وحقيقته أن المستكبر يرى لنفسه فضلاً على الناس وحقاً ليس لغيره، فيحملة هذا الشعور على احتقار سواه وازدرائه، بل يصل الأمر به إلى رفض الحق الذي جاءت به الأنبياء أنفة من الانقياد لهم والقبول منهم. قال رسول الله ﷺ: «الكبير بظر الحق وغمط الناس»^(١). فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس: النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار^(٢).

وهذا الاستعلاء قد يكون على الله سبحانه أو على الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أو على عباد الله.

فأما الأول فكما فعل إبليس الذي كان يعيش في داخله زهو العظمة بالعنصر الذي خلق منه، مقابل الإنسان الذي خلق من تراب. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ يَا بَنِي آدَمَ اسْجُدُوا لِلَّهِ خَلَقْتُكُمْ مِن طِينٍ ﴿٨٠﴾ اسْتَكْبَرَتْ أُمَّ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨١﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِن طِينٍ ﴿٨٢﴾ قَالَ فَخَرَّجْنَا مِنْهَا فَانَكَ رَجِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٧].

وقال سبحانه في شأن فرعون: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٣١]، لقد اعتبر نفسه المصدر الوحيد للتشريع دون الله ﷻ، فأعلن على قومه إعلانه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [التازعات: ٢٤]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِندِئِ عَرَبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الفصص: ٣٨].

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه (٩٣/١)، وأبو داود في كتاب اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٥٩/٤).

(٢) روضة المحبين، لأبيوب الزرعي (٢٢٢/١).

ووفقاً لهذا الإعلان قال: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] وأما الاستعلاء على أنبياء الله ورسله فيتمثل في تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، قال تعالى حكاية عن قول الكافرين: ﴿ أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَلَقَوْمُهُمَا لَنَا عَدِيدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقولهم: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال أيضاً على لسان قريش: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، وإذا كان المستكبرون قد استعلوا على أنبياء الله ورسله - عليهم السلام - فمن البديهي أن يستعلوا على من آمن معهم - ويستحقروهم. قال تعالى على لسان قوم نوح **عليهم السلام**: ﴿ وَمَا زُرْنَاكَ إِلَّا الْبَيْتَ هُمُ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ ﴾ [مرد: ٢٧] فاستعظم الملا أن يكونوا مع الضعفاء الذين اتبعوا نوحاً سواء بسواء. وقالت قريش ازدراء واحتقاراً لمن اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿ لَوْ كَانَ خِزْياً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحاف: ١١] أي نحن أكبر منهم وأحق بالخير أن نؤتاه. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وهذا الاستعلاء على عباد الله يكون على وجهين:

أحدهما: الاحتقار والأنفة منهم، وذلك أن يرى الشخص نفسه أنه خير من الناس. فهو ينظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار.

والثاني: رد الحق عليهم، وعدم قبوله منهم. وهو يعلم أنه حق. فإن أمره بعضهم بخير أو نهاه عن منكر أو ناظره في دين فإنه يرد الحق ولا يأخذ به، كما وصف الله سبحانه آل فرعون في قوله: ﴿ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

المطلب الثاني

تكذيب الرسل والتقويض من شأنهم وشأن اتباعهم

مع طول الأمد يبدأ الإغواء الشيطاني في استدراج ضعاف الإيمان إلى الشك في ما جاء به الرسل، فمن انصاع واستحب العمى على الهدى صار يصدق كل أساطير تشويه الحقائق، ويجعل منها عداً لعقله.

وللتقويض من شأن الرسل - عليهم السلام - فإن المستكبرين ألصقوا بهم شتى التهم، التي يمكن أن تشوه حقيقة ما جاؤوا به في أعين الناس، قال تعالى حكاية عن

أعداء الحق: ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧] مرادهم أن رسول الله ﷺ سحره بعض السحرة فصار يخيل إليه أنه رسول. كما نساءوا ﴿ مَا لِي هَذَا أَرْسُولِي يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧] وقولهم هذا مفاده أن مما يتنافى مع قدسية الرسالة أكل الطعام والمشى في الأسواق، فالاتصال الغيبي لا يجامع التعلقات المادية؛ لذلك كان من شأن الملائكة وحدهم دون البشر.

ومن أساليب التشكيك أيضًا، اتهام الرسل ودعاة الحق بالكذب لتنفير الناس منهم. قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ آتِيْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُرْءًا بِرَأْيِهِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

وبنفس الأسلوب واجهت عاد نبيها هودًا، قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦].

كما كذبت ثمود صالحًا وأصقت به نفس التهمة، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٣١﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجِدًا نَبِيْعُهُ إِنَّا إِذَا لَبِئْسَ لِبَلَدٍ وَشَعْرٌ ﴿٣٢﴾ أَتُفِي الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ ﴿٣٣﴾ سَيَعْلَمُونَ عَدَا مِنْ الْكُذَّابِ الْآثِيرُ ﴾ [الفرع: ٢٣-٢٦].

ولم يحد فرعون عن هذا النهج، كيف لا والجميع أتباع إمام المستكبرين الذي أخذ على نفسه عهدًا بأن يضل بني آدم ما دامت الدنيا قائمة. وقد حكى القرآن الكريم تكذيب فرعون لموسى عليه السلام في آيات متعددة. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَذَانِ عَلَىٰ مِثْلِ عَرَبِيٍّ مُتَّبِعِينَ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَلْحَسْبُ ﴿٣٧﴾ أَسْتَجِبَ أَلَسْمَعُونَ فَأَطِيعُوا إِلَهَهُ مَوْسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴿٣٨﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَنُنِّي عَلَى الطَّيْنِ فَاجْمَلْ لِي صَرْحًا لَمْ كَيْ أَطِيعُ إِلَهَ مَوْسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ [الفصص: ٣٨]، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٩﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤٠﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤].

هكذا دأب كبار المستكبرين، فهم يعززون موقفهم المكذب من خلال تحريض شعبتهم وتعبثهم ليكونوا في خدمة مشروعهم الاستكباري.

ولما جاء صاحب الرسالة العصماء، انبرت قريش لحمل لواء التكذيب والاستكبار، ورغم ما عرف به النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام من صدق وسلامة طوية، ورغم شهادة الرأي العام القريشي بذلك فقد أعمضت قريش أعينها عن كل الحقائق التي يشهد بها المجتمع لصالح سيدنا محمد ﷺ لتخرط في المشروع الشيطاني التاريخي، واتهمت خير البرية بالكذب. قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ﴾ [ص: ٤]. وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْهُمُ اٰهْلٰنَاۤمُ بِئٰنَا اٰفَرْتَنٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيٰنٰنَا بِشَآئِرِهِ كَمَا اُرْسِلَ الْاَوَّلُونَ﴾ [الانبيا: ٥].

وقد اعتمد الحق سبحانه في مواساة نبيه أسلوب الحجاج والتحدي في مواجهة ادعاءات المشركين، كما كان ييث الطمأنينة في قلب نبيه من خلال تذكيره بمواقف الأمم السالفة مع أنبيائه ومآل كل فئة ونصره لأهل دعوته.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اٰفَرْتَنٰهُ قُلْ فَاَنۢوَا بِعَشْرِ سُوْرٍ يَّشٰلِيۡهِۗ مُعٰفَرٰتِيۡنِ وَاَدْعُوْا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِّنۢ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيۡنَ﴾ [هود: ١٣].

وفي مقام آخر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كٰذَبَتْ رُسُلٌ مِّنۢ قَبْلِكَ فَصَبَرُوْا عَلٰۤى مَا كٰذَبُوْا وَاُوۡذُوْا حَتّٰى اَنۡهٰهُمْ نَصْرًا وَّلَا مَبْدِلَ لِكَلِمٰتِ اللّٰهِ وَّلَقَدْ جَآءَكَ مِنْ نَّبِۤىِّ الْمُرْسَلِيۡنَ﴾ [الانعام: ٣٤].

وقال تعالى في تأكيد نصره لرسله والمؤمنين: ﴿اِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَّالَّذِيۡنَ اٰمَنُوْا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ نَقُومُ السَّعٰدٰتِ﴾ [غافر: ٥١].

قال ابن كثير: وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أن ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن أذاهم^(١).

وفي نصر عامة المؤمنين قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِيۡنَ﴾ [الروم: ٤٧]. قال الألوسي: فيها مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام لأجلهم. وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا وأنه عام لجميع المؤمنين فيشمل من بعد الرسل من الأمة^(٢).

فالمصلحون بعد انقضاء فترة الرسالة لم يسلموا من كيد أعداء الدين وتكديهم،

فسنة التدافع بين الحق والباطل باقية إلى قيام الساعة ومع تطور البشرية يعمل أعداء الحق على التفتن في إبداع الأساليب التي تنقص من شأن الدعاة إلى الحق وتشكك في مصداقيتهم.

فالمجرمون في هذا الزمان يسعون إلى تحصين مواقعهم، معتمدين توجيه الرأي العام بما يجعل الناس يرون فيهم الملاذ والمرجع، ويخدم دوام سلطتهم السياسية والاقتصادية، وينتجون لأجل ذلك من ألوان التنشئة والتدجين ما يجعل الإنسان يرى في كل دعوة للإصلاح خطراً على المجتمع.

ولا يكتفي المستكبرون في الصد عن سبيل الله بتكذيب الرسل بل يعمدون إلى اتهامهم بالضلال والفساد حتى ينفر الناس من اتباعهم، وتكون لهم الشرعية العملية لمحاربتهم والتنكيل بهم وبآبائهم، والاتهام بالضلال والفساد ليس قاصراً على الأنبياء وحدهم بل ينال نصيبه منه كل من ندر نفسه لنصرة الرسالة.

قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١١٠﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَلَإِ مِثْنٍ ۝١١١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِيَّسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝١١٢﴾ أُبَيِّقُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَصْحٰكُكُمْ وَأَعْلٰمُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ [الاعراف: ٥٩ - ٦٢].

لقد رمي نوح عليه السلام من قبل الملا من قومه بالضلال المبين؛ لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يعترض عليهم معترض برفض آلهتهم ويأتي ببديل عن معبوداتهم. فعندما أقدم نوح على الدعوة إلى عبادة الله وحده بجد وحزم، واقتحم عالمهم بإشهار رسالته عمدوا إلى تفويض دعوته من خلال تأكيد ضلالتة. وهذا حال جميع الأنبياء مع أقوامهم.

الْطَّلَبُ الثَّانِي

الصد عن سبيل الله

المستكبرون عبر التاريخ لا يكتفون برياسة المجتمع والتسلط على رقاب الناس، بل يعززون ذلك بصرفهم عن الحق وسوقهم إلى الضلال والفساد، ومرد ذلك إلى خوفهم من إدراك الناس لحقائق الأمور، وتجمعهم حول الحق، فينكشف مكرهم وباطلهم وتفقد

رياستهم وتنحط مكائهم؛ ولهذا كان الطغاة عبر التاريخ يجعلون من صرف الناس عن الحق واتباعه مسألة حياة أو موت. وهذه سنة ماضية وثابتة يترشح في كل فئة باغية نفر من أكابر المجرمين فيها، يقفون موقف العدا من دين الله ومن الدعاة إليه، لأن دين الله تعالى يدعو إلى تحرير العباد من عبادة العباد وربطهم بعبادة رب العباد، وفي ذلك تعارض مع مصالح المجرمين وحرمانهم من السلطان الذي به يستطيون على الناس ويطؤون رقاب العباد. ويعتمدون في ذلك على شتى ألوان المكر السيئ الذي يزين أبواب الضلال ويسد أبواب الهداية. فالحيلولة بين المرء والعلاقة بربه هي المفتاح الأعظم للاستضعاف الأعظم، الذي يطوح بالمرء في مهاوي الاستعباد والتردي. قال تعالى: ﴿بَلْ زَيْنَ لَلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣]، قال مجاهد: مكرهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه أثناء الليل وأطراف النهار^(١).

مكرهم، أي كيدهم للإسلام بشرهم أو تمويههم الأباطيل^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مَجْرِمِيهَا لِيَمَّكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، قال ابن كثير: المراد بالمكر هنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال^(٣).

قال مجاهد: إن كفار مكة كانوا يجلسون على كل عقبة أربعة ينقرون الناس عن اتباع النبي كما فعل من قبلهم من الأمم السابقة بأنبيائهم^(٤).

إن الصد عن سبيل الله هو الرد الطبيعي لمن تتعارض مصالحهم مع إدراك الأمة لجوهر الرسالة والحقيقة الكبرى التي من أجلها جاءت. لقد دعا أنبياء الله عبر الرسائل السماوية إلى عبادة الله وتقواه وتحرير الإنسان من كل عبودية، سوى العبودية لله وحده. لكن أعداء الهداية ما لبثوا يضعون أصابعهم في آذانهم وأذان أقوامهم، يطمسون وعيهم خوفاً من داعي الحق وشمس الهداية والتحرير.

إن المستكبرين في كل زمان ومكان يعتبرون أنفسهم المرجح الأعلى في الفهم، وأنهم الميزان لكل ما يدور على أرضهم. تماشيًا مع القانون الذي يخدم هدمهم لسنة العدل الاجتماعي، فلا فهم إلا فهمهم ولا تقدير إلا تقديرهم. قال تعالى على لسان فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا آرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٢٦).

(٢) روح المعاني (١٣/ ١٦٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٧٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٧٣).

هذه القاعدة تعدها فرعون وألقى بها إلى المستقبل لتأخذ الأشكال والوجوه التي تلائم كل عصر من العصور.

وقد رأى المستكبرون عبر العصور أن أقوى سلاح للصد عن سبيل الله هو قطع شعاع الهدى، من خلال العمل على مصادرة حقائق النبوة، من خلال قولهم: ﴿ مَا نُرِيكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا ﴾ [هود: ٢٧] أي أنك مثلنا في البشرية ولو كنت رسولاً إلينا لم تكن كذلك. وهذا الموقف هو من جنس رفض الشيطان السجود لآدم. فرفض الطاعة هو من حقيقة رفض السجود، وصاحب حقيقة رفض السجود يطرح الرفض على أوليائه وفقاً للزمان والمكان. بمعنى أنهم يتكبرون من أساليب التنقيص من شأن دعاة الهداية ما يراعي خصوصية كل مقام.

وحتى يعزز دعاة الاستكبار موقفهم المناهض فإنهم يدعون أن الملائكة أخرى بحمل الرسالة من البشر. قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهُودِيٌّ جِنَّةٌ فَرَصَّ بِضُؤَابِهِ، حَتَّى جَاءَهُ ﴾ [المؤمنون: ٢٤، ٢٥].

وفي هذا مخالفة لسنة الله في خلقه؛ لأن الملائكة لا يمكن أن تنزل إلا على ملائكة يمشون مطمئنين على الأرض ومنسجمين مع الحركة الطبيعية للكون. قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥].

والمستكبرون إنما يسعون من وراء دعاويهم إلى إيجاد الأرضية النفسية والفكرية التي تكفل لهم التمويه على الناس، وتجعل لهم الكلمة العليا في المجتمع. ورغم البيان الساطع الذي يجريه الحق سبحانه وتعالى على لسان أنبيائه وأوليائه عبر تاريخ البشرية، فإن الشيطان لا يمل من الاستحواذ على عقول أتباعه وترويج ثقافة رفض الرسول البشر، تلك الثقافة التي وضع الشيطان حجرها الأساس يوم رفض السجود لآدم، وأصبح أتباعه عبر العصور يتفننون في تعريف المبدأ الشيطاني الصادر عن سبيل الله، فراحوا يتفننون في إنتاج ما يضيفي الزينة على ثقافتهم، معتمدين على الألاعيب العقلانية والحيل الفكرية الشيطانية التي تلهي عن حقيقة الوجود ونور الهداية.

وقد ظل الشيطان - إمام المستكبرين - يري تجربة الشذوذ والرفض ويطور أساليبه عصرًا بعد عصر حتى يجد أتباعه ما به يسندون ظهورهم ويحصنون مواقعهم.

الْبَحْثُ الثَّانِي

مظاهر الاستضعاف

أمام حجج أهل الحق الدامغة وأمام ثباتهم وتمسكهم برفع لواء الهداية ونصرة الرسالة، وعندما يجد أكابر المجرمين إصغاء المجتمع لنداء الحرية، يلوح في الأفق لواء العنف والتنكيل بغية قمع أهل النور وتخويف العامة.

فعندما يعجز صف الباطل عن تحقيق أي تقدم للقضاء على أهل الحق يتحرك مكر المستكبرين وتديبرهم واحتياهم لإيقاع الأذى برسول الله وأتباعهم بالتعذيب والتنكيل وتحريش الناس على أذاهم.

قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴾ [نوح: ٢٢]، وفي تفسير القرطبي: قيل مكرهم: تحريشهم سفاءهم على قتل نوح عليه السلام^(١). وإذا ما تصفحنا تاريخ البشرية نجد ألوانًا من الاضطهاد الذي وجه به المستضعفون بقيادة الرسل والأنبياء والدعاة إلى الله مع المستكبرين من أمثال فرعون وهامان وقارون ومن حذا حذوهم من بعدهم، فقرأ في كتاب الله تعالى اضطهاد قوم نوح لنوح، واضطهاد عاد لهود، واضطهاد ثمود لصالح، واضطهاد أهل مدين لشعيب، واضطهاد قريش لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه، واضطهاد كل أهل الكفر وأهل الباطل لأهل الحق وأهل الدعوة عبر التاريخ الإسلامي. إن رسالة التحرير الإسلامية رسالة تحرير شامل، ذلك التحرير الذي لا يقف عند حد التحرير الاقتصادي الاجتماعي، بل يتعداه إلى تحرير الإنسان من كل عبودية، إلا عبودية الله تعالى.

فإذا كان المستكبرون يتحصنون بالسلطة السياسية المتمثلة في امتلاك السلطان واحتكار الثروة، والسلطة المعنوية المتمثلة في الفرعونية والتأله، فإن بقاءهم رهين بمحاربة دعوة الحق، واستمرارهم على عروش الاستكبار رهين بالقضاء على من يهدد سلطنتهم المطلقة.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

وَمَلَأِيَهُمْ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٥، ٤٦﴾. علوهم في الأرض جعلهم ينظرون إلى موسى وهارون يخافون أن تكون لهما وقومهما الكبرياء في الأرض وأن ينازعوهم سلطتهم. وفي اتهام أهل الحق بالضلال قلب للحقائق، وتعزيز لموقف الصد عن سبيل الله. فإذا ما تعذر مجابهة الحق مباشرة فإن أعداء الدين يتكروون من أساليب الدهاء والمكر ما به يموهون على الناس ويلبسون عليهم الحقائق ويحدثون الخلل في موازينهم، حتى يتكروا الحق ويتصالحوا مع المنكر، ويوافقوا مفاهيم المستكبرين. فالإفساد في الأرض من وجهة أعداء الحق هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده حيث يترتب عليها تلقائياً بطلان شرعية فرعون ونظامه كله؛ إذ إن هذا النظام قائم على أساس ربوبية فرعون لقومه، إذن فهو يزعمهم الإفساد في الأرض، بقلب نظام الحكم وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع، الربوبية فيه لله لا للبشر^(١).

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

الاستهزاء والسخرية

هذه الوسيلة استخدمها المستكبرون من عهد نوح - عليه الصلاة والسلام - فقد ذكر القرآن الكريم أن الملائكة كانوا يسخرون منه عندما رأوه يصنع السفينة كما أمره الله، قال تعالى: ﴿وَصَنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْعِيَهُ مَلَأً مِنْ قَوْمِهِ، سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنِّي فَإِنِّي تَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

يقول سيد قطب: « ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمدون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم: إنه رسول ويدعوهم ويجادلهم فيطيل جدالهم. ثم ما هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً. إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر^(٢). وكان هدفهم من هذا الاستهزاء صرف الاهتمام عما يفعل نوح واستخدم هذا الأسلوب مع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم في جميع العصور؛ فقد قال الله تعالى مواسياً رسوله محمداً ﷺ بعد أن تعرض للسخرية والاستهزاء من أهل مكة: ﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذِّكْرِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/٦٠١).

(٢) في ظلال القرآن (٤/٥٤٦).

كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ [الانبيا: ٤١]، ويقول تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ [الزخرف: ٦، ٧].

وحدثنا القرآن الكريم عن صور من الاستهزاء الذي كان الرسول ﷺ يلاقيه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْجُذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَاءَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿ [الفرقان: ٤١].

ولقد كان محمد ﷺ ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته، فقد كان عندهم ذا مكانة من بيته، وهو من ذروة بني هاشم وهم ذروة قريش. وكان عندهم ذا مكانة من خلقه، وهو الملقب بينهم بالأمين، ولكنهم بعد البعثة وبعد أن جاءهم بهذا القرآن العظيم راحوا يهزؤون به ويقولون: أهذا الذي بعث الله رسولاً؟ وهي قولة سافرة مستنكرة... أكان ذلك عن اقتناع منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية، وأن ما جاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء؟ كلا، إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة، ومن أثر هذا القرآن الذي لا يقاوم^(١). وقد كانوا رغم باطلهم يسخرون من رسول الله ﷺ عندما يذكر لهم كلمة الحق، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَاتِنَا كَفَرُوا إِنَّا يَنْجُذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَاءَ الَّذِي بَدَعُوا إِلَهُاتِكُمْ وَهُمْ يَصِفُّونَ الرَّحْمٰنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿ [الانبيا: ٣٦].

فهم يقابلون الرسول ﷺ ويلقونه بالاستهزاء؛ لأنه ينال من أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، ويستكثرون عليه أن يذكرها بالسوء، ولا يستكثرون على أنفسهم وهم عبيد من عبيد الله، أن يكفروا به ويعرضوا عما أنزل لهم من القرآن، ويستهزئوا بنبيه ﷺ^(٢).

وكانوا يستهزئون بكل ما يحدثهم به الرسول ﷺ من أمور الغيب، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٧﴾ وَبَدَأْتُمْ سِحَاتًا مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ [الجناب: ٣٢، ٣٣].

وقد كانوا يستهزئون بأتباع الرسول ﷺ ويحطون من قيمتهم كما حدثنا القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ بَيِّنَاتٍ ﴿ [الأنعام: ٥٣].

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد فجلس إليه المستضعفون

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٥/٥٣٥).

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/١٦٣).

من أصحابه خباب وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرز، وصهيب وأشباههم من المسلمين هزئت بهم قريش. قال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، هؤلاء من الله عليه من بيننا بالهدى والحق؟ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به من دوننا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَذَا لَآءُ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣].^(١)

وقد ورد في سيرة النبي ﷺ صور كثيرة من استهزاء وسخرية أهل مكة برسول الله ﷺ وبما تجاء به، قال ابن إسحاق: فقال أبو جهل يوماً وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة، فيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلِكًا وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١].^(٢)

وأبو جهل نفسه، لما ذكر الله تعالى شجرة الزقوم تخويماً للكفار بها، قال ساخراً: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب^(٣) بالزبد، والله لأن استمكننا منها لتزقمنا^(٤)، ترقماً، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿١﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٢﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبَطْنِ ﴿٣﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].^(٥)

ومن صور الاستهزاء كذلك، ما ذكره ابن إسحاق قال: ومر رسول الله ﷺ فيما بلغني بالوليد بن المغيرة وأميه بن خلف وبأبي جهل بن هشام، فغمزوه وهمزوه واستهزؤوا به، فغاظه ذلك فأنزل الله تعالى عليه في ذلك: ﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِنْ بَلَدِكَ فَحَاكٍ بِالَّذِينَ أَسْحَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].^(٦)

(١) سيرة ابن هشام (١/٤٢٠).

(٢) سيرة ابن هشام (١/٣٣٦).

(٣) عجوة يثرب: نوع من التمر.

(٤) نترقمها ترقماً: نبتلعها ابتلاعاً.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (١/٣٨٦).

(٦) سيرة ابن هشام (١/٤٢٣).

وذكر ابن إسحاق أيضًا أنه عندما دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، قال له زمعة ابن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغوث، وأبي بن خلف، والعاص بن وائل - استهزاءً وسخرية - : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك^(١)، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكًا لَوَلَّوْنَا الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ (٨) ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

ومشى أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بال، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم؟ ثم فته بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا أقول ذلك، يعينه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار»^(٢). فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعْنِي الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) ﴿ قُلْ بُحَيِّبًا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَرْنَاهُ تُوْقِدُونَ ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠].

وأسلوب السخرية هذا استمر استخدامه بعد عصر الرسول ﷺ وحتى هذا الوقت. فكثير من وسائل الإعلام المشاهدة والمقروءة والمسموعة تبث وتنشر - ليلاً ونهاراً - ما تهاجم به الدين وأتباعه تصريحاً أو تلميحاً. والقصد من أسلوب السخرية هذا، تحقير الرسل وأتباعهم، ومن أتى بعدهم من الدعاة إلى الله تعالى وتهوين شأنهم في عيون الناس، حتى لا يكون لكلامهم تأثير في النفوس، ووقع في القلوب؛ ذلك لأن الشخص الذي يهزأ به ويسخر منه في عرف أهل الجاهلية، ضعيف العقل، قليل الإدراك، لا يسمع إليه، ولا يكثر بكلامه. وهم يسلكون هذا الأسلوب مع الدعاة وفي مقدمتهم الرسل والأنبياء، للفت في عضدهم، ولمحاربتهم نفسياً، حتى يضعف حماسهم لفكرتهم ودعوتهم، ويتراجعوا عما يدعون الناس إليه^(٣).



(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٥).

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٣).

(٣) الابتلاء والمحن في الدعوات، لمحمد عبد القادر أبو فارس (ص ٥٧).

المطلب الثاني

التضييق في الأرزاق وسبل العيش

وهذا أسلوب خطير آخر، يستخدمه المستكبرون مع المستضعفين، وهو أسلوب قديم، استخدمه الطغاة في مختلف العصور؛ حيث يصورون لمن هم تحت سلطانهم أن رزقهم وأسباب عيشهم في يد السلطان، وهو القادر على منعه وقطعه في أي وقت شاء. فهذا هو فرعون الطاغية يصور لقومه أن كل ما في مصر هو ملك له، وهو صاحب التصرف فيه، وحتى الأنهار وما ينتج عن جريانها من مرزوقات وغيرها له أيضاً، قال تعالى: ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

وإذا خدع الناس بمثل هذا الكلام فإنهم يخضعون للسلطان ويسلمون له في كل ما يريد. لذلك يقوم المستكبرون بالتضييق في الرزق على كل من يخالفهم، ليلقوا في روعه أن حياته ستتهي إن بقي على مخالفتهم ولم يخضع لهم في كل ما يريدون. وقد واجه المسلمون الأوائل حرب التجويع والتضييق في الرزق التي أعلنتها قريش للضغط على المسلمين للتخلي عن دينهم، وللضغط على بني هاشم وبني عبد المطلب للتخلي عن حماية الرسول ﷺ.

قال ابن إسحاق: « فلما رأَت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ، قد نزلوا بلدًا^(١) أصابوا به أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحزمة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا واتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: على أن لا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة، ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبني المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شعبه، فاجتمعوا إليه، وخرج

(١) المقصود: أرض الحبشة.

من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش فظاھرهم... فأقاموا على ذلك ستين أو ثلاثاً، حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلا سراً، مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش. وقد كان أبو جهل بن هشام - فيما يذكرون - لقي حكيم بن حزام ابن خويلد بن أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ في الشعب، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البخترى بن هشام بن الحارث ابن أسد، فقال: ما لك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال أبو البخترى: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه، أفمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل، قال: فأبى أبو جهل، حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البخترى لحي بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطفأ شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشتموا بهم. ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهازاً، مبادياً بأمر الله، لا يتقي فيه أحداً من الناس» (١).

ولا شك أن هذا الأسلوب من الحرب خطير جداً؛ لأن الإنسان عندما يجد نفسه محاصراً في رزقه، تسد كل السبل في طريقه، ولا يجد مخرجاً من ذلك، قد يضطر للرضوخ لمطالب وأوامر المستكبرين المتحكمين في هذا الأمر.

وقد اتبع أهل مكة أيضاً أسلوب مصادرة الأموال لزيادة الضغط على المسلمين عندما بدؤوا بالهجرة إلى المدينة المنورة؛ حيث لم يسمحوا لأحد منهم أن يأخذ معه شيئاً من ماله إلى المدينة، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاًً مِنَ اللَّهِ وَرِضواناً وَنُصْرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ويروى أن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، لما أراد الهجرة منته قريش من الخروج بماله، فترك لهم المال مقابل السماح له بالهجرة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهاتٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْغَافِلِينَ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

قال ابن كثير: «نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل. فنخلص منهم، وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاء عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف

الحرّة، فقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم، فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأجبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية^(١).

وقد تعرض خباب بن الأرت ﷺ للضغط والحرب في رزقه، قال ابن إسحاق: كان خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ قيناً بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع العاص ابن وائل سيوفاً عملها له، حتى إذا كان له عليه مال، فجاء يتقاضاه، فقال له: يا خباب ليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغي أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟ قال خباب: بلى، قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب، حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك، فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب أثر عند الله مني، ولا أعظم حظاً في ذلك^(٢).

وروى البخاري في صحيحه عن مسروق، قال: عن خباب بن الأرت قال: كنت قيناً في الجاهلية وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه، قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا أكفر حتى يملكك الله ثم تبعث. قال: دعني حتى أموت وأبعث فساوتني مالاً وولدًا فأقضيك، فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾^(٣) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿ [مریم: ٧٧، ٧٨] ^(٣).

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ

الإغراء

هذا الأسلوب لا يقل خطراً عن أسلوب التهديد والتعذيب؛ لأن النفس الإنسانية ميالة إلى حب التملك والسيطرة والشهرة؛ فقد تصمد بعض النفوس وتصبّر على الأذى والتعذيب، لكنها تنهار بسهولة أمام الإغراء والوعود بالمناصب والأموال الوفيرة والحياة الناعمة.

لذلك فإن المستكبرين أصحاب السلطة يستخدمون هذا الأسلوب مع المستضعفين الذين يريدون التخلص من وضعهم البائس والارتقاء إلى وضع أفضل، يحققون فيه طموحاتهم وآمالهم.

(١) السيرة النبوية (٢/ ٢٢٣).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٠).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ذكر القين والحداد (٦/ ٧٣٦).

وقد يستخدم هذا الأسلوب ابتداءً وفي اللحظة التي يبدأ فيها المستضعف العمل على تغيير وضعه ووضع المستضعفين معه؛ حيث تعرض عليه الأموال والمناصب مقابل السكوت، بل إن كثيراً من هؤلاء لا يكتفون بالسكوت عن المستكبرين فحسب بل ينقلبون ضد المستضعفين ويساعدون المستكبر في استكباره.

ويطلق عبد الرحمن الكواكبي على أمثال هؤلاء اسم (المتمجدون) - أي الذين يطلبون المجد والعلو من غير طريقه الصحيح - حيث يقول عنهم:

«المتمجدون يريدون أن يخدعوا العامة، وما يخدعون إلا أنفسهم، بأنهم أحرار في شؤونهم لا يزاح لهم نقاب، ولا تصفع لهم رقاب. فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد، بل للحرص على كتمها، بل على إظهار عكسها، بل على مقاومة من يدعي خلافها، بل على تغليظ أفكار الناس في حق المستبد، وإبعادهم من اعتقاد أن من شأنه الظلم. وهكذا يكون المتمجدون أعداء للعدل أنصاراً للجور، وهذا ما يقصده المستبد من إيجادهم والإكثار منهم، ليتمكن بواسطتهم من أن يغرر بالامة على إضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوقها مثلاً لحرب اقتضاها محض الاستبداد، فيوهما أنه يريد نصرة الدين، أو يسرف بالملايين من أموال الأمة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الأمة وأبهة ملكها، أو يستخدم الأمة في التنكيل بأعداء ظلمه باسم أنهم أعداء لها، أو يتصرف في حقوق الملك والأمة كما يشاء هو، باسم أن ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة»^(١).

وقد يستخدم أسلوب الإغراء بعد الضغط والتعذيب، بحيث يشعر المستضعف بالفرق الشاسع بين حياة القهر والتعذيب، وبين الحياة التي يعنيه بها المستكبر، فيتهيئ صبره، وتنهار عزمته، ويسيل لعابه أمام المنصب والمال.

وقد استخدم فرعون أسلوب الإغراء بالمنصب والمال مع السحرة الذين استعان بهم لمبارزة موسى - عليه الصلاة والسلام - حيث سألوه عن الأجر فوعدهم به وبأن يزيد على ذلك في أن يقربهم إليه ويصبحوا من خاصته، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٦٤﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤].

(١) طبائع الاستبداد (ص ٦٠).

فوعدهم بالمنصب زيادة في الإغراء، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد.

يقول سيد قطب عن هؤلاء السحرة أنهم: «جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة. وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائماً في كل مكان وفي كل زمان»^(١).

وهكذا نرى أن للمنصب والجاه بريقاً يبهر الأبصار بحيث يتخلى من يخدع به عن دينه وخلقه وأهله وشعبه من أجل الوصول إليه.

ولقد حاول سادة قريش إغراء الرسول ﷺ بالملك والمال لثنيه عن المضي في دعوته.

ذكر ابن إسحاق: أن عتبة بن ربيعة، وكان سيّداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة^(٢) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها... فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا الوليد أسمع». قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مآلاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مآلاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً، سودناك علينا حتى لا نقضي أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً، ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رتيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه^(٣). ولم يجب الرسول ﷺ على شيء من هذا الذي عرضه عتبة.

ويذكر ابن إسحاق أن زعماء قريش قاموا بعد فترة بمحاولة أخرى، بعد أن رأوا أن الإسلام أخذ يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء. من هؤلاء الزعماء

(٢) السطة: المنزلة الرفيعة.

(١) في ظلال القرآن (٦/٢٠٦).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٣٠١).

ابن حرب، والنضر بن الحارث وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، وأمّية بن خلف. وقد عرضوا على الرسول ﷺ نفس الأمور التي عرضها عتبة بن ربيعة سابقاً، فأجابهم رسول الله ﷺ: بقوله: « ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً.. »^(١).

والحقيقة أن هذا أسلوب خطير يجر الكثير من الناس، حتى بعض الذين يحسبون من أهل العلم؛ حيث إن رغبة بعضهم في الإمارة والزعامة، تجعلهم يلينون ويتراجعون عن دعوتهم ويغيرون ويبدلون. قال تعالى: ﴿ وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٣٧) ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَسَلَهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

يقول سيد قطب: « وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة الدين ثم يزيغ عنها ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسكان الأرض الزائل، يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً. لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ومن يقول إن التشريع حق من حقوق الله سبحانه من ادعاه فقد ادعى الألوهية، ومن ادعى الألوهية فقد كفر، ومن أقر له بهذا الحق وتابعه عليه قد كفر أيضاً. ومع ذلك، مع علمه بهذه الحقيقة التي يعلمها من الدين بالضرورة فإنه يدعو للطواغيت الذين يدعون حق التشريع، ويدعون الألوهية بادعاء هذا الحق، ممن حكم عليهم هو بالكفر، ويسميهم المسلمين، ويسمي ما يزاولونه إسلاماً لا إسلام بعده.

ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحرير الربا كله عامماً، ثم يكتب في حله كذلك عامماً آخر. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه »^(٢).



(٢) في ظلال القرآن (٣/٦٧٨).

(١) سيرة ابن هشام (١/٣١٥).

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ

السجن والتكئيل

حدثنا القرآن الكريم عن هذا السلاح عبر تاريخ الصراع بين الحق والباطل، ومن أباطرة الاستكبار الذين شهروه في وجه أهل الحق، فرعون الذي جعل منه أحد الأساليب للحد من دعوة موسى وقمع طموحها.

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَيْنَ أَخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْمَعَنَّكَ مِنَ السَّجُورِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

قال الشهيد سيد قطب: « فليس السجن عليه بعيد وما هو بالإجراء الجديد، وهذا هو دليل العجز وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد »^(١).

وهذا هو دأب المستكبرين في كل زمان ومكان؛ حيث دشن الطغاة الأوائل هذه الوسيلة بإبعاد أهل الحق عن مرأى ومسمع العامة، لطمس دعوتهم والنيل منهم. فقد كان فرعون يطرح معارضيه في هوة عميقة حتى يموتوا. ونفس الوسيلة تداولها صناديد قريش وجعلوا منها إحدى الخيارات للتخلص من دعوة سيدنا محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمُنْكَرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وهذه سنة الله فيمن اصطفاهم من عباده لحمل دعوته. فالله لا يترك مدعي الإيمان بلا تمحيص واختبار. قال تعالى: ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۗ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ الَّذِينَ كَذَبُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا ۗ ﴾ [العنكبوت: ٢٣٠].

ولا يكفي المستكبرون بسجن أعدائهم بل يتفنون في إلحاق ألوان التكئيل والعذاب بهم، فقد تحمل من قبلنا في طريق الحق الأذى، والقتل والتعذيب. ومن أسطع الأمثلة التي سردتها السيرة النبوية بلال بن رباح وآل ياسر وخباب وغيرهم. وكان رسول الله ﷺ في البطحاء إذ بعمار وأبيه وأمه يعذبون في الشمس ليرتدوا عن الإسلام فكان يصبرهم ويدعو لهم بالمغفرة ويبرهم بالجنة.

« أخرج أبو أحمد الحاكم عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال: مر

رسول الله ﷺ يباسر وعمار وأم عمار وهم يؤذون في الله تعالى فقال لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»^(١). وطعن أبو جهل سمية في قلبها فماتت ومات أبو ياسر في العذاب. وكان المشركون يأخذون بلال بن رباح رضي الله عنه ويبطحونه على الرضاء في حر مكة، ويلقون على بطنه الصخرة العظيمة ثم يأخذونه ويلبسونه في ذلك الحر الشديد درع حديد، ويلصقون في عنقه حبل يسلمونه إلى الصبيان يطوفون به^(٢).

لم يدخر معسكر الانحراف جهداً في الصد عن سبيل الله، وفي المقابل كان رسول الله ﷺ يبحث المؤمنين على الصبر في مواجهة جحافل الليل المغير، تحت قيادة الجبابرة الذين ورثوا من القرى الظالمة تحقير المستضعفين من عباد الله. لقد أرادوا أن تطرد هداية الله من بينهم، فلم تكتف الأيادي الظالمة بما ألحقته بالمستضعفين في مكة، بل عملت بعد الهجرة على ترصد كل من يقول ربي الله، فإذا سمعوا عن أحد ووقع في أيديهم فإما أن يقتل أو يشرد. ذكر صاحب أنساب الأشراف: «أن خباب بن الأرت رضي الله عنه لما علمت مولاته أم أنمار بنت سباع بإسلامه عذبه بإحماء الحديد على النار ثم وضعته على رأسه^(٣)، ويحكى خباب ما لقيه من تعذيب على أيدي المشركين فيقول: لقد رأيتني يوماً وقد أوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري، فما أتيت الأرض إلا بظهري، ثم كشف خباب ظهره لعمر بن الخطاب فإذا هو قد برص»^(٤).

إن من سنة الله في عباده المؤمنين، الداعين إليه، المجاهدين في سبيله أن يتلوا بأنواع البلاء، ومنه البلاء في أنفسهم بالقتل والجرح والأسر.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ سَتَنْثَمُّهُمُ الْبِئْسَاءُ وَالْقُرَّةَ وَزُرُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ الْآلَ إِنَّا نَصَرُ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿١﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال القرطبي: «نزلت الآية تسلياً للمهاجرين حيث تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين وآثروا رضا الله ورسوله، فأنزل الله تعالى تطييباً لقلوبهم، واستدعاهم الله

(١) المستدرك على الصحيحين (٤٣٢/٣) رقم الحديث (٥٦٤٦).

(٢) أنساب الأشراف، للبلاذري (٧٥/١).

(٣) المصدر نفسه (١٧٨/١).

(٤) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤٢٩/١).

تعالى إلى الصبر ووعدهم على ذلك بالنصر^(١).

ومن سنن الله في ابتلاء أهل الحق أن يكون البلاء على قدر حظ صاحبه من ربه، وتمسكه بدينه؛ فقد أخرج الترمذي في جامعه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلماً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة^(٢)». فكلما كان المؤمن صلماً في دينه قوياً في إيمانه كان أكثر جهاداً في سبيل الله فيكون أكثر عرضة لبطش أعداء الحق. وفي الابتلاء فائدة عظيمة للجماعة المسلمة، فالله تعالى يمتحن أفرادها بضروب المحن حتى يختبر صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم وصدق إيمانهم، حتى يتميز المخلص من غير المخلص والصادق من الكاذب والمستمسك بدينه من المذبذب فيه. وهذه السنة عامة في كل مدعي الإيمان؛ ولهذا فقد امتحن الله أتباع الأنبياء - عليهم السلام - بأنواع المحن، فلا وجه لتخصيص المسلمين بعدم الامتحان، فسنة الله في هذا الابتلاء ماضية فيهم كما مضت فيمن سبقهم من المؤمنين، أتباع الأنبياء السابقين.

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الاحزاب: ٦٢]، وقال أيضاً: ﴿لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] فهي مطردة لا تتخلف حتى يعتبر اللاحق بأحوال من سبق.

وإذا كان المبدأ الذي بسببه يطرد تنكيل المتكبرين بأهل الحق واحد، فإن الأشكال تختلف وتتطور بحسب تطور العصر. فيعمل أعداء الدين على ابتكار الأساليب الجديدة، مستفيدين مما يوجد به الزمان من إبداعات نظرية وعملية لقمع الحق وأهله؛ حيث أصبح تعذيب المستضعفين يأخذ شكلاً حضارياً مع مرور الزمان، فباسم محاربة الإرهاب تباد شعوب بأكملها، وباسم الشرعية الدولية يتدخل الاستكبار العالمي في كل قضايا الأمة ويوجهها بما يخدم مطامعه الشيطانية، وباسم حقوق الإنسان يذبح الإنسان المسلم وتنتهك حرمان الدين. وتحت يافطة كل موضة من ميزات العصر يتم تجريم الشعوب الإسلامية المغلوبة على أمرها. وباسم الحفاظ على أمن الدولة يعتقل ويعذب كل

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٤).

(٢) جامع الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله، باب: ما جاء في الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١).

من تشم فيه رائحة خدمة الدين ونصرة القضايا العادلة للأمة. وفي السجون الخاصة يلقي الأبرياء من أبناء الأمة ألوان العذاب على أيدي أرامل الأيديولوجيات البائرة وبمباركة من رعاة الاستكبار العالمي، وباسم الدفاع عن المستضعفين يذبح المستضعفون.

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ

النفي والتشريد

من الأساليب التي يعتمدها المستكبرون في النيل من خصومهم، النفي عن الوطن، فعندما يعجزون عن إخضاع الناس لدعوتهم فإنهم لا يجدون بداً من إخفائهم عن العيون إما بالسجن أو بالطرد من الوطن. وهذا الأسلوب يتكرر بتكرار الصراع بين الحق والباطل، وفيه الأثر النفسي البليغ؛ حيث البعد عن الأرض والأهل وترك المصالح. فالمستكبرون على مر التاريخ ظلوا يخيرون دعاة الحق بين الرجوع عن دعوتهم وبين طردهم من أرضهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣].

قال الشوكاني: « لم يقنعوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعواهم إليه حتى اجترأوا عليهم بهذا، وخيروهم بين الخروج من أرضهم، أو العود في ملتهم الكفرية، وقد قيل: إن (أو) في (أو لتعودن) بمعنى حتى، بمعنى أن لن يتراجعوا عن قرار طردهم من الوطن حتى يتراجعوا عن معتقدتهم الجديد ويرجعوا إلى الملة الكفرية»^(١).

وقد حكى القرآن الكريم اطراد أهل الاستكبار في عاداتهم هاته، ووردت وقائع تهدد أهل الحق بالنفي من الوطن في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الاعراف: ٨٨].

قال الشوكاني: « لم يكتفوا بترك الإيمان والتفرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك بغياً وبطراً وأشراً إلى توعد نبيهم ومن آمن به بالإخراج من قريتهم، أو عودته هو ومن معه في ملتهم الكفرية، أي: لا بد من أحد الأمرين: إما الإخراج أو العود»^(٢).

(٢) فتح القدير (٥٥/٢).

(١) فتح القدير (٩٩/٣).

هذا الأسلوب من المساومة والتهديد يتردد على ألسنة أكابر المجرمين؛ فقد قرر أهل الشذوذ من قوم لوط طرد نبيهم من قريتهم بعد أن رفض السير على نهجهم وأصر على دعوة الطهر والفضيلة.

قال تعالى: ﴿ وَطُوبَىٰ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبَنَاتِ ۗ أَلَيْسَ لِقَوْمٍ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿ [الأعراف: ٨٠ - ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخُرُوجِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وقال تعالى في سورة النمل أيضاً: ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ ۗ لَوْ لَطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

قال سيد قطب - رحمه الله - : هذه الحلقة القصيرة من قصة لوط تجيء مختصرة تبرز همَّ قوم لوط باخراجه؛ لأنه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفق وتعارف وعلانية. فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال وترك النساء، على غير الفطرة التي فطر الله الناس عليها^(١).

لقد لوح أعداء الفطرة بالحرب الصارمة في وجه رسول الله، وأخبروه بأنه إذا لم يكف عن مواظبه ونهيه إياهم من ترك ما هم عليه فسيكون مصيره النفي من قريتهم، والغريب في أمر قوم لوط مع نبيهم أنهم وضعوا ما ليس بجواب موضع الجواب، وفي هذا دلالة على غيهم وفساد رأيهم.

كما هددت مدين شعيباً عليه السلام بالطرد من أرضهم إن لم يتراجع عن دعوته. ويتكرر التخيير بين الرجوع عن دعوة الحق وبين النفي والتشريد على ألسنة أكابر المجرمين في كل زمان ومكان. إنه التراث الشيطاني الذي يجعل منه المتكبرون فقههم ومرجعهم في الفهم والسلوك. قال تعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ آسَئُوا مِنْ قَوْمِهِ لَخَرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨]، فبعد أن خاطب شعيب عليه السلام قومه بدعوة الهداية وبين لهم مسالك الحقائق التي غفلوا عنها، كان ردهم رد من أليف المكر واستمسك بتراث آبائهم وضلالاتهم: ﴿ قَالُوا يَشْعَبُ

أَصَلُّوْكُمْ تَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتْرُكُوا مَا يَعْْبُدُونَ ءَابَآؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿ [هود: ٨٧].

وبعدما واصل شعيب إصراره على دعوتهم إلى التوحيد والكف عن الإفساد جاء تهديدهم إياه بالطرده من أرضهم إن استمر على نهج الإصلاح ومعارضة ما هم عليه؛ ولذا بادر **الظنل** بعد استماع هذا القول منهم إلى الاستفتاح من الله سبحانه. فعندما بلغ الكلام هذا المبلغ، وأخبر الذين كفروا طائفة الحق بعزمهم على أحد أمرين: الإخراج أو العودة إلى ملتهم، أخبرهم شعيب **الظنل** بالعزم القاطع على عدم العودة إلى ملتهم والتجأ إلى ربه بقوله: ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهذا هو الحكم الفاصل، فإن الفتح بين شيئين يقتضي إبعاد كل منهما عن الثاني حتى لا يتماسا. ولما جاء النبي الخاتم، لم تكن خصاله الكريمة لتمنعه من كيد طابور الانحراف؛ فقد نال نصيبه من الطرد والنفي؛ حيث ورد ذكر إخراجه قبل البعثة وأثناءها. ولم يكن هذا بدعة زمانه، بل سنة الله المطردة في كل زمان ومكان. فالمستكبرون لا يطيقون أن يروا الدعوة تنمو على مرأى ومسمع من الناس، ويستفزه إقبال الناس عليها لأن في نجاح دعوة الحق نخر لمعاقلهم وزعزعة لكياناتهم ومكانتهم؛ لذلك كان الإخراج هو الأسلوب الأنجع للتخلص من حملة رسالة التحرير والعدل على الأرض، وسبب الإخراج واحد لا ثاني له.

قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْجِدُوا عَدُوِي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَآءَ تَلْفُوتَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [المنحة: ١]، لقد أرادوا أن تخرج دعوة الحق والنور من بينهم، والله تعالى لا يريد أن تخرج هدايته إلا بعد أن يقيم حجته على أعدائه. وبعد أن أقامت الدعوة حجتها عليهم أمر تعالى رسوله بالخروج من مكة مهاجراً هو ومن معه. يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي بِلَدِنَا فَآوِجِ إِلَىٰ رَبِّكُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [التكوير: ٣٦] ولَنَسْكُنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقد وردت آيات أخرى في ذكر إخراج كفار قريش للرسول الكريم ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ [الإسراء: ٧٦]، وهذه الآية تتضمن القيام بما يحمله الرسول الكريم في حرج وضيق حتى يخرج مكرهاً ولا يتردد لحظة في الهرب.

وجاء في «اللسان»: «ليستفزونك: أي ليستخفونك إفزاعًا يحملك على خفة الهرب»^(١). وقد ورد ذكر خبر إخراجه في الآثار السابقة، فبعد أن أخبر النبي الكريم ﷺ زوجه خديجة بنزول الوحي عليه، ذكرته هذه الأخيرة بشمائله العظيمة وحظه من الله تعالى. وقال ابن كثير: انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية، كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى يا ليتني فيها جذعًا ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟» فقال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا...»^(٢).

الْمَطْلَبُ الثَّاسِعُ

الإعدام الفردي والجماعي

كثيرًا ما يجد المستكبرون أنفسهم عاجزين عن مقابلة دعوات المستضعفين بالحجة والدليل والبرهان. وكثيرًا ما تفضل محاولات التشويه، أو التهديد، أو الإغراء، أو السجن، التي يستخدمونها ضد المستضعفين. عندها يلجؤون إلى القتل بمختلف صوره وأشكاله، ضد الأفراد وضد الجماعات، إطفاء لغيظهم وإظهارًا لقوتهم وبطشهم، وإرهابًا للناس، ظنًا منهم أن هذا يمكن أن يوقف دعوات الإصلاح، ويحفظ لهم سلطانهم ومكانهم بين الناس.

ولو رجعنا إلى الفجر الأول للبشرية لوجدنا أن المستكبرين في ذلك الزمن البعيد كانوا يستخدمون القتل ضد مخالفهم؛ فقد هدد قوم نوح نبيهم نوحًا - عليه الصلاة والسلام - الذي جاء يدعوهم إلى خير الدنيا والآخرة، هددوه بالقتل رجماً، وهو من أشنع أساليب القتل. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْفَعُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا ﴿١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٢٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ

(١) اللسان: ١: فرز ٤.

(٢) البداية والنهاية (٣/٣).

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٥﴾ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ لَكَ وَالِدًا وَنَحْنُ عَلَيْكَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ جَسَابِهِمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤَمِّنِينَ ﴿١٠٨﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٩﴾ قَالُوا لَيْنَ لَرَنَسِهِ يَنْتَوُحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٠﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١١٦].

فلما أن واجههم نوح عليه السلام بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم، وعجزوا عن المضى في الجدل بالحجة والبرهان، لجؤوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان، لجؤوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان عندما تعوزهم الحجة ويعجزهم البرهان^(١).

ونفس الأمر كان من قوم شعيب عليه السلام، عندما عجزوا عن دفع دعوة شعيب بالحجة والبرهان لجؤوا إلى التهديد بالقتل، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَعُكَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَا نَرَاهُكَ لِرَجْمَتِكَ رَجْمَتًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١].

وقد وقف إبراهيم عليه السلام فردًا أعزل لا حول له ولا قوة أمام طغيان قومه يدعوههم إلى الله تعالى، حتى إذا قام بتحطيم الكهنتهم، حكموا عليه بالموت حرقًا، قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وقد استخدم فرعون أسلوب القتل أشجع استخدام؛ حيث تجاوز قتل الكبار إلى قتل الأطفال الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة، ولا جريمة لهم ولا خطيئة، ولكن الطاغية مستعد للقيام بأي فعل مهما كان شنيعًا وبشعًا في سبيل المحافظة على سلطانه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِيعُ أُنْيَاءَهُمْ وَسَتَجِيءُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصاص: ٤].

وقد كان الملا المستكبرون من قوم فرعون يحرضونه ضد موسى عليه السلام وأتباعه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُنَ مَوْسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُوا مَوَالِدَهُمْ قَالَ سَنَقْتُلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَجِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/٢٦٦).

وعندما أعلن السحرة إيمانهم بموسى، أصدر فرعون أمراً بصلبهم وتقطيع أطرافهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَسْتَوِي بِهِ قَبْلَ أَنْ أأذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَا قِطْمَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ ثُمَّ لِأَصْلَيْتِكُمْ أجمعين ﴿ [الأعراف: ١٢٤، ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ مَا أَسْتَوِي لَهُ. قُلْ أَنْ أأذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَرِيمٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِيمُونَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ وَلَأَصْلَيْتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَدَاوًا وَأَبغى ﴿ [طه: ٧٦].

وأما بنو إسرائيل، فبعد أن مكن الله لهم في الأرض، فقد انحرفوا عن منهج الله واستكبروا، وسلخوا نهج غيرهم من المتكبرين، فقتلوا أنبياءهم، وقتلوا من كان يدعو إلى الحق فيهم، قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿ أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿ [البقرة: ٨٧].

فبعد أن نجاهم الله تعالى من فرعون، اتخذ اليهود عجباً من الذهب يعبدونه من دون الله، مستغلين فترة غياب موسى لمناجاة ربه، عندما نهاهم هارون عليه السلام عن عبادة العجل، أخذتهم العزة بالإثم وأرادوا قتله، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْمًا قَالَ يَبْنَؤُا خَلْقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقُوا الْأَلْوَابِحَ وَأَخَذُوا بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ [الأعراف: ١٥٠].

والمستكبرون قد يقومون بعملية القتل والإبادة الجماعية إذا تطلب أمر المحافظة على سلطانهم ذلك. وقد حدثنا القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود الذين قاموا بحرق مجموعة من المؤمنين بسبب إيمانهم ورفضهم العودة في الكفر. قال تعالى: ﴿ وَالنَّمْلَةَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالنَّوْمِ الْوَعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ انصَبْ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُجُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿ [البروج: ١ - ٨].

يقول سيد قطب في كتابه: «معالم في الطريق»: إنها قصة فئة آمنت بربها، واستعملت حقيقة إيمانها، ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين بطاشين مستهترين بحق الإنسان في

حرية الاعتقاد بالحق، والإيمان بالله العزيز الحميد، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى الطغاة بآلام تعذيبها، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحريق، وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة، فلم ترسخ لتهديد الجبارين الطغاة ولم تفتن عن دينها، وهي تحرق بالنار حتى تموت... هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبالات الطغاة وارتكست في هذه الحمأة، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط، فالوحش يفترس ليقنات، لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسة^(١).



الفصل الثالث

جزاء المستكبرين والمستضعفين في القرآن الكريم

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: جزاء المستكبرين.

المبحث الثاني: جزاء المستضعفين.

وعن هؤلاء يدور كلامنا في هذا المبحث، إلا أن البداية ستكون بعقاب الله لكبير المستكبرين، إبليس، الذي طرده سبحانه من رحمته وجعله من الصاغرين، بعد أن استكبر عن أمر الله بالسجود لآدم. لتتوالى بعده مسيرة الانحراف وليطرد معها عقاب الله وأخذه للأمم المستكبرة بالنكال والاستئصال في الدنيا وعذاب الخزي والهوان في الآخرة.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

الجزء الدنيوي

أولاً: الطرد من رحمة الله والصغار واللعنة:

هذا العقاب ناله إبليس - لعنه الله - لما استكبر ورفض السجود لآدم عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٣٧﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٨﴾ [الاعراف: ١١ - ١٣] ^(١).

وقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٣٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٤١﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٣﴾ [ص: ٧١ - ٧٨] ^(٢).

فلما كان امتناعه من السجود لسبب ظهور تفوقه على آدم عند نفسه قابله الله بالهبوط المشعر بالنزول من علو إلى أسفل. «عاقبه الله على ما برز من نقصانيته، فخالف ما كان من طريقته، فأطرده من الملا الأعلى ومن الجنة... وفرع أمره بالخروج من الجنة بالفاء على ما تقدمه من السؤال والجواب؛ لأن جوابه دل على كون خبث في نفسه، بدت آثاره في عمله، فلم يصلح لمخالطة أهل الملا الأعلى» ^(٣)؛ لأن المكان كان مكاناً مقدساً فاضلاً، لا يكون إلا مطهراً من كل من له وصف ينافيه.

(٢) فتح القدير (٢/ ١٩٢).

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٥).

وجعله الله من الصاغرين بقوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَاكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ واستعمال هذه الصيغة أشد في إثبات الصغار له من نحو: إنك صاغر أو قد صغرت.

والصغار: الذل والحقارة؛ وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار فجوزي بصد المعصية التي عصا بها. « وهكذا كل من تردى برداء الاستكبار، عوقب بلبس رداء الهوان والصغار. ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع »^(١). قال رسول الله ﷺ: « من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر وضعه الله فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير حتى لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير »^(٢).

وختم باللعة بقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ و « اللعنة: الإبعاد من رحمة الله، وأضيفت إلى الله لتشنيع متعلقها وهو الملعون؛ لأن الملعون من جانب الله وهو أشنع ملعون. وجعل ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ غاية اللعنة للدلالة على دوامها مدة هذه الحياة كلها، ليستغرق الأزمنة كلها، وليس المراد حصول ضد اللعنة له يوم الدين، أعني الرحمة؛ لأن يوم الدين يوم الجزاء على الأعمال، فجزاء الملعون العذاب الأليم كما أنبأ بذلك التعبير بـ ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ دون: يوم يبعثون، أو يوم الوقت المعلوم »^(٣).
ثانياً: الريح العاتية:

عوقبت بها عاد. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُصْزَوْنَ ﴿١٦﴾ [فصل: ١٦، ١٥].

لقد قهرت الريح الذين فشوا في الأرض واستكبروا فيها وقهروا أهلها تحت شعار (من أشد منا قوة؟) جاءتهم مسخرة من الله عليهم في أيام نحس، فدمرت قصورهم وحصونهم ومداتهم ودمرت كل شيء ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾. « إنه الخزي في الحياة الدنيا، الخزي اللائق بالمستكبرين، المتباهين، المختالين »^(٤).

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور: « ... فأشارت الفاء إلى أن عقابهم كان مسيئاً

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٧٦/٦).

(١) فتح القدير (١٩٢/٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠٥/٢٣).

(٤) في ظلال القرآن (٣١١٨/٥).

على حالة كفرهم بصفتها، فإن باعث كفرهم كان اغترارهم بقوتهم، فأهلكهم الله بما لا يرتقب الناس الهلاك به، فإن الناس يقولون للشيء الذي لا يؤبه به: هو ريح، ليريهم أن الله شديد القوة وأنه يضع القوة في الشيء الهين مثل الريح، ليكون عذاباً وخزياً، أي تحقيراً كما قال: ﴿لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْفِرْي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [نصت: ١٦] وأي خزي أشد من أن تترامهم الريح في الجوم كالريش، وأن تلقبهم هلكى على التراب عن بكرة أبيهم فيشاهدهم المارون بديارهم جثثاً صرعى قد تقلصت جلودهم وبلبت أجسامهم كأنهم أعجاز نخل خاوية^(١).

و «الصرصر»: الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة، أي دوي في هبوبها من شدة سرعة تقلعها. وتضعيف عينه للمبالغة في شدتها بين أفراد نوعها^(٢).

ومعنى وصف الأيام بالنحسات «أنها أيام سوء شديد أصابهم وهو عذاب الريح، وهي ثمانية أيام كما جاء في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ١٧]. فالمراد أن تلك الأيام بخصوصها كانت نحساً وأن نحسها عليهم دون غيرهم من أهل الأرض؛ لأن عاداً هم المقصودون بالعذاب^(٣).

لقد بين الله أن عاداً كانوا من التمكن على درجة عالية لم تكن للمشركين من بعدهم، وكان لهم من أدوات الإدراك والتمييز ما يستطيع به الإنسان الاحتيال لدفع المكارِه وابتقاء الحوادث المهلكة، لكن هذا كله لم يغن عنهم شيئاً ولم تففعهم قوتهم عندما استكبروا ووجدوا آيات الله، فما الذي يؤمن المستكبرين من عذاب الله وهم جاحدون لآيات الله. يقول تعالى بعد أن أخبر عن هلاك عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحاف: ٢٦، ٢٧].

ثالثاً: الرجفة:

حل هذا النوع من الجزاء بشمود قوم صالح ويمدين قوم شعيب - عليهما السلام - .

(٢) المصدر نفسه (٢٤/٢٥٩).

(١) التحرير والتنوير (٢٤/٢٥٩، ٢٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/٢٦٠).

قال تعالى في شأن ثمود: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمَا لِيَمُنَّ بِيَوْمِهِمْ أَنْ يَنْصَلِحُوا لَهُمْ لِيَأْخُذَهُمْ بِالْأَيْدِي أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الاعراف: ٧٥ - ٧٨].

و «الرجفة: اضطراب الأرض وارتجاجها فتكون من حوادث سماوية كالرياح العاصفة والصواعق، وتكون من أسباب أرضية كالزلازل. فالرجفة اسم للحالة الحاصلة، وقد سماها في سورة هود «بالصيحة» فعلمنا أن الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضهم وأهلكتهم صعقين ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضية..

والجائم: المكب على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثو الأرنب، ولما كان ذلك أشد سكوناً وانقطاعاً عن اضطراب الأعضاء استعمل في الآية كناية عن همود الجثة بالموت. ويجوز أن يكون المراد تشبيه حالة وقوعهم على وجوههم حين صعقوا بحالة الجائم تفضيلاً لهيئة ميتهم، والمعنى أنهم أصبحوا جثاً هامدة ميتة على أشبع منظر لميت»^(١).

لقد رفعوا رقابهم أمام صالح عليه السلام وتناولوا على الذين آمنوا فجعلهم الله في ماتهم ساقطين على وجوههم وركبهم. ولقد شيدوا دورهم ومسكنهم داخل الصخور وتناولوا بها على المستضعفين من الذين آمنوا ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الاعراف: ٤٤] ﴿ فَأَسْطَلُّوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴾ [الذاريات: ٤٤، ٤٥].

«الرجفة والجنوم، جزاء مقابل للعتو والتبجح، فالرجفة يصاحبها الفزع والجنوم مشهد للعجز عن الحراك، وما أجدر العاتي أن يرتجف وما أجدر المعتدي أن يعجز، جزاءً وفاقاً في المصير»^(٢).

بقي أن نشير إلى أن وقوع جملة ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ ﴾ معترضة بين جملة ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ وبين جملة ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ [الاعراف: ٧٩] أريد به التعجيل بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم بعقب عتوهم، فالتعقيب عرفي، أي لم يكن بين العقر وبين الرجفة زمن

(١) التحرير والتنوير (٨/٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) في ظلال القرآن (٣/١٣١٤).

طويل، كان بينهما ثلاثة أيام كما ورد في آية سورة هود: ﴿فَمَقَرُّهَا فَقَالَ مَا تُمْنَعُونَ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿١٥﴾﴾.

وأصل الأخذ تناول شيء باليد، ويستعمل مجازاً في ملك الشيء بعلاقة اللزوم، ويستعمل أيضاً في القهر، كقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: ١١]، ﴿فَأَخَذَهُمُ أَخَذَهُ رَبِّيَّةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ١٠]، وأخذ الرجفة: إهلاكها إياهم وإحاطتها بهم [حاطة الأخذ] (١).

ومثل هذا العقاب جوزي به قوم شعيب. قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِنَّا قَالُوا لَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ قَدْ أَفْرَتْنَا عَلَى اللَّهِ كِدَابًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَبَدَّ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَمَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاصِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَبِئْسَ أَتَّبَعْتُمْ شَعِيبًا إِذْ أَخْبَرُونَا ﴿٩٠﴾﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٩١].

رابعاً: الإهلاك غرقاً:

هذا الجزء عاقب به الله تعالى فرعون وملاه على استكبارهم وعتوهم. يقول سبحانه: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فَأَخَذْتَهُمْ وَخَرَدَهُمْ فَبَدَّنَهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [التقصم: ٣٩ - ٤٢].

ويقول أيضاً: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ بِإِسْرَائِيلَ بِلْسَانِكُمْ وَقَوْمُهَا لَنَا عَنِيدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ فَكَذَّبُوهُمْ فَاثْنَوْا مِنَ الْمُهَلْكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٨].

وفي سورة العنكبوت قال ﷻ: ﴿وَقَرُونَا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَقْنَا بِهِ

الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾

لم يستطع فرعون أن يواجه حجة موسى ومعجزاته القاهرة، ولم تزد دعوته إلا تطاولاً وطغياناً، وبلغ به الاستكبار أن قال: ﴿ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن يتوجه إلى ربه ويستنصره. قال تعالى: ﴿ إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧]، فأنزل الله عذابه على من بغى واستطال بجبروت الحكم والسلطان.

وتجدر الإشارة إلى * أنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون، وهو يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم، لم تندخل يد القدرة لإدراك المعركة. فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلاً واستكانة وخوفاً، فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب، وهم مرفوعو الرؤوس، يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون، دون تلجلج ودون تحرج ودون اتقاء التعذيب، فأما عند ذلك فقد تدخلت القدرة لإدارة المعركة وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب^(١).

خاصة: الخسف:

هذا العقاب سلطه الله تعالى على قارون الذي استبد واستكبر وطغى بما كان يملك من أموال، لقد كانت له سلطته المالية الطاغية، التي أحدثت من الفتنة والفساد ما فاق به غيره من المترفين، واعتبر المال بديلاً لكل القيم والمبادئ والمعايير والأهداف السامية، وسيلاً إلى القهر والحرمان والطغيان، وعوض أن تكون وظيفة المال هي الإصلاح في الأرض والإعمار فيها كانت - حسب المنطق القاروني - الإفساد فيها والاستعلاء على أهلها، بل ومواجهة كل دعوة تقف مواجهة لهذا المشروع.

قال تعالى: ﴿ وَقُرُونُ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَكَانُوا كَانُوا سَاقِيَةً ﴾

فقارون يجسد: * الصورة الحية للإنسان الذي يمثل المال في حياته قيمة كبرى، تتضخم بها شخصيته وتتفخح بها ذاته، فيستمر بالزهو والغرور الذي يملك عليه كل

مشاعره وأفكاره، حتى إنه لينسى ربه فينسى من خلال ذلك نفسه، ويتعاطم إلى المستوى الذي يرى فيه نفسه فوق الناس، وتتساقط أمامه كل القيم والأخلاق، وتتضاءل لديه كل المسؤوليات والواجبات، ويزحف المال إلى كل خلية من خلايا فكره ووعيه وضميره، فيسد عليه كل نوافذ الخير ويسدل على عينه غشاوة الضلال، فتختلط الأشياء في ذهنه، فلا يعود يبصر إلا من خلال المال، ولا يفكر إلا في هذا الاتجاه^(١).

لكن عندما تبلغ الفتنة ذروتها وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تأتي النهاية، فتدخل يد القدرة الإلهية لتضع حدًا لها وترحم الناس الضعاف من إغرائها وتحطم الغرور والكبرياء تحطيمًا، قال تعالى: ﴿ فَحَسَفْنَا بِهٖ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ، مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذَّبُ اللَّهُ بِسُطِّ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُطِيعُ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ [الفصل: ٨١ - ٨٣].

«والخسف انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها وعكسه، يقال: خسفت الأرض وخسف الله الأرض فانخسفت، فهو يستعمل قاصرًا ومتعدبًا، وإنما يكون الخسف بقوة الزلزال... والباء في قوله: ﴿ فَحَسَفْنَا بِهٖ ﴾ باء المصاحبة، أي خسفنا الأرض مصاحبة له ولداره فهو وداره مخسوفان مع الأرض التي هو فيها... وهذا الخسف خارق للعادة؛ لأنه لم يتناول غير قارون ومن ظاهره^(٢).

وهكذا ابتلعت الأرض قارون وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها، جزاء وفاقًا، وذهب ضعيفًا عاجزًا لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال، وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت الناس^(٣).

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «... حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه^(٤).



(١) الحوار في القرآن (ص ٣٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٨٥).

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: ناقة النبي ﷺ (٣/ ١٠٥٣).

الْمَطْلَبُ الثَّانِي

الجزاء الأخروي

بعد هذا الأخذ الدنيوي، تنتظر المستكبرين حسرة لا قبل لهم بها، قال تعالى:

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مریم: ٢٩].

لقد وعدهم الله العذاب الأليم يوم القيامة، لا يجدون ولياً ينقذهم ولا نصيراً ينصرهم. يقول الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٣].

فإنه سبحانه لما ذكر أنه يحشر هؤلاء المستنكفين المستكبرين، لم يذكر ما يفعل بهم بل ذكر أولاً ثواب المؤمنين المطيعين فقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا فَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَالْأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [النساء: ١٧٣]. ثم ذكر بعد ذلك عقاب المستنكفين المستكبرين فقال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ وإنما قدم ثواب المؤمنين على عقاب المستنكفين؛ لأنهم إذا رأوا أولاً ثواب المطيعين ثم شاهدوا بعده عقاب أنفسهم كان ذلك أعظم في الحسرة^(١).

ووصف سبحانه هذا العذاب في آية أخرى بالعذاب الهون فقال: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ سُلُوكُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزِرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الاحقاف: ٢٠].

والعذاب الهون هو العذاب الذي فيه ذل لهم وخزي عليهم^(٢)، جوزوا به لما استكبروا عن عبادة الله والإيمان به، واستعلوا على أهل الأرض بغير استحقاق. لقد جوزوا من جنس عملهم، فكما نعموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والألام الموجعة والحسرات المتتابة والمنازل في الدرجات المفضعة^(٣).

(٢) فتح القدير (٥/٢١).

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١١/١٢١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/١٦٢).

وإضافة العذاب إلى الهون لإفادة ما تقتضيه الإضافة من معنى الاختصاص والملك، أي العذاب المتمكن في الهون الملازم له^(١).

ووصف هذا العذاب بالخزي في قوله تعالى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [فصل: ١٦].

« والخزي: الذل. وإضافة ﴿عَذَابٌ﴾ إلى ﴿الْخِزْيِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل مقابته بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، أي أشد إجزاء من إجزاء عذاب الدنيا، وذلك باعتبار أن الخزي وصف للعذاب من باب الوصف بالمصدر واسم المصدر للمبالغة في كون ذلك العذاب مخزياً للذي يعذب به...

وجملة: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ احتراس لثلاث يحسب السامعون أن حظ أولئك من العقاب هو عذاب الإهلاك بالريح، فعطف عليه الإخبار بأن عذاب الآخرة أخزى، أي لهم ولكل من عذب عذاباً في الدنيا لغضب الله عليه^(٢).

والآيات في هذا المقام كثيرة اكتفينا ببعضها بما يجلي المعنى ويقوم شاهد عليه^(٣).

وصرحت آيات أخرى بأن هذا العذاب هو نار جهنم، يصلها المستكبرون بسب استكبارهم وإعراضهم عن الحق. قال تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ رَسُولٌ مُسَلِّمٌ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بَرَئِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦].

لقد أفاد تحقيق أنهم صاترون إلى النار بطريق قصر ملازمة النار عليهم في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ لأن لفظ «أصحاب» مؤذن بالملازمة وبما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٤).

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْفِيلِ وَأَكْذَابُكَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١].

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٣٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦١).

(٣) منها: الأنعام: ٩٣، والمؤمنون: ٦٤-٦٧، وسبأ: ٣٣، ولقمان: ٧، والجناب: ٨١.

(٤) التحرير والتنوير (٨/ ١١١).

قال الرازي: « فلما وقف الله تعالى دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط [دخول الجمل في سم الخياط] وكان هذا شرطاً محالاً وثبت في العقول أن الموقوف على المحال محال، وجب أن يكون دخولهم الجنة ميؤوساً منه قطعاً، واعلم أنه تعالى لما بين من حالهم أنهم لا يدخلون الجنة ألبتة، بين أيضاً أنهم يدخلون النار، فقال: ﴿ لَمْ يَنْجِ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ ﴾^(١). قال المفسرون: المراد من هذه الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب فلم يبق منها غطاء ووظء وفراش ولحاف^(٢) ».

« ولا يخفى على المتأمل في لطائف القرآن العظيم ما في إعداد المهاد والغواش لهؤلاء المتكبرين عن الآيات ومنعهم من العروج إلى الملكوت وتقييد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير بخرق الإبرة من اللطافة فليتأمل^(٣) ».

وفي سورة غافر، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي سورة الزمر، قال: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

« وفي وصفهم بالمتكبرين إيماء إلى أن عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسباً لكبريائهم، لأن المتكبر إذا كان سيئ الوجه، انكسرت كبرياؤه؛ لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه^(٤) ».

وقال تعالى في شأن الوليد بن المغيرة: ﴿ ثُمَّ أَذْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ ﴾^(٥) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا بَحْرٌ يُؤْتَرُ^(٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشْرِ^(٧) سَأُصَلِّبُ نَفْرًا^(٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفَرُ^(٩) لَا بَيْتِي وَلَا نَدْرُ^(١٠) لَوَامَةٌ لِّلنَّارِ^(١١) عَلَيْهَا يُسْقَى^(١٢) [المدثر: ٢٣ - ٣٠].



(٢) روح المعاني (٤/١٩).

(١) مفاتيح الغيب (١٤/٨٢، ٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/٥١).

الْمَجْعَةُ الثَّانِي

جزاء المستضعفين

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

جزاء المستضعفين الظالمين

ليس كل المستضعفين من المؤمنين، بل منهم من كفر برسالة الأنبياء واتبع المستكبرين في كفرهم وضلالهم، فحشر معهم ولقي نفس مصيرهم. وهؤلاء وصفهم القرآن بالظلم، فهم ظلموا أنفسهم بحرمانها خير الدنيا والآخرة. اشتهر إطلاق ظلم النفس في القرآن على الكفر وعلى المعصية^(١). قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَزَيْتُمْ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوهُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوهُ أَنْخُنْ صَدَدْتَنُكُمُ عَنِ الْمُهْدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ^(٣) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوهُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا أَتَدَامَةُ لَنَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي عُنُقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [سبأ: ٣١-٣٣].

فالضمير في ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ عائد إلى المستكبرين والمستضعفين^(٤) أولئك جوزوا على ما كان منهم من الضلال والإضلال، وهؤلاء على ما كان من ضلالهم وخضوعهم للبغي والظالم. وكلهم ظالم، هؤلاء ظلموا بتجبرهم وطغيانهم وبغيهم وتضليلهم، وهؤلاء ظلموا بتنازلهم عن كرامة الإنسان وإدراك الإنسان وحرية الإنسان. وكلهم في العذاب سواء لا يجوزون إلا ما كانوا يعملون^(٥)، قال تعالى: ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَّيْنَاكُمْ مِثْلَهُ لَكُنَّا أَعْزَمُونَ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿ [إبراهيم: ٢١].

(١) التحرير والتنوير (١٧٤/٥).

(٢) انظر: الكشاف (٢٩١/٣)، والجامع لأحكام القرآن (٣٠٤/١٤)، وتفسير القرآن العظيم (٤٧٢/٣)، وفتح القدير (٣٢٩/٤)، وروح المعاني (١٤٦/٢٢)، والتحرير والتنوير (٢٠٩/٢٢).

(٣) انظر: في ظلال القرآن (٢٩٠٩/٥).

« من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم دون سواه؟ لا أحد، لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً، كلا إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء، إنما هم ضعفاء؛ لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان»^(١).

ويلحق بهؤلاء أولئك الذين يملكون القدرة على الخروج من قبضة الكافرين والخضوع لهم، لكنهم يعلمون أن هذا الموقف سيكلفهم التضحية بأنفسهم وأموالهم ومصالحهم. ومثل هؤلاء توعدهم الله تعالى بالعذاب الشديد يوم القيامة ليدوقوا الهوان في الآخرة جزاء لارتضائهم الهوان لهم ولدينهم في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ظَالِمِينَ أَنفُسَهُنَّ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَمِعْرَةً فَنَهَجُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

فهؤلاء لما لم يهاجروا وبضخوا في سبيل دينهم، توعدهم الله سبحانه بالعذاب الشديد يوم القيامة. فهم كانوا يملكون حرية الاختيار. وحرية الإنسان مطلقة فيما يريد ويعتقد وفيما يأخذ وفيما يدع، فقد خلقه الله حر التفكير والإرادة والممارسة؛ لتحول الحرية في حياته إلى عقيدة وإيمان وتصميم وعمل، فليس له أن يتنازل عن حريته للأخرين بحجة ضغطهم عليه، فهم لا يملكون الضغط عليه من هذا الجانب، بل كل ما يملكونه هو الإغراء والتزيين والتغريب والتخويف، الذي يضعف الإرادة ويوهن القوة ويستعمر الفكر، مما يمكن لإنسان أن يواجهه ويثبت أمامه بما يحمله من إيمان وإسلام في قلبه، وبما يملكه من إرادة يقاوم بها ضعف إرادتهم، بما رزقه الله من عقل. فإذا ضعف إيمانه وأغفل فكره وأهمل إرادته وجمد عقله واستسلم لشهواته ورغباته ونقاط الضعف عنده أسلم نفسه للطغاة والمستبدين والمنحرفين. أما الضعف الخارجي والإكراه العملي الذي لا تتجاوب معه النفس ولا يرتاح له القلب، فهذا لا شأن له بالمسؤولية؛ لأن الإنسان لا يملك فيه إرادة العمل وإن كان يملك إرادة الرفض الداخلي والشعور العميق بإنسانيته الحرة المستقلة^(٢).

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٠٩٦).

(٢) انظر: الحوار في القرآن (ص ٣٥٧، ٣٥٨).

المطلب الثاني

جزاء المستضعفين المؤمنين

المستضعفون المؤمنون هم الذين اتبعوا الأنبياء وآمنوا برسالتهم، ولا قواشتى صنوف العذاب، فصبروا واحتسبوا حتى أتاهم نصر الله.

وهؤلاء فئتان: فئة معذرة في ضعفها، فأهلها في قرارة أنفسهم يرفضون الذل والهوان والخنوع والتخلي عن الإيمان لإرضاء الفئة المستكبرة، لكنهم لا يستطيعون تغيير وضعهم بسبب ضعف في الجسم أو قلة في العدد والعدة. وقد قال المولى عليه السلام في شأنهم: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (١) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَمْعُوَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا. [النساء: ٩٨، ٩٩].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا لَكُمُ لَا تُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، وفيهم كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أنج الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» (٢).

هؤلاء عفا الله عنهم وغفر لهم وجعل لهم من لدنه خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ، فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر (٣).

أما الفئة الثانية من المستضعفين المؤمنين فهم الذين جاهدوا وقاوموا ظلم المستكبرين ونصروا دين الله، فنصرهم الله ومكن لهم وجعلهم الوراثين.

هؤلاء هم الذين قال المولى سبحانه في حقهم: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرُوقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الْيَوْمَ بِدَرَكْنَا فِيهَا وَكَمَّتْ رِيكَ الْحَسَنِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْطَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٧].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب: يبوي بالتكبير حين يسجد (١/ ٢٧٧)، وفي كتاب الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦/ ٢٥٤٦)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الفتوى في جميع الصلاة بالمسلمين (١/ ٤٦٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (٣/ ٧١٢).

وقال أيضا: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصِيرِهِ. وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وقال: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٠﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦٥].

وهذه الوراثة هي وراثة بالقوة لا بالفعل كما يقول المتكلمون. إنها موعود الله المدخر لمن آمن وعمل صالحًا. فما يكون المستضعفون وارثين مع كونهم مظلومين محترقين، لكن تجنيهم الوراثة جزاء قيامهم بأمر الله وتنفيذهم لإرادته.

فمن السنن الثابتة في كتاب الله العزيز أن ينتصر المستضعفون وترتفع عنهم المظلومية التي عانوا منها طوال قرون التاريخ من الطغاة والجبابرة والمستبدين، الذين أذاقوا الإنسانية مرارة العذاب والألم والحرمان من الحياة الإنسانية السعيدة، كما أراد الله للبشرية أن تعيش في هذه الدنيا.

لكن ما هو المراد من انتصار المستضعفين؟ هل المراد به الانتقام من الطغاة وإقامة سلطة بديلة تعود لتمارس الدور نفسه الذي مارسه المستكبرون، ككثير من الثورات التي قام بها المظلومون عبر التاريخ، لكنها سرعان ما زالت وبادت؛ لأنها كانت عبارة عن استبدال نظام بآخر، لمجرد الوصول إلى السلطة والاستفادة من إمكاناتها المادية لمنفعة شخصية أو فئوية؟ أم المراد هو إقامة سلطة عادلة تعطي لصاحب الحق حقه وتأخذ الحق من مغتصبه، وتسعى لتأسيس الدولة القرآنية التي تطبق أحكام الإسلام وقوانينه في كل مجالات الحياة، تحت قيادة ربانية بعيدة عن الأنانية المستعلية والاستبداد، وتعمل على نشر دين الله ﷻ وترسيخ القيم الروحية والأخلاقية؟

إن حقيقة انتصار المستضعفين تتمثل في إقامة السلطة العادلة بمعناها القرآني الشفاف والمجرد عن الأهواء والأغراض الضيقة، من أجل تحقيق المجتمع النموذجي الذي أراد الله للبشرية أن تعيشه طول وجودها في هذه الدنيا، لولا الانحرافات التي تسبب بها الظالمون والطغاة، الذين وصل الأمر ببعضهم إلى ادعاء الربوبية مثل فرعون.

والمقصود بالمجتمع النموذجي هو ذلك المجتمع الذي يشعر فيه الإنسان بقيمته الإنسانية ويمارس فيه قناعاته بحرية تامة، من دون إكراه أو إجبار، ويعيش فيه الإنسان

بطمأنينة وسلام وأمان على نفسه وأهله وماله، فلا يخاف من ظالم يظلمه أو معتد على عرضه أو من سارق لماله، ويعيش الناس معًا بمحبة وتعاون وتآلف، فلا نزاعات بين الجماعات البشرية في ذلك العصر.

إن الوراثة الموعود بها في الآية الكريمة، مشروطة بالإيمان والعمل الصالح.

إن الله - جلّت قدرته - جعل حكمة قدره معلقة بأسباب هذا العالم وبسعي الإنسان، فهو - سبحانه - محرك كل ساكن، لكن للحركة أسبابًا يدرّكها المنطق وتسلسل عليها الأحداث في نسق منطقي.

هكذا كل الأسباب الظاهرة تؤهل المستضعفين لينالوا حقهم ويخلفوا المستكبرين المترفين، الذين أفسدتهم الزينة والفسق. والمستضعفون من الأمة هم سوادها، المساكين المغلوبون على أمرهم، وهم الأقوياء على الحق. ثم إن حركة المستضعفين في هذا الزمان تختلف عن غيره من الأزمنة كما تختلف عن حركة غيرهم من الثورين ودعاة الإلحاد.

إن وراثة المستضعفين لأرض الله لن تأتي أبدًا عن طريق العنف؛ إذ يختلف الانتقال من حال الجاهلية عن الانتقال من حال الفتنة، فجاهلية فرعون وجاهلية قريش وغيرها من الجاهليات القديمة واجهها المسلمون مع أنبيائهم بقوة السلاح، أما جاهلية الفتنة المعاصرة فالدعوة إلى تغييرها، كالدعوة في كل فتنة اختلط فيها الحق بالباطل، يجب أن تكون إقتناعًا وجهاذاً، وقيامًا بالقسط إلى أن يأتي أمر الله.



الفصل الرابع

سبل مقاومة الاستكبار وعلاج داء الاستضعاف في القرآن الكريم

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: الإيمان بالله واتباع الهدى.

المبحث الثاني: الهجرة.

المبحث الثالث: الجهاد.

المبحث الرابع: بيان عاقبة الاستكبار والاستضعاف في الآخرة.

المبحث الخامس: تعبئة أبناء الأمة ليصبحوا حملة رسالة.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

الإيمان بالله واتباع الهدى

الإيمان بالله تعالى، أقوى الضمانات التي تمنع الإنسان أن يتعالى ويستكبر أو أن يهون في نفسه فيكون مستضعفاً.

فلا يمكن لمؤمن أن يكون مستكبراً أبداً، لأنه يعلم أن الكبرياء لله وحده: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجنانية: ٣٧].

وفي الحديث القدسي: «العز إزاري، والكبرياء رداثي، فمن ينازعني عذبه»^(١)، وأيضاً فإن الأمور التي قد تدفع الإنسان للاستكبار، لا تدفع المؤمن، لأنه يعلم حقيقتها. فكثرة المال مثلاً لا تجعل المؤمن يستكبر به، لأنه يعلم أن هذا المال مال الله رزقه إياه، وأن عليه أن يؤدي حق الله فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

والرياسة والسلطان لا يجعلان المؤمن يستكبر، لأنه يعلم أن الله تعالى سيسأله عن كل أفراد رعيته، وأنه في هذا المنصب يجب أن يكون خادماً لدين الله، ولافراد أمته. وبالتالي فإن المؤمن الصادق يشعر أن هذا المنصب أمانة ثقيلة يتمنى لو لم يحملها، فضلاً عن أن يسعى للوصول إليها، بل أن يستغلها للتكبر على عباد الله. وأما تقاليد الآباء والأجداد فإن المؤمن الصادق لا يخضع لها ويترك أوامر الله سبحانه، بل إنه يترك الأب والأقارب إن اختاروا الكفر وتركوا الإيمان. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آيَاتِهِمْ كُم وَإِخْوَانِكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣].

وكذلك إذا امتلك المؤمن القوة فإنه لا يستكبر ويطغى بها، وهو يعلم أن القوة لله جميعاً. وأن الله قد دمر الأقوياء الذين استكبروا عن عبادته في الماضي، وهو قادر على تدمير غيرهم أينما كانوا، قال تعالى: ﴿كَذَٰبِ أَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَرَى الَّذِينَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الكبر (٤/٢٠٢٣)، وأبو داود في كتاب اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤/٥٩)، بلفظ: «الكبرياء رداثي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها قذفته في النار».

ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿البقرة: ١٦٥﴾.

نلاحظ في هذه الآيات وأمثالها التركيز على قوة الله المطلقة، وهي تقوم بدور تحذيري من جهة وتربوي من جهة أخرى، فيجعل من الإيحاء بقوة الله العظيمة، قوة ردع للإنسان عن الانحراف والتعبد، وعن الظلم والطغيان حينما يدعوه إحساسه بالقوة الذاتية التي يملكها إلى السير بعيدًا في طريق الانحراف.

أيضًا، لا يمكن أن يستكبر المؤمن وهو يعلم أن الملائكة الأعلى الذين هم أفضل وأرفع وأعلى منه لا يستكبرون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. وَيَسْجُدُونَ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وبالمقابل فإن الإيمان يجعل صاحبه يرفض الذل والاستضعاف. لا يمكن لمؤمن صادق الإيمان أن يكون مستضعفًا في حقيقة نفسه، حتى لو كانت هناك عوامل خارجية تستضعف جسده، يقول سيد قطب: «إن الإسلام في صميمه حركة تحريرية، تبدأ في ضمير الفرد وتنتهي في محيط الجماعة، وما يعمر الإسلام قلبًا ثم يدعه مستسلمًا، خاضعًا، خائفًا لسلطان على وجه الأرض، إلا سلطان الواحد القهار، وما يعمر الإسلام قلبًا ثم يدعه صابِرًا ساكنًا على الظلم في صورة من صورهِ جميعًا، سواء وقع هذا الظلم على شخصه، أو وقع على الجماعة الإنسانية في أية أرض وفي ظل أي سلطان»، وفي كتاب «معالم في الطريق» يقول: «إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، ومن العبودية لهواه أيضًا - وهي من العبودية للعباد - وذلك بإعلان ألوهية الله وحده - سبحانه - وربوبيته للعالمين... إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتعبد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر، بصورة من الصور - أو بتعبير آخر - مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور... ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر، ومصدر السلطان فيه هم البشر، هو تأليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أربابًا من دون الله. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المختصب ورده إلى الله، وطرده المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم، فيقومون منهم مقام الأرباب، ويقوم الناس منهم مقام العبيد... إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة

مملكة الله في الأرض، أو بالتعبير القرآني: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ [الزخرف: ٨٤] (١).

وقد ذكر لنا القرآن الكريم نماذج من المؤمنين الذين نزع الإيمان من قلوبهم الضعف، فوقفوا بإيمانهم في وجه المستكبرين الذين أرادوا صدهم عن الإيمان.

ومن هؤلاء أتباع صالح عليه السلام الذين صمدوا بإيمانهم أمام الملأ المستكبرين من قومهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمَلَمُونَ أَنَا صَلِحًا سُرِيسِلَ مِنْ رَبِّيَءَ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءَ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥].

يقول سيد قطب: « وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف، والاستكبار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه. ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً، لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم والثقة في أنفسهم، والاطمئنان في منطقتهم... إنهم على يقين من أمرهم، فما يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستكبار.. من الملأ المستكبرين » (٢).

وكذلك وقف شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه أمام الملأ الذين استكبروا من قومه، قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي وَلَّيْنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨]، يقول سيد قطب: « إلا أن قوة العقيدة لا تلغشهم، لا تترزع أمام التهديد والوعيد.. لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة.. نقطة المسالمة والتعاضد (٣) - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء، وأن يدين للسلطان الذي يشاء في انتظار الله وحكمه بين الفريقين - وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت.. وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه... فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم، صدع شعيب

(١) معالم في الطريق (ص ٥٩)، وانظر: الإسلام ثورة مستمرة، لعبد العزيز الكحلوت (ص ١٠٦).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ٥٥١).

(٣) يشير إلى قول شعيب كما حكاه القرآن: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ يَنْهَكُمْ عَنْ مَّآثِرِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْتُونَ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَمَوْجِزَ الْفِتْنَةِ ﴾ [الأعراف: ٨٧].

بالحق، مستمسكاً بملته، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه، يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله: ﴿... قَالَ أَوْلُو كُنَّا كَرِهِينَ﴾ (١٨٨) قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ بَعْدَ إِذْ جَحْنَا اللَّهُ مِنَّا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَقُولَ بِهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]. وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان، ومذاقه في نفوس أهله (١٩).

ومن هؤلاء المؤمنين سحرة فرعون، الذين أحدث الإيمان في بضع لحظات انقلاباً كبيراً في خلقهم وسلوكهم، وقد جاؤوا من بيوتهم لنصرة فرعون وطغيانه، فإذا هم يقفون أمام فرعون يتحدونه بإيمانهم، بعد أن هددهم بالصلب والقتل لأنهم آمنوا بموسى، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَادَّنْ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنَّا أهلكها فسوف تعلمون﴾ (١٧٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤].

فكان جوابهم - كما ذكر القرآن -: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٧٥) وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ءَأَمِنَّا بِإَيْدِي رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَنْفِرْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦]. إنه الإيمان الذي لا يفرع ولا يتزعر، كما أنه لا يخضع أو يخنع، الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاه ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره.. والذي يدرك المعركة بينه وبين الطاغوت... وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يداهن ولا يناور.. ولا يرجو الصفح والعفو من عدو، لن يقبل منه إلا ترك العقيدة؛ لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة.

ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، وأمام الوعي، وأمام الاطمئنان، يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها، كما يملك الولاية على الرقاب، ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام، فإذا هي مستعصية عليه، لأنها من أمر الله، لا يملك أمرها إلا الله (٢١). وقد رد السحرة على تهديد فرعون بقولهم: ﴿فَأَقِصْ مَا أَنْتَ فَأَقِصْ إِسْمًا نَقِصِي هَذِهِ الْحَبِوَةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] أي: احكم وافعل ما شئت يا فرعون،

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٣/٦٠٦).

(١) في ظلال القرآن (٣/٥٥٩).

فلا نبالي ببطشك وتنكيلك ما دمنا على يقين من ربنا، وإنما تقضي هذه الحياة حلوة كانت أو مرة. وما نحن من أبنائها، وإنما نحن من أبناء الآخرة، وهي باقية ببقاء الله تعالى. ولا سلطان لك فيها، حتى على نفسك. وهكذا كل مخلص لا يبالي سيف الجلاد من أجل دينه ومبدته، محال أن يعيش دين من الأديان أو مبدأ من المبادئ إذا لم يجد أنصارًا من هذا الطراز^(١).

يقول سيد قطب تعقيماً على قصة السحرة: * ومضى هذا المشهد من تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري، باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان. وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان^(٢).

وقد جعل الإيمان بالله المستضعفين في مكة يقفون في وجه عتاة أهل مكة يصدعون بالحق دون أن تلين لهم قناة. وقد كانوا قبل ذلك عبيداً أذلاء ليس لهم شأن. ومن هؤلاء بلال بن رباح وصهيب بن سنان وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر، وقد ذكرت بعض مواقفهم فيما سبق.

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ تَرْفَعُ عَنكَ أَيْهُودُ وَلَا نَصْرِيَّ حَتَّى تَتَّبِعَ يَلْبَثُ قُلُوبُ إِبْرَاهِيمَ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

إن هدى الله هو الحق الواجب الاتباع. وهو مفتاح النصر والفلاح في الدنيا والآخرة. جاء في تفسير المنار: * المهتدون بهدي الله لا يخافون مما هو آت، ولا يحزنون على ما فات؛ لأن اتباع الهدى يسهل عليهم سبيل اكتساب الخيرات ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة. ومن كانت هذه وجهته يسهل كل ما يستقبله، ويهون عليه كل ما أصابه أو فقده لأنه موقن بأن الله يخلفه^(٣).

إن الله تعالى تكفل بتأمين متبعي الهدى من الخوف والحزن، فمن اعتصم بسبيل الحق ولزم الاتباع والموافقة في القصد والعمل كان من الأمنين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

(١) انظر: التفسير الكاشف، لمحمد جواد مغنية (٢٢٩/٥).

(٢) تفسير المنار (١/٢٨٥).

(٣) في ظلال القرآن (٥/٤٨٥).

قال ابن كثير في بيان معنى هذه الآية: «أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا»^(١).

وفسر هدى الله بأنه القرآن الكريم لما روي عن ابن عباس أنه قال: «أجار الله تعالى تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية»^(٢).

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]: «والمعنى أن الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضل في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله وامتلأ أمره وانتهى عن نواحيه نجا من الضلال ومن عقابه»^(٣).

إن متبع الهدى يحيا حياة طيبة كما وعد الله تعالى وكما هو مقتضى حكمته. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والحياة الطيبة التي يحيها لا يشقى فيها قطعاً؛ لأنها تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. ولأن الشقاء والاستضعاف ينافيان الحياة الطيبة التي يتمتع بها متبع القرآن، فإنهما إذن منفيان عنه في الدنيا، كما أن الضلال منفي عنه كذلك.

ولأن متبع هدى الله همه الأول هو مرضاة الله فهو دائم التعلق به، قانع بما قسمه الله له في الدنيا، ولأنه في رضا تام بذلك فهو في سعادة ونعيم.



(٢) روح المعاني (١٦/٢٧٦).

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٨٢).

(٣) الكشاف (٣/٩٥).

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

الهجرة

سبق أن الإيمان بالله يؤدي إلى التخلص من الاستكبار ومن الاستضعاف، ولكننا نلاحظ أنه ليس كل القلوب تقبل الإيمان، وبالتالي فلا يوجد ما يردع أصحاب هذه القلوب عن الاستكبار والطغيان. إذاً فلا بد من وجود مستكبرين في كل عصر، وفي المقابل لا بد من وجود مستضعفين يعيشون معهم.

فإذا كان هؤلاء المستضعفون من المؤمنين، فقد يؤدي بهم هذا الأمر إلى أن يتعرضوا للأذى والاضطهاد من المستكبرين خشية أن يؤدي هذا الإيمان بأصحابه إلى الخروج من تحت سلطانهم والانفلات من قبضتهم.

وقد يشتد هذا الأذى بالمستضعفين حتى تصبح الحياة في موطنهم مستحيلة. إن هم تمسكوا بإيمانهم، وعندها لا يكون أمامهم سوى خيارين: إما الحياة في موطنهم بلا إيمان، وإما الهجرة بالإيمان خارج الوطن. فإذا وقع المؤمن بين هذين الخيارين فيجب عليه بالتأكيد أن يختار الإيمان مهما كان الثمن غالياً؛ لأنه إن رضي البقاء في موطنه مع ترك الإيمان فمعنى ذلك أنه عصى الله سبحانه، وخسر آخرته.

وهذا النوع من الاستضعاف ليس عذراً للصاحبه، ولن يعفيه من أن يكون من أصحاب النار. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكُفْرَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

ورغم أن هذه الآية تتحدث عن الهجرة من مكة إلى المدينة، إلا أن حكمها يمضي إلى آخر الزمان « متجاوزاً تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين وفي بيئة معينة... يمضي حكماً عاماً، يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أية أرض »^(١).

يقول محمد رشيد رضا: « أوجب الله تعالى الهجرة على من يستضعف في أرض

وطنه، فيمنع من إقامة دينه فيها. ويوجب المتعصبون للأوطان في هذا العصر الهجرة منها إذا منعوا حريتهم الشخصية فيما هو دون الدين والوجدان. بل يعز على بعضهم أن يقيم في وطنه إذا منع فيه حرية الفسق والآثام. ورب أناس عز عليهم ترك وطنهم فأثروا البقاء فيه مفتونين في دينهم فأظهروا الكفر ليأمنوا على حياتهم، وظلوا يسرون المحافظة على الإسلام في خاصة أنفسهم ولكنهم لم يتمكنوا من تلقينه لأولادهم وتربيتهم عليه، فارتدت ذريتهم عنه في زمنهم أو من بعدهم كما وقع لبعض مسلمي الأندلس^(١).

وقد تكفل الله سبحانه لمن يهاجر في سبيله أن يجد الرزق والسعة في الوطن الذي يهاجر إليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]. قال ابن جرير الطبري: «إن الله أخبر أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطربًا ومتسعًا، وقد يدخل في السعة، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهم... وغير ذلك من معاني السعة»^(٢).

وقد يقول البعض: إن زمن الهجرة قد انتهى، وأنه لا يجب على أي مسلم أن يهاجر في هذا الوقت. وحثهم في هذا القول: حديث الرسول ﷺ الذي روته عائشة - رضي الله عنها - حيث قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة، فقال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»^(٣).

والجواب على هؤلاء ما ذكره النووي في شرحه لصحيح مسلم؛ حيث يقول:

«قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة. وتألوا الحديث تأويلين:

أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام، فلا تتصور منها الهجرة.

والثاني: وهو الأصح، أن معناه أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازًا ظاهرًا؛ انقطعت بفتح مكة، ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة لأن

(١) تفسير المنار (٤/٩).

(٢) جامع البيان (٩/١١٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير (٣/١٠٢٥)، ومسلم في كتاب الحج، باب: تحريم مكة وصيدا وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لئشد على الدرام (٣/١٤٩٨).

الإسلام قوي وعز بعد فتح مكة عزاً ظاهراً بخلاف ما قبله^(١).

ولا يعني هذا الكلام أن المسلم بمجرد أن يشعر ببعض الأذى والمضايقة فعليه أن يهاجر من موطنه ليرتاح من العناء. فالأصل أن يصبر ويتحمل في سبيل دينه، وأن يدعو أبناء وطنه إلى الالتزام والتمسك به - كما فعل المسلمون الأوائل في مكة - قبل أن يطلب منهم الهجرة.

وفي هذا الوقت، يجب على المسلم أن يصبر قدر استطاعته على دينه، وأن يعمل جهده للبقاء في وطنه لكي يستطيع إيقاف الدعوات الكافرة التي يسمح المستكبرون بانتشارها في بلاد المسلمين، وأن لا يترك الوطن إلا إذا خشي الفتنة في دينه.

أما إذا ترك وطنه لمجرد تعرضه لبعض الضغط والأذى فإن المهاجر هنا مخطئ، إلا هجرة صاحب سر يخشى عليه، أو هجرة صاحب فقه إلى من يحتاج إليه، أو هجرة من يخشى الفتنة في الدين^(٢).



(٢) المطلق، لمحمد أحمد الراشد (ص ١٩١).

(١) شرح صحيح مسلم (٨/١٣).

الْمَجْهُدُ الثَّالِثُ

الجهاد

يقصد بالجهاد معناه القرآني الشامل، فالناس عندما يسمعون كلمة الجهاد لا يتصورون إلا مشهداً واحداً ومجالاً واحداً من مجالاته، فالجهاد عندهم قتال. لذلك يختزل أعداء الدين الجاهليون أمة الإسلام في كونها أمة القتال والحرب.

قال الراغب: «الجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]. ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]^(١).

إن الجهاد ليستوعب كل مجالات العمل. فهناك عقبات تقع في وجه الفرد والأمة. فمن الجهاد تصحيح الولاء لله والسعي الحثيث للكينونة مع الذين آمنوا. وذلك أول الجهاد. ومن الجهاد اقتحام عقبة الفقر والتبعية للجاهلية بشتى مكوناتها. واقتحام هذه العقبة يطلب أن تفك رقابنا من عبودية الحاجات، وهذه العملية تقتضي تربية من قاعدة وصبراً وحكمة. معنى هذا أن الجهاد الإسلامي لن يكون عملية ميكانيكية تنزع الملكية وتسوي بين الناس بسطان قاهر.

إن في أحشاء الأمة فراغاً، صادون عن دين الله، عابثون حائرون، ولولا أنهم يحملون شعارات الإسلام ويدعون انتسابهم إليه لكان حقاً على أهل الحق قتالهم، لكنهم اليوم تتلاطم بهم أمواج الفتنة ويضربهم الله بسوطه بيد الصهاينة وبأس الاستكبار العالمي وبأس الليابسين الغاضبين من أبناء هذه الأمة.

فرض الله ﷻ الجهاد على المسلمين، وهو أسلوب آخر من أساليب محاربة المستكبرين وتخليص المستضعفين، والقضاء على ظاهرتي الاستكبار والاستضعاف.

فإذا كان بعض المسلمين مستضعفين في دولة الكفر، فيجب على المسلمين المقيمين في ديار الإسلام الجهاد لتخليص إخوانهم مما هم فيه من الاستضعاف، إذا كانوا

لا يستطيعون الهجرة من ديار الكفر. كما كان حال بعض المسلمين في مكة.

قال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

وفي هذا استجاشة لمشاعر المسلمين، لاستنقاذ الرجال والنساء والولدان، هؤلاء الذين ترسم صورتهم في مشهد مثير لحمية المسلم، وكرامة المؤمن، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق. هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم، والفتنة في دينهم، والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض؛ لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني، الذي تتبعه كرامة النفس والعرض، وحق المال والأرض.. وهذه القرية التي عدها الإسلام - في موضعها ذلك - دار حرب، يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها، هي (مكة) وطن المهاجرين، الذين يدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها، ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحارة للخروج منها. إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام حين لم تقم فيها شريعة الله ومنهجه، وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم، وعذبوا في عقيدتهم^(١).

وبالجهد أيضًا يتحرر المستضعفون من غير المسلمين، الذين خضعوا لحكامهم وتابعوهم على ما هم فيه من ضلال وانحراف؛ لأن الإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان كل إنسان في كل الأرض. ولأن إزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبه من العباد ورده لله وحده... وسيادة الشريعة الإلهية وحدها، وإلغاء القوانين البشرية.. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لأن المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان الله في الأرض، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وتاريخ هذا الدين على مر الأجيال^(٢).

أما إذا كان المسلمون مستضعفين في بلادهم، فالحاكم الذي يستضعفهم قد يكون

(١) انظر: في ظلال القرآن (٢/ ٤٤٤).

(٢) انظر: معالم في الطريق (ص ٦٠).

كافراً، وقد يكون مسلماً أو مدعيًا الإسلام.

فإذا كان كافراً، فلا يجوز للمسلمين أن يصبروا على حكمه، ويجب عليهم أن يجتهدوا للتخلص منه، وتنصيب حاكم مسلم يسوس دنياهم بأحكام الدين، وينطبق هذا على الحاكم الذي يعطل قاعدة من قواعد الإسلام أو ركناً من أركانه.

نقل النووي في شرحه لصحيح مسلم قول القاضي عياض: «أجمع العلماء على أن الإمامة لا تتعدد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل، وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها.. فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه، ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة، وجب عليهم القيام بخلع الكافر»^(١).

ويقول ابن حجر في فتح الباري: «ينعزل الإمام بالكفر إجماعاً، فيجب على كل مسلم القيام بذلك فله الثواب، ومن داهن فعله الإنثم، ومن عجز عليه الهجرة من تلك الأرض»^(٢).

وإذا كان فسوق الحاكم المستكبر وعصيانه يشكل منهجاً يأخذ به رعيته، ويظهر من خلاله عزمه على الانحراف بالأمة عن منهج ربها في العقيدة والأخلاق والشرائع، وقيادتها بغير كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، فإن فتنة الصبر على هذا المنكر أشد وأعظم من أية فتنة تتج عن القيام على هذا الحاكم في وجهه، فيجب على المسلمين أن يجاهدوا هذا الحاكم، ويستعملوا كل وسيلة مشروعة لإزاحته عن سدة الحكم، واستبداله بمن يأخذهم بدين الله ﷻ. فإن جهاد الكفار نفسه لم يشرعه الله سبحانه، إلا ليمنع طواغيت الإنس من الحكام من فتنة الناس، وليوقف صدهم العباد عن الحق، وأخذهم بأحكام وأخلاق وقيم مستمدة من أهوائهم وشهواتهم^(٣)، فقد قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونََ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ويبين سيد قطب في كتابه معالم في الطريق: «أنه لا بد من توجيه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله - أي تحكمتهم بغير شريعة الله وسلطانه - والتي

(١) صحيح مسلم شرح النووي (١٢/٢٢٩).

(٢) فتح الباري (١٣/١٢٣).

(٣) انظر: الجهاد: ميادينه وأسابيه، لمحمد نعيم ياسين (ص ٢٠٣).

تحول بينهم وبين الاستماع إلى البيان واعتناق العقيدة بحرية لا يعترض لها السلطان، ثم لكي يقيم نظامًا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي - بعد إزالة القوة المسيطرة - سواء أكانت سياسية بحتة، أم متلبسة بالعنصرية أم الطبقية داخل العنصر الواحد»^(١).

فليس متشددًا إذا من يدعو إلى جهاد الحاكم إذا أصبح ديدنه صد العباد عن شرع الله ﷻ، وأخذهم بأحكام لا تمت إلى شريعة الله بصلة، وفتنتهم عن دين الله سبحانه مهما كان هذا الحاكم متظاهراً بالإسلام. فإن المسلمين ما بايعوه إلا ليعينهم على أمر دينه، ليلتزم هذا الدين في ديارهم وينشر في أقطار الأرض.

فإذا نقض عهده معهم كان لهم الحق في نقض بيعته، بل كان ذلك واجبًا على كل قادر منهم؛ لأن ضرره عندئذ لا يقتصر على نفسه، ولا يقتصر على أفراد معينين، بل يصيب الأمة كلها وكل فرد فيها، ويضيع حقوقها، ويؤدي إلى هلاك المسلمين وزوال دولتهم^(٢).

وبهذا الجهاد يحفظ المسلمون إنسانيتهم وكرامتهم، فلا يخضعون لعبيد أمثالهم، استكبروا على الله وعلى عباده.

يقول سيد قطب: «إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدي غاصبيه من البشر، ورده كله لله، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد، كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأمواتهم من هوى الطواغيت وشهواتهم... إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت - تحت رايته - بكل ما فيها من تضحيات، ولكنه يتقدم من تضحيات أكبر وأطول، كما أنها أذل وأحقر... إنه يدعوهم للكرامة والسلامة في أن...»^(٣).

إن الأمة لن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها كما كان يقول السلف الصالح، وقد كان أمر الإسلام يصلح عبر العصور بجهاد ربانيين يدعون إلى الله على بصيرة.

والربانية تصور عملي يبرز الصفات المتعدية غير اللازمة للمؤمن الذي يفيض خيره على الناس، فيكون فيهم رحمة، يؤثر فيهم بروحانيته وبعهادته، يعلمهم بحكمته ويربيهم حتى يكونوا قوة ويزدادوا تماسكًا وصلابة.

(١) معالم في الطريق (ص ٦٣).

(٢) انظر: الجهاد: مبادئه وأساليبه (ص ٢٠٤).

(٣) في ظلال القرآن (٣/ ٥٦٣).

الرباني شخص جامع لخصال الخير متحقق بعناصر المنهاج النبوي في كل مناحي الشخصية. الرباني لا يكتفي بمشروع الخلاص الفردي، بل يتعداه إلى العمل الجماعي المشع بربانية تشمل الروحانية العالية والعلم الواسع والهم الشامل والخلق الرفيق. هذا هو المجاهد على بصيرة، فإن لم يكن المجاهد ربانياً فلن تأتيك منه حياة إسلامية، ولن تكون حركته حركية إسلامية حتى ولو حمل شعارات الإسلام ولبس زي الإسلام وتعصب للإسلام.

إن هذه الربانية ليست تُصنع بالمظهر والصورة ولا بالعبارات ثلثاً وتسر السامعين. لكي يكون الجهاد إسلامياً لا بد من تحرير المنطلق والغاية، فحامل الرسالة الرباني هو ذلك الذي شرح الله صدره وأقبل على ذكره ولزم الصالحين من عباده، حتى فتح الله له مغاليق قلبه وأتاه فقهاً في قرآنه، فجمع بذلك بين الحكمة العقلية والرحمة القلبية، فهو مطمئن، معه من التقوى ومن بشرى ربه ما لا تزحزحه معه الملمات. فالرباني جعله خلقه القرآني رفيقاً. وللرباني دائماً أسوة في رسول الله ﷺ، فهو يقتفي أثر نبيه وهو المتبع للمنهج النبوي في التربية والبناء. فهو بذلك وارث للنموذج النبوي ومقلد له؛ حيث يشع على الناس بفكره وعمله ورفقه ونورانيته.

ومعنى هذا أنه يربي الناس بالقدوة قبل أي شيء. ويحدد حدو الأنبياء الأطهار، فالله تعالى ما بعث الأنبياء إلا ليمثلوا أمام الناس نماذج شاهدة غير غائبة للإيمان والتقوى، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

إن الله ﷻ لم يعيثر بعد محمد ﷺ نبياً، بل شاءت قدرته أن يبتعث لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها وينير لها المسالك ويبين لها ما جدّ من مهالك.

إن العصر الحالي عصر سوق اختلط فيه الحابل بالنابل. بضاعتها متوجات جاهلية مكدسة في المخازن والعقول، وجوؤها معتم مظلم يعيثر فيه المترفون فساداً، ويفرضون على العامة

سبل مقاومة الاستكبار وعلاج داء الاستضعاف ٢٩٩

نموذج حياتهم، ولن يتبين المسلمون طريقهم إلا على يد من رفع همته على هامة الزمان واعتصم بحبل الله المتين.

وبما أن الواجهة الداخلية للأمة خربة، فإن الجهاد يجب أن ينصرف قبل كل اعتبار لإعادة بناء الكيان وإعداد القوة حتى يخرجنا الله من ضعف الاستضعاف ويستخلفنا في الأرض.



المِحَّةُ الرَّابِعُ

بيان عاقبة الاستكبار والاستضعاف في الآخرة

ذكر القرآن الكريم عاقبة كل من المستكبرين والمستضعفين - الذين اتبعوهم - في الآخرة. وبين أن كلاً منهم لن يغني عن الآخر شيئاً وأنهم جميعاً أصحاب النار خالدين فيها.

والحكمة من ذكر ما يحصل في الآخرة، أن يرتدع المستكبرون فلا يتمادوا في طغيانهم، وأن يتعظ المستضعفون فلا يتابعوا المستكبرين في ضلالهم، ويعلموا أنهم لا يغنون عنهم شيئاً.

قال تعالى: ﴿ وَرَبُّرُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَكَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿ [إبراهيم: ٢١].

إن الصورة القرآنية التي يعرضها القرآن للمستكبرين ليست مجرد صورة (أخروية) تحدد لنا ملامحهم في الآخرة من حيث طبيعة الجو المرعب الذي يواجهونه هناك، عندما يقفون في مواجهة المسؤولية بشكل صاعق... بل هي صورة حية للذات كما هي في نظرتها إلى الآخرين من أتباعها الذين يخضعون لرغباتها ويستجيبون لأفكارها وينسجمون مع مخططاتها، في إحساس عميق بالسيادة المستعلية التي ينظر فيها السادة إلى العبيد، بعيداً عن كل شعور بالاحترام لهم، أو اعتبارهم واقعين في دائرة مسؤوليتهم الجزائية والجنائية والأدبية، باعتبار أن أعمالهم صدق لأعمالهم، فتتحول كل نشاطاتهم وتحركاتهم إلى امتداد حي لنشاطاتهم وتحركاتهم، فيخلصهم من المآزق الحرجة التي يكلفهم ارتباطهم بهم بعض التضحيات والأخطار التي قد تحدق بهم... وإذا كانت هذه الصورة هي صورتهم في الدنيا، فكيف يمكن للإنسان أن يأمن لهم في الدنيا والآخرة، أو يستسلم إلى حمايتهم له، ما داموا يحملون في أنفسهم مثل هذه النوايا والأفكار التي تدفعهم إلى الهروب من مسؤوليتهم عند تعرضهم إلى إشارة للخطر الذي يواجهون فيه المواقف الطارئة.

فالآية السابقة تؤكد كيف واجه الجميع نتائج المسؤولية وتصور لنا موقف أولئك

الذين أخضعوا إرادتهم لإرادة الآخرين ونزواتهم، في الوقت الذي كانوا يستطيعون فيه أن يحرروا أنفسهم وإراداتهم من ذلك كله. ولكنهم خضعوا واستكانوا لمظاهر القوة ومطامع المال التي يملكها أولئك، فساروا خلفهم من دون وعي وشعور. إنهم الآن يستيقظون على الواقع الذي وصلوا إليه فيحاولون التخلص - ولو بعض الشيء - من قسوته، ويتوجهون إلى هؤلاء الذين يتبعونهم في كل شيء ليطلبوهم بأن يتحملوا تبعاتهم في الآخرة كما تحملوا - هم - تبعاتهم في الدنيا، فقاتلوا من أجلهم حتى الموت. ونرى في رد المستكبرين ﴿لَوْ هَدَدْنَا اللَّهُ لَهْدَ بَنِيكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَمْ نَحْنُ أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّحْجِيصٍ﴾ نوعاً من الهروب من طبيعة المسؤولية. فهم لا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن ضلالهم. وهكذا يريد الله أن يصور للمستضعفين في الدنيا كيف تتجسد مواقف الندم واليأس في الآخرة ليوأجهاوا الواقع السيئ الذي يعيشونه، مواجهة الإنسان الذي يشعر بأنه يواجه نتائج المسؤولية وحده.. ولذا فإن عليه أن يبدأ الحساب على هذا الأساس^(١).

والآيات التي تتحدث عن مواقف التبرؤ بين المستكبرين والمستضعفين كثيرة في القرآن الكريم.

ومن أبرز هذه المواقف، الموقف الذي يتبرأ فيه إبليس - أستاذ المستكبرين - من جميع أتباعه (مستكبرين ومستضعفين) ويلقي عليهم تبعه ما قاموا به من أعمال مخالفة لأوامر الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَتُلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

يقول سيد قطب في شرح هذه الآية: «نرى الشيطان.. هاتف الغواية وحادي الغواة، نراه الساعة يلبس مسوح الكهان، أو مسوح الشيطان، ويتشيطان على الضعفاء والمستكبرين سواء بكلام ربما كان أفسى عليهم من العذاب... إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور، وأغرى بالعصيان، وزين الكفر، وصددهم عن استماع الدعوة... هو الذي يقول لهم

ويطعنهم طعنة اليمية نافذة حيث لا يملكون أن يردوها عليه وقد قضى الأمر. هو الذي يقول الآن وبعد فوات الأوان: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ لَعْنِي وَعَدَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ثم يخزهم وخزة أخرى بتعيرهم بالاستجابة له، وليس له عليهم من سلطان، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عدااء قديم، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾، ثم يؤنبهم ويدعوهم لتأنيب أنفسهم، ويؤنبهم على أن أطاعوه: ﴿فَلَا تُلْهُمُونِي لَوْمَةً أَنْفَكُمْ﴾ ثم يخلي بهم، وينفض يده منهم، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ووسوس لهم أن لا غالب لهم، فأما الساعة فما هو بمليهم إذا صرخوا، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِكَ﴾ وما بيننا من صلة ولا ولاء. ثم يبرأ من إشراكهم ويكفر بهذا الإشراك: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة، يصبها على أوليائه: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وكما تبرأ الشيطان من أتباعه جميعاً، يتبرأ المتكبرون من أتباعهم أيضاً في ذلك الموقف العصيب.

وقد ذكرت سورة البقرة أحد مواقف التبرؤ بين أولئك؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْخُذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾^(٢) إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٣) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كِرَّةً فَتَبَرَأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَلَهُمْ حَسْرَتِ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

الذين اتبعوا (المتبوعون) - وهم القادة والروساء والسادة الذين كانوا على الضلال - كما ذكر المفسرون^(٤) - يتبرؤون من أتباعهم الذين ناصرهم على الباطل والضلal، وتقطعت بهم أسباب النجاة، والوصل التي كانت بينهم من التبعية والمتبوعية

(١) في ظلال القرآن (٥ / ١٥٢).

(٢) انظر: جامع البيان (٣ / ٢٨٧)، والكشاف (١ / ٣٢٦)، ومفاتيح الغيب (٣ / ٢٣٧)، وإرشاد العقل السليم

(١ / ١٨٦).

على العلة الزائفة المنحرفة^(١). وانشغل كل بنفسه تابعاً أكان أم متبوعاً، وسقطت الرياسات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها وعجزت عن وقاية أنفسهم، فضلاً عن وقاية تابعيها، وظهر كذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام الله وأمام العذاب.

وتبدى الحق والغيب من التابعين المخدوعين بالقيادات الضالة، وتمنوا لو يعودون إلى الأرض فيبتروا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها، التي خدعتهم ثم تيرأت منهم أمام العذاب^(٢).

والقرآن الكريم يعرض على الناس هذه المشاهد ليتبينوا حقيقة هذه القيادات في الدنيا، وأنها - وإن بدت قوية بما تملك من عتاد ومال وجند - ضعيفة في الحقيقة، ولا تستطيع دفع الضرر عن نفسها، فضلاً عن أن تدفعه عن غيرها. وعلى ذلك يتبرأ الضعفاء من هذه القيادات في الدنيا، بعدم اتباعها والانصياع لأوامرها وتقليدها في أفعالها، قبل أن تتبرأ هذه القيادات من أتباعها يوم القيامة. وظاهر لفظ الآية يدل على أنها مختصة بالكفار، ولكن السبب الموجب للحكم يشمل كل من اتبع وناصر أهل الجور والفساد، ومن اعتقد أن غير الله ينفع ويضر، ومن أخذ دينه عن أهل الجهل والضلال. إن هذه الآية تشمل هؤلاء جميعاً حتى من نطق بكلمة التوحيد وأقام الصلاة وآتى الزكاة^(٣).

وفي موقف آخر يعترف أولئك الأتباع بالتبعية وأنهم تنازلوا عن حرية التفكير والإرادة والاعتقاد لأسيادهم المتكبرين، قال تعالى: ﴿وَيَرْوُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْتَابُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ [إبراهيم: ٢١]^(٤).

فالضعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله، حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والانجاء، وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين الطغاة، ودانوا لغير الله من عباده. والضعف ليس عذراً، بل هو الجريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه ليعتروا به. وما يريد لأحد أن

(١) انظر: إرشاد العقل السليم (١/١٨٦)، والبيان في تفسير القرآن، للطوسي (٢/٦٥).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/٢١٧). (٣) انظر: التفسير الكاشف (١/٢٥٦).

(٤) وفي آية أخرى: ﴿وَيَذَرُكَ الْغُيُوبَ فِي الْآثَرِ يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْتَابُونَ عَنَّا قَيْبًا يَوْمَ الْآثَرِ يَا قَوْمِ أُولَئِكَ ابْتِغَاءً لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ [الأنعام: ٢١].

ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية، أو ينزل كارهاً. والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الأدمية. فأقصى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحسبه. أما الضمير.. أما الروح.. أما العقل، فلا يملك أحد حبسها ولا استدلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال. فمن ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة؛ لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم.

إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة، فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وما الذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان. إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير، إلا برغبة هذه الجماهير. فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت، فالإرادة هي التي تنقص هذه الجموع، إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء، وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة. والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾، وقد اتبعناكم فانتبهنا إلى هذا المصير الأليم. ولعلمهم وقد رأوا العذاب يريدون تأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة، وتعريضهم إياهم للعذاب.

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال: ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ وهو رد يبدو فيه البرم والضيق، فكانهم يقولون: لماذا تلومونا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد، إننا لم نهتد، ولو هدانا الله لهداناكم إلى الهدى معنا، كما قدناكم حين ضلنا إلى الضلال^(١).

وفي موقف آخر يلقي المستضعفون على المستكبرين مسؤولية ضلالهم وعدم إيمانهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٣) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ كُرًّا عَنِ الْمُنْذَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلْ كَثْرَةِ تَجْرِمِينَ (٣٤) وَقَالَ

الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ... ﴿سبا: ٣١-٣٣﴾.

فالآية تظهر أن المستضعفين يواجهون المستكبرين مواجهة لم يكونوا في الدنيا قادرين عليها؛ فقد كان يمنهم الذل والاستسلام من ذلك، ولكنهم في اليوم الآخر وقد سقطت القيم الزائفة، وواجهوا العذاب الأليم، يقولونها غير خائفين: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾. فيضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا فهم في البلاء سواء، وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا البلاء، وعندئذ يردون عليهم باستكبار، ويجهونهم بالسب الغليظ: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَمْحُ صَدَدْتَكُمْ عَنْ أَلْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَيْكِينَ﴾ فهم يتخلون عن التبعة ويقرون بالهدى، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين، ولا يأخذون منهم رأياً ولا يعتبرون لهم وجوداً، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة. أما اليوم - وأمام العذاب - فهم يسألونهم في استنكار: ﴿أَمْحُ صَدَدْتَكُمْ عَنْ أَلْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَيْكِينَ﴾. ولو كانوا في الدنيا لقبح المستضعفون لا يتكلمون كلمة واحدة. ولكنهم في الآخرة؛ حيث تسقط الهالات الكاذبة، والقيم الزائفة وتفتح العيون المغلقة، وتظهر الحقائق المستورة، ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يفتر نهائياً ولا ليلاً للصد عن الهدى والتمكين للباطل، ولتلبس الحق، وللأمر بالمنكر، وللاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾، ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينجيهم ولا ينفعهم، فلكل جريمته وإثمه، المستكبرون عليهم وزرهم، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم. والمستضعفون عليهم وزرهم، فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين، لقد كرمهم الله بالإدراك والحرية، فطولوا الإدراك، وباعوا الحرية، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً، وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستدلين، فاستحقوا العذاب جميعاً، وأصابهم الكمد والحسرة، وهم يرون العذاب حاضرًا ومهيئًا لهم^(١): ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

وفي موقف آخر يتهم المستضعفون المستكبرين باستخدام القوة لإجبارهم على الكفر

والضلال، قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ^(١٧) قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ ^(١٨) قَالُوا بَلْ لَأُرْكَبُوا مُؤَيَّنِينَ ^(١٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِعِينَ ^(٢٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَأَاقِبُونَ ^(٢١) فَأَعْوَجْتُمْ إِنَّا كُنَّا عَوْجُونَ ﴿ [الصفوات: ٢٧ - ٣٢].

والمعنى: أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر والغلبة^(١) حتى تحملونا على الضلال وتفسرونا عليه. وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم.

فيرد الرؤساء على الأتباع هذا القول، ويتبرزون من هذه التهمة: ﴿ قَالُوا بَلْ لَأُرْكَبُوا مُؤَيَّنِينَ ^(١٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِعِينَ ﴿. أي: أنتم أبيتم الإيمان وأعرضتم عنه، مع تمكنكم منه، ولم يكن لنا من سلطان عليكم نرغمكم به على قبول الكفر، ولكنكم تجاوزتم الحق واخترتم الكفر^(٢).

وأمام هذه المواقف يوم القيامة يدعو الأتباع المستضعفون ربهم أن يضاعف العذاب للمتبعين. قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِيدَةً عَدَابًا ضَعْفًا فِي النَّارِ ﴿ [ص: ٦١] ^(٣)، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جِيعًا قَالَتْ أَخْرِثُهُمْ لَأَوْلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَوْنَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴿ [الاعراف: ٣٨].

أي: قالت أخواهم منزلة أو دخولاً (وهم الأتباع) لأولاهم منزلة أو دخولاً (وهم القادة والرؤوس) ومعنى لأولاهم: لأجل أولاهم؛ لأن الخطاب مع الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَوْنَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴿: أي مضاعفاً. فيقول لهم الله سبحانه: ﴿ لِكُلِّ ضَعْفٍ ﴿، أما القادة فلما ذكر من الضلال، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم^(٤).

ويعترف المستضعفون بأنهم أطاعوا ساداتهم وكبراءهم، ويعلنون ندمهم على عدم طاعتهم لله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ^(٥) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَصْلَوْنَا السَّبِيلَا ^(٦) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿ [الاحزاب: ٦٦ - ٦٨].

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٣٣٩)، وجمع البيان (٨/ ٦٨٩).

(٢) انظر: الكشاف (٣/ ٣٣٩).

(٣) يذكر الطبري أن الأتباع يقولون: « من قدم لنا هذا العذاب، بسبب دعوته إيانا إلى الكفر في الدنيا، فزده عذاباً ضعفاً في النار ». انظر: جامع البيان (٢٣/ ١١٦).

(٤) انظر: الكشاف (٢/ ٧٨)، وإرشاد العقل السليم (٣/ ٢٢٧).

يقول الشوكاني: « وفي هذا زجر عن التقليد شديد. وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدي به، وينصف من نفسه. لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزید البلاء، وشدة التعصب »^(١).

فإذا تدبر أصحاب القلوب الواعية هذه المواقف التي ستكون في يوم القيامة في ذلك الموقف العصيب، فإنها ترفض أن تكون تابعة ومقلدة لغيرها، خوفاً من أن تلقى ذلك المصير الرهيب، وكذلك لا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء والاستكبار، ولا يهجم في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم، والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها، إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملاها الشعور بالله ومنهجه في الحياة. أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشياؤها وأعراضها وقيمها وموازينها حساباً، ولا يبغون فيها كذلك فساداً. أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة، تلك الدار العالية السامية^(٢).

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُحِبِّينَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفصص: ٨٣].



(١) فتح القدير (٤/ ٣٠٦).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ٣٧٨).

الْمِحَّةُ الْخَامِسُ

تعبئة أبناء الأمة ليصبحوا حملة رسالة

إن الأمر يتعلق بحل جذري لمعضلة المستضعفين، ولا نقصد بالحل الجذري المفهوم المعهود عند مفكري الجاهلية الذي يختزلونه في الثورة والعنف. فعندما نتحدث عن تعبئة إسلامية فإننا نقصد بذلك تربية إسلامية والتزاماً من الفرد للانخراط في مشروع بناء الأمة على نسق المنهاج الإسلامي الذي لا يعرف العنف. وليس على شاكلة العمل الجاهلي الذي يشكل العنف ركيزته الأساسية.

وتقتضي هذه التعبئة أن يعكف حملة الرسالة على الأشياء والأحداث يتفحصونها ويستتقونها لإثبات الإسلام كمحرك للإنسان، يحركه لإنجازات أذهلت العالم في ماضيه، ونتظر أن يعود الله علينا بعوائد خيرة، فيعود الإسلام ليحرك الإنسانية نحو مستقبل يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

يكون منهج المرشحين لإحداث التغيير المنقذ للإنسانية، هو التلمذة للقائد النبي الأمي ﷺ وجماعته، فينظروا كيف كان هادياً وقائداً. وكيف نشأت الجماعة الأولى، وما نوع الأواصر التي كانت توثق البناء الأول، والبنية العضوية التي جعلت الجماعة الأولى كالجسد الواحد، يجير أديانهم على أعلاهم.

يجب أن يكون المنهج محددًا بالهدى الإلهي، الذي هو تحرير الإنسانية من قبضة المادة، دون أن يعوق ذلك إعداد القوة كما أمر الله تعالى.

ولئن كان لكل منظومة فكرية مثال تضعه نصب أعين الناس ليعملوا على تحقيقه، فإن الدعوة الإسلامية تضع للناس في كل زمان نماذج إنسانية رائعة للقدوة والأسوة.

والطاقة التي تحول الناس من السلبية إلى التعبئة والبناء وتلفت كل همهم عن قيمهم الموروثة إلى قيم جديدة؛ تكمن في شخص حامل الرسالة وما معه من غناء وسابقة وحظ من الله، هذه الطاقة كانت المحرك الأول للإسلام، وهي نفسها التي تعيد إلى الإسلام حيويته، وهذه الطاقة هي مناط الوراثة النبوية في قوله الرسول الكريم: «العلماء ورثة الأنبياء»^(١).

(١) صحيح ابن حبان، كتاب العلم، باب: ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل (١/ ٢٩٠).

إن البداية هي قيام طائفة من أكابر الأمة، تجمع طاقات الأمة وتعبئها وتنظمها لتكون قوة فاعلة في دنيا الناس. والغاية صناعة حرية الإنسان ليسمو إلى قيمته الكونية ويعتقه من نجس نفسه بالتردي في المادة.

إن الإسلام يوقظ الإنسان لشعر بقيمته، فيصبح لديه الوعي الشامل لمكانته. والإسلام يخاطب العقل أولاً، ويخاطب الإرادة بعد ذلك، يخاطب العقل ليعرف آفاقه وحدوده ويفتح للتلقي من معالم العطاء الإلهي، ويخاطب الإرادة لتوجه عمل الإنسان لتحقيق هدف وجوده، وتحرره من عبودية ما سوى المعبود الحق.

والعملية عملية تربية، بمعنى المعالجة الدائمة والتزكية القرآنية والتحرير القرآني، فالتزكية تريض وتحويل من خبيث إلى طيب، والتحرير نقل من ذل إلى عز. فالمؤمن بالله ورسوله، المستمسك بسبل اليقظة والكينونة في صف المقبلين على ربهم، إنسان الفطرة، إنسان حر، فإن هبط عن هذا الموقف وكان في عقيدته دغل أو في عمله بعد عن صواب السنة تعرض للعبودية. إنسان الفطرة، الذي هو مقصود التعبئة والتربية. نتاج للتربية، التطبيب، يزيل عنه إيمانه عوامل التردّي ويتغلب على وهنه وشهوته.

إن العناصر المؤمنة المتبعة للرسول المتحررة من شهوات النفس على مدى تاريخ الإسلام أقلية في الأمة، لكنها كانت النواة الصلبة في جسم الجماعة المؤمنة.

ولا زالت العناصر المؤمنة الحاملة لرسالة التحرير باقية في دار الإسلام مغلوبة على أمرها، فهي مع الأغلبية الصامتة من جماهير المسلمين المستضعفين سواء منهم من تعرف على رحمة الإسلام وعدله كمعراج للخلاص الإنساني أو من بقي له الإسلام عقيدة قومية أضعفتها عوامل التعرية الاستكبارية، وتطبيب الأفراد وتعبئتهم وتربيتهم تربية إسلامية جديدة مجددة يزيد عدد العناصر اليقظة، لكنه لا يكفي ليخرج الإسلام من الزوايا والمساجد «المقننة» فيصبح واقعاً متصراً في دنيا الناس.

ولتقوم الأمة الإسلامية ويتم تجديدها لا بد مع التربية الشاملة، من تحرير إرادة الفرد حتى تذهب عنه أنانيته. ليوجه هذه الإرادات المتفوقة وجهة العمل الجماعي المنظم، وإن نجحنا في تحرير الإرادة بعد تحرير الضمير كملت لنا التعبئة التي نشدها، والتعبئة الإسلامية المنشودة ليست كالتعبئات الأخرى. فهي جمع لجهود الإنسان الفطري، الإنسان الصادق، الإنسان الذي له ذمة وحرمة وكرامة تتجاوز حياته على الأرض

لتنصرف هذه الجهود إلى ابتغاء موعود الله وموعود رسوله ﷺ.

التعبئة الإسلامية، تربية الجميع على طاعة الله ورسوله والتخلص من عوامل الوهن والإقبال الدائم على الجهاد. وتربية المرء على الطاعة الإسلامية هي كمال انضباطه؛ لأن من يقف أمام الخالق الذي يعلم سره وعلانيته والذي خلقه ويتحكم في مصيره لا يملك إلا أن يطيع الله ورسوله وأولي الأمر من المؤمنين.

والانبعاث الإسلامي المنشود - أي تعبئة الإرادات لتحقيق العمل على الأرض فيما يرضي الله - لا يمكن أن يتم إن لم تتحول العلاقة بين الأمة ومن يرأسها من بيعة إلى مبايعة، والمبايعة التزام من طرفين؛ قائد ذي ذمة ومؤمنين ذوي ذمة على إقامة شرع الله.

وهذا يقتضي بالطبع أن يتحرر القائد من أنانيته وأن يرفع عينيه عن متاع الدنيا ليمدها إلى موعود الله ورسوله، ولا يكون انبعاثاً إسلامياً وتجديداً للإسلام أن يجمع القائد بيعات ونيته لَمَّا تصفُ لله وهمته لا تزال معلقة بالدور والقصور ومتاع الدنيا.

إن الأمة المبعثرة تعيش أزمات مادية وروحية ونفسية، ومن أكبر هذه الأزمات، بل أهمها: أزمة الثقة ولن يبايع المسلمون مبايعة صادقة من لم يسترجع ثقتهم.

ومن الأمثلة الرائدة لنيل ثقة الأمة، سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، هذا الرجل الذي أعاد الضياع إلى أهلها، وانتزع حتى حلي زوجته، واستكثر ثمن قميص بعشرين درهماً، وقد كان زمن ترفه لا يقنع بحلّة مائتي دينار.

سيرة عمر بن عبد العزيز، سيرة الطريق الصعب. لكن سلوكها هو الوسيلة الوحيدة لاستعادة الثقة واستحثاث القيادة المجددة. ومن سلكها كان له أن ينتظر مبايعة يرضاه الله ورسوله، وأن يتوقع نصر الله الذي يدافع عن الذين آمنوا. الأمر يقتضي ممن ينبري لتعبئة طاقات الأمة أن يعطي المثال والنموذج في نفسه، فيبدل ماله ونفسه في سبيل الله، ويخرج من أنانيته خروجاً كاملاً؛ لأنه يرصد منذئذ ماله ونفسه في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله ونصرة المستضعفين، فهو في مرابطة دائمة ويقظة تامة وتأهب مستمر، معبأ في المنشط والمكره.

والمؤمن المعبأ، إنسان خرج من عاداته ومألوفه ووجه حركاته ونياته الوجهة التي فيها خلاصه وخلّاص الأمة، فهو المؤمن الذي تحققت فيه شروط الاتباع، الذي يهتدي

بالقرآن ويستقي من معينه الحياة والقوة. يقظته الإيمانية تعطيه البعد الروحي وصدق ولائه يوجهه إلى الجهاد على الأرض ليحقق شريعة الله.

والضامن لنجاح التعبئة الجهادية هو تربية حامل الرسالة على الصدق، فنجاح كل دعوة يتوقف على صدق الداعي، ولا نقصد بالصدق مجرد خروج الإنسان من النفاق فقط، وهو قول الصدق والوفاء بالعهد والأمانة. وإنما نقصد الصدق مع الله، ولهذا الصدق مراتب تتفاوت بحسب التفاوت في القرب من الله تعالى. والتربية على الصدق تتم عبر الجهاد والعمل الجاد والصبر والبذل.

والتربية النبوية جعلت الإيمان رهيناً بالعطاء والبذل، بذل المال أولاً والنفس ثانياً، وبدون البذل والعطاء لا يكون إيماناً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ مَأْتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُمْرِقِينَ لِمَا بَرَأْتُوا وَيَجْهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وإذا كان الغرض من التربية - بما هي تربية روحية وعملية وعقلية - أن تذوب أنانية الفرد ويذهب انطواؤه على مصالحه وشهواته. فإن أقرب الوسائل وأنجعها لمعرفة درجة إيمانه وامتحانه هي بذل ما يملك، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فالمال مطية المؤمن للبر. وصدق ربنا حيث وجه عباده، قال تعالى: ﴿لَنْ نَنالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِنَّا يُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].



خَاتِمَةٌ

بلغ البحث إلى ختامه، وطلع بدر تمامه، وانتهى إلى خلاصات ونتائج، أهمها:

١ - تم النظر إلى مفهوم الاستكبار والاستضعاف من خلال منهج الدراسة المصطلحية، وهو منهج يهدف إلى تبيين المفاهيم وبيانها، اعتماداً على أصول وأدوات منهجية، تعتمد الوصف وتجمع بين الاستقراء والتحليل والتعليل والتركيب. وتكمن فائدة دراسة المفاهيم القرآنية على ضوء هذا المنهج في تحرير واقع البحث المصطلحي القرآني من المذهبية في الفكر، والعمومية في القول، وتعطي للمصطلح مفهومه القرآني الخالص.

٢ - هناك تمايز بين الدراسة المصطلحية والتفسير الموضوعي من حيث المنهج والهدف. فعلى مستوى المنهج فأهم ما يميز الدراسة المصطلحية عن التفسير الموضوعي ارتكازها على أدوات منهجية محددة، تمثل روح المنهج الوصفي، كالإحصاء والدراسة المعجمية والنصية والتصنيف المفهومي لكل الظواهر اللغوية والدلالية التي تخص المصطلح وما يتعلق به.

أما التفسير الموضوعي فهو يفتقد لمثل هذه الخطوات المنهجية الدقيقة، فهو يتبع كلمة « من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها »^(١).

وعلى مستوى الهدف فالدراسة المصطلحية تهدف إلى تحديد مفهوم المصطلح المدرس، عبر دراسة دقيقة لنصوصه، في حين يهدف التفسير الموضوعي إلى بيان تلك النصوص من خلال دراسة الكلمات والألفاظ الدائرة فيها.

وهذا التباين يجعل من الدراسة المصطلحية أصلاً، فهي لب البحث وجوهره، أما التفسير الموضوعي فهو فرع تابع لها، يخصص عادة لعرض أهم القضايا المستفادة من مراحل الدراسة المصطلحية السابقة وهي: التعريف والصفات والعلاقات والضمائم

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، لمصطفى مسلم (ص ٢٣).

والمشتقات. إنه في مجال التفسير هدف، أما في مجال الدراسة المصطلحية فهو نتيجة.

٣ - الاستكبار والاستضعاف مفهوم عقدي بالدرجة الأولى، لقد ارتبط في جل النصوص التي ورد فيها بموضوع الإيمان برسالات الأنبياء أو الإعراض عنها. وهو بذلك يتجاوز البعد المادي أو الاقتصادي المحدود، الذي أعطاه البعض لقضية التدافع بين المستكبرين والمستضعفين. فهؤلاء صراعهم ليس على الأرزاق فقط، بل يتعداه إلى صراع ذي طبيعة عقدية بالأساس، في معاني احتقار المستكبرين للمستضعفين والاستخفاف بهم وبعقيدتهم، ومنعهم من عبادة الله والتحرر من كل عبودية لسواه.

ومما يقوي هذا الاستنتاج، ورود معظم الآيات الحاملة للمصطلح مكية، ورد المفهوم في جلها في معرض قصصي، منذ بدء الخليقة؛ حيث استكبار إبليس - لعنه الله - عن الامتثال لأمر الله له بالسجود لأدم، ثم استكبار قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقريش وكل أهل الباطل على امتداد التاريخ.

٤ - القرآن الكريم أولى عناية كبيرة لموضوع الاستكبار والاستضعاف؛ حيث تناول كل القضايا المتعلقة به وفصل فيها. عكس الحديث النبوي الشريف الذي جاءت نصوصه مدعمة ومؤكدة لما قرره الله تعالى في كتابه العزيز. وهذا ما يفسر قلة ورود هذا المفهوم في الحديث الشريف مقارنة مع القرآن الكريم. زد على ذلك أن النص الحديثي ركز أساساً على مسألة مصير المستكبرين والمستضعفين غداً يوم القيامة؛ لهذا الاعتبار كانت دراسة مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم - حسب رأينا - كافية للإحاطة بمختلف جوانب الموضوع.

٥ - أهم ما ميز مصطلحي الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم ورودهما بصيغة الفعل أكثر من الصيغ الأخرى؛ فالاستكبار أساساً فعل ممارس أكثر منه صفة، إنه رفض لدعوة الأنبياء وإعراض عنها، وصد للناس عن اتباعها. أما الاستضعاف فوروده فعلاً مبنياً للمجهول في معظم الموارد فيدل على أنه فعل واقع على فئة من الناس، لإيمانهم أو لضعفهم حساً أو معنئياً.

أما على مستوى أركان الدراسة المصطلحية فأهم ما يلاحظ هو وفرة العلاقات مقارنة مع باقي الأركان، مما يبرز التعالق القوي لمصطلحي الاستكبار والاستضعاف بغيرهما من المصطلحات المؤلفة والمخالفة. كما أن تلك الألفاظ ذات العلاقة هي في معظمها

مصطلحات عقديّة؛ كالكفر والإيمان والعلو والعتو والجحود والإبء وغيرها.

٦ - على مستوى القضايا نستخلص ما يلي:

- ثنائية الاستكبار والاستضعاف موجودة في كل المجتمعات البشرية على مر العصور.

- أخطر أسباب الاستكبار، المال والسلطان. فالمترفون على مدار التاريخ يتكبرون النبوات ويتكبرون عن اتباع أصحابها؛ لأنها تهدد مصالحهم وامتيازاتهم القائمة على الاستغلال.

كما أن الحكام الظالمين يستخدمون كل الوسائل المتاحة للإبقاء على سلطانهم، ولو اقتضى الأمر محاربة كل دعوى تدعو إلى العدل والإنصاف، بله الاستكبار عنها ورفضها.

- كل المستكبرين من الكافرين وليس كل المستضعفين من المؤمنين، فممنهم من خضع للمستكبرين واتبع ملتهم بسبب الخوف والحفاظ على المصالح والامتيازات. ولكن لا شك في أن أكثر المؤمنين بالأنبياء هم دائماً من الفئة المستضعفة؛ وذلك لأن الفطرة التي هي الأرضية المستعدة لقبول الرسالة، وإن كانت مشتركة بين الجميع إلا أن الفئة المستكبرة المترفة مصابة بمانع كبير، وهو التلوث والاعتیاد بالوضع الموجود. أما المستضعف فلم يصب بهذا المانع بل يجد في ذلك مضافاً إلى إجابة نداء الفطرة، نيله لحقوقة الضائعة.

- الإيمان بالله واتباع الهدى من أهم الوسائل التي تمنع انتشار الاستكبار والاستضعاف في أي مجتمع من المجتمعات.

فبالإيمان ينزل المستكبر من عليائه حين يوقن أن قوة الله فوق قوته، وبالإيمان كذلك يرتفع المستضعف من حضيضه فلا يرضى بالذل والهوان، بل يرتقي بإيمانه وجهاده إلى مرتبة الاستخلاف والوراثة.

- اندراج ثنائية الاستكبار والاستضعاف ضمن السنن الاجتماعية والتاريخية في القرآن الكريم، في خاتمة الصراع بين الحق والباطل وقوانين سقوط الأمم ونهوضها. وذلك من جانب علاقة الكسب البشري بالمؤيدات العقابية.

كما حصل للمستكبرين من أقوام الأنبياء، الذين أهلكوا ودمرت قراهم لاستكبارهم وإعراضهم عن الحق، أو بالمؤيدات التمكينية، كما هو حال المستضعفين المؤمنين، الذين نالوا الوراثة والتمكين لإيمانهم وصبرهم وجهادهم.

ومن شأن التعمق في دراسة هذه القضية أن يزيد البحث غناء وقوة. وهذا ما انعقد العزم على إنجازه فيما يستقبل من الزمان إن شاء الله.



آلْفَهَارِسُ

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس المصادر والمراجع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ لَابَسْمَلِكُمْ...﴾ ٣٧

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَلَا تَزُولُ غَنَّةٌ عَلَيْكُمْ فَأَسْمِعُوا...﴾ ١٨٢

﴿وَأَعْرَضُوا إِذْ أُنزِلَ فِيهِمْ مَثُورًا...﴾

﴿فِي الْأَرْضِ...﴾ ٥٠، ٤٨

﴿وَأَذِّنْ لِلْبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَنْقُلُوا...﴾

﴿أَنْ يَخْرُجُوا...﴾ ٢٥٥

﴿وَأَلْفَ نَجْمٍ الصَّائِغِينَ...﴾ ٢٥٥

﴿وَقَدِيرُوهُمْ حَقٌّ لَا تُكَلِّمُ كُنُوزَهُ...﴾

﴿كَلِمَةً...﴾ ٢٩٦

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْأُنثَى كَثْفًا...﴾ ١٨٧

﴿كِتَابٍ مَالٍ يَرَوْنَهَا...﴾

﴿يَقَاتِلُ أَهْلَهُ فَأَتَدَّبَّهُمْ...﴾ ٢٨٥

﴿إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا...﴾

﴿سَبِيلَ اللَّهِ...﴾ ٢٩٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا...﴾

﴿أَرْوَاحَهُ...﴾ ٨٦

﴿فَمَنْ رَزَقْنَاهُمْ...﴾ ١٨١

﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾

﴿الْكُفْرَ...﴾ ٨٦

﴿وَيَسْأَلُونَكَ...﴾

﴿خَيْرَ لَكُمْ...﴾ ٢٩٤

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ...﴾

﴿عَلَيْهِمْ...﴾ ٣١١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿مَا تَلَاقَ اللَّهُ...﴾ ١٥٠

﴿وَرُودًا إِلَى اللَّهِ...﴾ ١٥٠

﴿كَذَلِكَ...﴾ ١٥١

﴿أَجْمَعًا...﴾

﴿لَكُمْ...﴾ ٤٤، ٤٢

سُورَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ...﴾ ٩١

﴿أَمْ يَقُولُونَ...﴾

﴿مُفَرَّقِينَ...﴾ ٢٤٠

﴿أَلَا تَسْمَعُ...﴾

﴿يَصُدُّونَ...﴾ ٨٢

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا...﴾ ١٣

﴿وَمَا رَزَقْنَا...﴾

﴿أَرْأَى...﴾ ٦٥، ٤٣

﴿وَتَسْمَعُ...﴾

﴿سَخِرُوا بِهَا...﴾ ٢١٥

﴿وَتَقَوْمَهُ...﴾

﴿عَلَيْكُمْ...﴾ ٢٢٠

﴿قَالُوا...﴾

﴿أَنْ تَسْمَعُ...﴾ ٤٢

﴿فَتَقَرَّبْنَا...﴾

﴿أَنْتَابَهُ...﴾ ٢٧١

﴿تَوَاتَى...﴾ ١١٧

﴿قَالُوا...﴾

﴿مَا يَنْبَغُ...﴾ ٤٢

﴿قَالُوا...﴾

﴿يَا...﴾ ٤٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿وَمَا آتَى...﴾ ١٢٧

﴿وَأَلْقَى...﴾ ١٤٧

﴿وَمَا يُؤْمِنُ...﴾ ١٢٧

﴿وَلَا يَرْؤُا...﴾ ٢٦٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿بَلْ رِئَاسَ...﴾

﴿الْحَبِيلِ...﴾ ٢٤٢

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿لَهُنَّ...﴾

﴿إِنَّ عَلَى...﴾ ٦٩

﴿إِنْ أُنزِلَ...﴾ ٢٣٨

﴿وَقَالَ...﴾

﴿أَيُّهَا...﴾ ٢٥٨

﴿وَمَا كَانَ...﴾ ١٩١

﴿وَمَنْ...﴾

﴿أَسْكَنْتُمْ...﴾ ١١٨

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ

وَعَدَّ لِقَىٰ... ﴾ ٣٠١

سورة المائدة

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِنَظَرٍ إِلَيْهِ

كَمَلٍ مُّشْتَبِهٍ... ﴾ ٢١٤

سورة العنكبوت

﴿ الْفِكَرَ لَهُ وَجِدُكَ تَالِيكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فَوَدَّ أَنَّ

وَهُمْ مُّشْكِرُونَ... ﴾ ٣٨

﴿ الَّذِينَ تَرَدَّدُوا عَنْكَ عَلَىٰ أَيْمَانِهِمْ تَالِفًا إِنَّهُمْ

يَأْتُونَكَ... ﴾ ١٩٤

﴿ وَبِعَدَّتِهِمْ تَأْتِي السَّمَكِينَ وَرِثَافِ الْأَرْضِ مِنْ دُونِ

وَالْمَشْجِكِ... ﴾ ٣٧

﴿ تَرَىٰ عَيْدٍ سَبِيلًا مِمَّنْ دَعَبُوا أَوْ تَسْمَعُ مِنْهُمْ وَهُمْ

يُنَادُونَكَ حَيُّوا حَيُّوا... ﴾ ٢٩٠

﴿ مَنْ تَرَخَّ عَنْهَا كَثُرَ سُوءَاتُهَا وَمَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ... ﴾ ١٢٧

سورة الاحزاب

﴿ وَتَلَقَّ سُرَّتَنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيُكْفِرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ

إِلَّا هُمُورًا... ﴾ ١٠٤

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُبَشِّرُونَ إِنَّمَا تُنذِرُونَ بِالْأَمْرِ نَسْخُورًا... ﴾ ٢٣٩

﴿ وَإِنْ كَانُوا لَا يَتَنَبَّأُونَ بِكَ مِنَ الْأَرْضِ

يُنذِرُونَكَ... ﴾ ٢٦٠

﴿ فَذَلِكِ الْأَرْضُ مَرْغَبًا مِمَّنْ يَتُوبُ

مُتَّسِلِينَ تَرْتَابًا عَلَيْهِمْ... ﴾ ٢٤٢

سورة الكهف

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ

مِنَ الْغِيثِ... ﴾ ٢١٤

سورة القصص

﴿ وَيَتَّبِعُنَّ عِوَجَ السُّكْتِ يَبْقَوْنَ فِيهَا... ﴾ ١١٧

﴿ وَكَمْ يَتَّبِعُنَّ عِوَجَ سَبِيلِ اللَّهِ... ﴾ ١٩١

﴿ وَبِذِكْرِ الرَّبِّ هُمْ كَاثِرُونَ... ﴾ ٢٧٥

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَعَا جُنُودَهُمْ وَقَالَ لَا يُغْنِي عَنْكَ مَالُكَ

وَأَوْلَادُكَ... ﴾ ٢٥١

سورة طه

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ الْكُتُبِ الَّتِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ

الْبُحْرَ... ﴾ ٢٦٣

﴿ فَأَقْبِسَ بِمَا كُنْتُمْ تَقْبِسُونَ فَلَمَّا قُلْنَا لِقَوْمِ الْفِرْعَوْنَ

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى... ﴾ ٢١٤

﴿ فَلَمَّا بَعَثْنَا لِقَوْمِ الْفِرْعَوْنَ فَجَاءَهَا

سورة الزمزم

﴿ بَلْ قَالُوا أَتَمَكَّنَّ أَنْ يُدْخِلَهُمْ فِيهَا مِنْ أَرْضٍ غَيْرِ

مِلَّةِنَا بِآيَاتِهِ... ﴾ ٢٤٠

﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْقِصَّةَ الْأُولَىٰ وَنُنذِرُ

لَا يَسْتَكْبِرُونَ... ﴾ ٣٧

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا جَعَلْنَا

إِلَّا هُمُورًا... ﴾ ٢٤٦

سورة الحج

﴿ وَلَكِنْ تَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿ وَتَتَّبِعُوا فِي الْأُمُورِ حَتَّىٰ يُجَاوِزَ

سورة البقرة

﴿ وَتَلَقَّكَ مُوسَىٰ فِي الْغُوَابِ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم

اللَّهُ... ﴾ ٢١٧

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا

بُرْهَانٌ... ﴾ ٢١٧

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَقَالَ هَارُونَ بِأَخِيكَ وَطَلْحَةَ

إِلَّا وَتَتَّبِعُونَ... ﴾ ٥٥، ٤٣، ٣٥

﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتُنَا مَا يَتَذَكَّرُ فِيهَا... ﴾ ٥٥

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ بِالْأَمْرِ إِذْ هُمَا

سورة البقرة

﴿ وَلَا تَقْرَأُوا لَهُمْ فِتْنَةً إِنَّمَا هُمْ فَسَقُونَ... ﴾ ٧٣

سورة المائدة

﴿ قَالَ هَذَا أَسْمَانُ الَّذِي كُنْتُمْ تُبْغُونَ

الْكَافِرِينَ... ﴾ ٢٣٩

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِقَابَ رَبِّهِمْ لَسْنَا

أَوْ رَبِّهِ رَبَّنَا... ﴾ ٦١، ٣٨

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ إِنَّ بُعِدْتُ عَنْكَ إِلَّا هُمُورًا

سورة النحل

- ﴿ آتتكم من السماء غماماً ذوات أطرافه المثلج ﴾ ٢٥٥
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٦٦
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٨٨
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٤١

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٤٠
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٧٩
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٤١
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٦٦

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٣٨
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٧٣

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٩٨
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٥٧
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٩٦
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٩٦

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٧٣
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٥٠
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١١٢

- ٢٤٦
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٠٤

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٥٥
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٦٦
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٢٨
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٥٩

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٩٨
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٨٨
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٣٢
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٦٩
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٥٩

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٥٠، ٣٥
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٧١

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٨٢
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١٦٨
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢١٩
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ١١١
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٣٣

سورة النحل

- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٢٧٤
- ﴿ فاستسبحوه في حمائم وفطير وأسفاد وقوار ﴾ ٣٦

	سُورَةُ الْبَقَرَةِ	
	- ﴿سَخَّرْنَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لُجَالٍ وَرَقِيصَةٍ أَنْبَاءٍ﴾	
٢٧٥.....	﴿سُورًا...﴾	
	- ﴿فَلْيَنْقُصْ لَهُمْ رَأْيَهُ﴾	٢٧٢.....
	سُورَةُ الْبُرُوجِ	
	- ﴿وَأَنْ كَلَّمْنَا دَعْوَتَهُمْ بِتَقْوِيمٍ لَهُمْ جَمَلًا أَسْمِعُكُمْ﴾	
٣٥.....	﴿أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾	٤١.....
١٠٩.....	﴿وَنَفْسٍ أَلْفَسَ عَنْ أَلْفَى﴾	٢٧.....
	سُورَةُ الْبَزْرِجِ	
٢٦٣.....	﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وَالْبُورُ الْبُرُوجُ ﴿﴾	٢٤٤.....
	سُورَةُ الْمَائِدَةِ	
٨٧.....	﴿يُنَادِ فَكُرْهُنَّ﴾ وَالْمَيْمُونَةُ ﴿﴾	
	﴿ثُمَّ أَوَّزْنَاكَ﴾ فَقَالَ إِنَّ عَدَاؤَ بَرٍّ مَبْرُورٍ ﴿﴾	
٢٧٧.....	﴿إِنْ عَدَا...﴾	
٢٤٧.....	﴿وَمَا جَعَلْنَا أَمْثَلَ الْكُفْرِ إِلَّا كَمْثَلِهِ...﴾	



فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	طرف الحديث
٢٣١	- ألا تنقي الله في هذا المسكين .
١٩٣	- إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله .
٢٦١	- أؤمخرجي هم؟ فقال: نعم .
٢٣٠	- بينا النبي ﷺ في حجر الكعبة إذ أنبل عقبه بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه .
٢٧٤	- حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه .
٢٥١	- ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم .
٢٣٢، ٢٣١	- شكوتنا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برده له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا .
٢٥٦، ٢٣١	- صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة .
٣٠٨	- العلماء وريثة الأنبياء .
٢٣٧	- الكبر بظر الحق وغمط الناس .
١٥٥، ٣٧	- الكبرياء رذائي والعظمة إزاري .
٢٥١	- كنت قتيلاً في الجاهلية وكان لي على العاص .
٢٩٢	- لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية .
٢٥٦	- لقد رأيتني يوماً وقد أوفدوا لي نازراً .
٢٠٢	- اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام .
٢٥٤	- ما جئت بما جئتم به أطلب أموركم .
٢٦٩	- من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه صغير .
٢٤٨	- نعم أنا أقول ذلك، يمهث الله وإياك بعدما تكونان هكذا .
٢٥٣	- يا أبا الوليد أسمع .
٢٥٧	- يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .



فَهْرِسُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ

كتب التفسير:

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت ٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- البحر المحيظ في التفسير: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٥٤هـ) طبعة جديدة بعناية الشيخ: عرفان العشا حسونة، مراجعة: صديقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- البيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تصحيح وترتيب وتعليق: أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير، المطبعة العلمية، النجف الأشرف (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، دار المعرفة، بيروت.
- تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء (ت ٧٧٤هـ) تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- التفسير الكاشف: محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٦٣م).
- تفسير السنائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي - صاحب السنن (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: سيد ابن عباس الجليمي وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- التفسير الواضح: محمد محمود حجازي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد عبد العليم البرودني، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثانية (١٣٧٢هـ).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) دار الفكر، بيروت (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) دار الفكر، بيروت (١٩٩٣م).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود الألوسي أبو الفضل (ت ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار الفكر، بيروت.
- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة التاسعة (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
- الكشف عن حقائق التنزيل وهيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز: القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

- معالم التنزيل (تفسير البغوي): الحسين بن مسعود الفراء البغوي أبو محمد (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: خالد العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- كتب علوم القرآن ومعانيه:
- الإقتان في علوم القرآن: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- الإعراب المفصل لكتاب الله العزلى: بهجت عبد الواحد صالح، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- البرهان في علوم القرآن: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله (ت ٧٩٤هـ)، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت (١٣٩١هـ).
- الحجة في القراءات السبع: الحسن بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: د. عبد العالي سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠١هـ).
- باحث في علوم القرآن: مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة عشرة (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- مدخل إلى علوم القرآن والتفسير: فاروق حمادة، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- معاني القرآن: الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاني ومحمد علي النجار، دار السور، بيروت.
- معاني القرآن وإعرابه: الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شليبي، عالم الكتب، الطبعة الأولى (١٩٨٨م).
- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٦م).
- كتب الحديث النبوي الشريف والسيره:
- الجامع الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجمعي (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- الجامع الصحيح المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلوم وما عليه العمل: الإمام أبو عيسى بن عيسى الترمذي السلمي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: صدي محمد جميل العطار، دار الفكر، بيروت (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- سنن النسائي: أحمد بن شيب أبو عبد الرحمن النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- سيرة النبي ﷺ: عبد الملك بن هشام، تعليق وضبط: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت (١٤١٠هـ/١٩٨١م).
- السيرة النبوية: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).
- صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- صحيح مسلم بشرح النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ).
- الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت (١٣٧٩هـ).
- المستدرک علی الصحیحین: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١١هـ/١٩٩٠م).
- المعاجم:
- أساس البلاغة: أبو القاسم جبار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٥٣م).
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.
- ناج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت (١٩٩٤م).
- ناج اللغة وصحاح العربية (الصحاح): إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت.
- ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة: الطاهر أحمد الزاوي، دار الكتب العلمية ودار المعرفة، بيروت (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- التعريفات: علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ).
- تهذيب اللغة: الأزهرى، تحقيق: مجموعة من الدارسين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٦٤م).
- التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣٦هـ)، تحقيق: د. محمد رضوان الدابة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٤٥هـ).
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بالسمن الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: د. محمد الترنجي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (١٣٧١هـ/١٩٥٢م).
- الكليات: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ)، قابله على نسخة خطية وأعدده للطبع ووضع فهارسه: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٢٤هـ/١٩٩٢م).
- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٧٢١هـ)، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- المختص: أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيدة (ت ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- معجم كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السمرائي، دار الحرية للطباعة، بغداد (١٤٠١هـ/١٩٨٥م).

- معجم مفردات الفاظ القرآن الكريم: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٣هـ)، ضبطه وصححه وخرج آياته وشواهده: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فواد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٤١هـ/١٩٩١م).
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق: محمود محمد الطاحي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- دراسات في المصطلح:
- أهمية منهج الدراسة المصطلحية في تجديد فهم الدين: د. الشاهد البوشيخي، نشرة أخبار المصطلح، ع ٤، رمضان (١٤١٨هـ/يناير ١٩٩٨م).
- القرآن الكريم والدراسة المصطلحية: د. الشاهد البوشيخي، سلسلة: دراسات مصطلحية (٤)، مطبعة أنفوبرانت، فاس، الطبعة الأولى (٢٠٠٢م).
- قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية: ندوة نظمتها جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ومعهد الدراسات المصطلحية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، مكناس في (٩ - ١٠ - ١١ مارس ٢٠٠٠م).
- قضية التعريف في الدراسات المصطلحية الحديثة: يوم دراسي نظمته مجموعة البحث في المصطلح شعبة اللغة العربية وآدابها وجة تتعاون مع معهد الدراسات المصطلحية، كلية الآداب، ظهر المهرز، فاس، إعداد عبد الحفيظ الهاشمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم (٢٤)، سلسلة ندوات ومناظرات (٨).
- مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية: د. الشاهد البوشيخي، سلسلة: دراسات مصطلحية (١)، مطبعة أنفوبرانت، فاس، الطبعة الأولى (٢٠٠٢م).
- المصطلح الأصولي عند الشاطبي: د. فريد الأنصاري (أطروحة مرفوعة).
- مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين: د. الشاهد البوشيخي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٩٩٣م).
- مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ: د. الشاهد البوشيخي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٢م).
- مفهوم الشهادة على الناس في القرآن الكريم وأبعاده الحضارية: د. عبد المجيد النجار، ندوة: الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية، كلية الآداب ظهر المهرز، فاس، وكلية الآداب سايس، فاس، ومعهد الدراسات المصطلحية، فاس.
- نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية المعروفة: د. الشاهد البوشيخي، بحث مقدم في ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، بالمدينة المنورة (٣٠ سبتمبر ٢٠٠٠م).
- نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية: د. الشاهد البوشيخي، سلسلة: دراسات مصطلحية (٣)، مطبعة أنفوبرانت، فاس، الطبعة الأولى (٢٠٠٢م).

- نحو منهجية للتعامل مع التراث: دورة علمية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى (٢٠٠٠م).
- نظرات في المصطلح والمنهج: د. الشاهد البوشيخي، سلسلة: دراسات مصطلحية (٢)، مطبعة أنفوبرانت، فاس، الطبعة الأولى (٢٠٠٢م).
- مراجع عامة:
- الإبلاغ والمحن في حياة الدعوات: محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).
- أبنية الأفعال: دراسة لغوية قرآنية: د. نجاة عبد العظيم الكوفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.
- أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين: الشيخ عبد الله التليدي، دار البشير.
- الاستقامة: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ).
- الإسلام ثورة مستمرة: عبد العزيز الكحلوت، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، الطبعة الأولى (١٩٨١م).
- أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: محمد حمد الله، دار المعارف، مصر.
- البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء (ت ٧٧٤هـ)، مكتبة المعارف، بيروت.
- تاريخ الأمم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- التطبيق الصرفي: د. عبده الراجي، دار النهضة، بيروت.
- التطبيق النحوي: د. عبده الراجي، دار النهضة، بيروت (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- الجهاد مبادئه وأساليبه: محمد نعيم نسيم، مكتبة الأقبص، عمان، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ/١٩٨١م).
- الحوار في القرآن: محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، الطبعة الخامسة (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).
- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- دراسات إسلامية: سيد قطب، دار الشروق، بيروت (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).
- ذم الهوى: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.
- روضة المحبين: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (ت ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- شرح أسماء الله الحسنى: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥هـ)، مطبعة الأمانة، مصر، الطبعة الأولى (١٩٦٦م).
- شمع الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ).
- صفة الصفوة: ابن الجوزي عبد الرحمن بن أبي الحسن، تحقيق: محمود فاخوري، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- طابع الاستبداد ومصارع الاستعباد: عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢م)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

فهرس المصادر والمراجع ٣٣٣

- الفصص القرآني إبحاره ونفحاته: فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- الكتاب: سيويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٩٨٩م).
- المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية.
- المجتمع والتاريخ: مرتضى مطهري، دار المرتضى، بيروت (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- معالم في الطريق: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة السادسة (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- المنطلق: محمد أحمد الراشد، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).
- من عرفان القرآن: محمد حسين فضل الله، إعداد وتنسيق: شفيق محمد الموسوي، دار الملاك، بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- الانحرافات الكبرى، القرى الظالمة في القرآن الكريم: سعيد أيوب، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).



السيرة الذاتية للمؤلف

د. مصطفى أوعيشة.

الجنسية: مغربي.

المؤهلات العلمية:

- حصل على الدكتوراه، من جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس - المغرب، تخصص الدراسات الإسلامية، سنة (٢٠٠٤م).

- حصل على شهادة استكمال الدروس (الدراسات المعمقة) من نفس الجامعة، سنة (١٩٩٧م).

- حصل على الإجازة (البكالوريوس) من جامعة المولى إسماعيل - مكناس - المغرب، سنة (١٩٩٦م).

الخبرات العلمية:

- رئيس مكتب الشؤون الدينية والمساجد، بمندوبية الشؤون الإسلامية بوزارات - المغرب، تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، في الفترة (٢٠٠٧ - ٢٠١٠م).

- رئيس مكتب التعليم العتيق، بنفس المندوبية المذكورة، من سنة (٢٠١٠م)، وحتى الآن (٢٠١٤م).

- تأطير أئمة المساجد في الجانب الشرعي والوظيفي، بنفس المندوبية المذكورة، من سنة (٢٠٠٩م) وحتى الآن (٢٠١٤م).

هذا بالإضافة إلى الحصول على دورات في المصطلح القرآني ودراساته والتكوين البيداغوجي الأساس.



من إصدارات دار السلام

- آيات في القرآن الكريم لا يُتَلَّغها إلا نبي (أ.د. رفعت السيد العوضي)
- اتجاهات التجديدي في تفسير القرآن الكريم (د. محمد إبراهيم شريف)
- إتحاف البررة بالقرآن المشرفة في القراءات والرسوم والأبي والتجويد (الشيخ علي محمد الضباع، تحقيق / الشيخ محمد الدسوقي)
- الإنتقان في علوم القرآن (الإمام السيوطي)
- أثر القراءات السبع في تطوير التفكير اللغوي (أ.د. عبد الكريم بكار)
- أثر القراءات القرآنية في الفهم اللغوي دراسة تطبيقية في سورة البقرة (محمد مسعود علي حسن عيسى)
- أثر القرآن في تحوير الفكر البشري (العلامة المجاهد الشيخ عبد العزيز جاويش)
- الأساس في التفسير (سعيد حوى)
- أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين (فضيلة الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- أسلوب الانتقادات في البلاغة القرآنية (أ.د. حسن طبل)
- أصول وضوابط علم القراءات والعلوم السبعة (فضيلة الشيخ محمد الدسوقي أمين كحلة)
- إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة (محمد شملول)
- إعجاز القرآن الكريم في تحريم الربا وتوظيفه في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية (أ.د. رفعت السيد العوضي)
- إعجاز القرآن الكريم في تشريع الميراث وتوظيفه في العلوم الإنسانية والاجتماعية (أ.د. رفعت السيد العوضي)
- إعجاز القرآن الكريم في مجالات العلوم الاجتماعية تكامل العقيدة والاقتصاد والسياسة (أ.د. رفعت السيد العوضي)
- أفلا يتدبرون القرآن (أ.د. طه جابر العلوانى)
- الإمام أبو بكر الرازي الجصاص ومنهجه في التفسير (د. صفوت مصطفى خليلوفيتش)
- أنوار الرحمن في مختصر أحكام تجويد القرآن (أحمد إبراهيم عبد الرحمن)
- أيسر التفاسير لكلام العمل الكبير (وهداهم نهر الخير على أيسر التفاسير) (الشيخ أبو بكر جابر الجزائري)
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة (فضيلة الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- بشير اليسر شرح ناظمة الزهر في علم الفواصل للإمام الشاطبي (فضيلة الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- النيان في آداب حملة القرآن (الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي)
- النيان في آداب حملة القرآن (إنجليزي) (الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، ترجمة / نوح عبد الله)
- النيان في تدبر القرآن (أ.د. أحمد عيسى المصراوي، أ.د. عبد الكريم إبراهيم صالح)
- تحفة الأطفال في تجويد القرآن ومعه متن الجزرية (الشيخ سليمان الجمزوري، محمد بن محمد بن الجزري)
- تفسير الإمام الغزالي (محمد الريحاني)
- تفسير جزء عم (مناسب لمراحل التعليم المختلفة) (أحمد فلاش)
- التفسير ورجاله (فضيلة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور)
- تفسير سورة الأنعام (أ.د. طه جابر العلوانى)
- التفسير الشامل للقرآن الكريم (د. أمير عبد العزيز)
- تفسير الضحاك (تحقيق / د. محمد شكري أحمد الزاويتي)
- التفسير والمفسرون بالمغرب الأنصبي (سعاد أشقر)
- التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد (أ.د. عبد الغفور محمود مصطفى جعفر)

- تفسير من نسات القرآن كلمات وبيان على هامش المصحف (عسان حدون)
- تلخيص الفوائد وتقريب الشاهد شرح عقيلة أتراب القصاصد في علم الرسم القرآني (أبو البقاء علي بن عثمان بن القاصح)
- التوجيهات والأثار الحوية والصرفية للقراءات الثلاثة بعد السبعة (أ.د. علي محمد فآخر)
- جامع البيان عن تأويل أي القرآن (تفسير الطبري) (ابن جرير الطبري)
- جهود الأمة في الإعجاز اليباني للقرآن الكريم المسار والمآل والمكتبة (د. الحسين زروق)
- حفظ القرآن (إنجليزي) (د. صفوت مصطفى خليلوفيتش)
- حفاقت وشبهات حول القرآن الكريم (أ.د. محمد عمارة)
- حفاقت وشبهات حول معنى النسخ في القرآن الكريم (أ.د. محمد عمارة)
- حول بعض القراءات القرآنية (الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- حول القراءات الشاذة والأدلة على حرمة القراءة بها (الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- دراسات في لغة القرآن الكريم (إنجليزي) (د. أحمد شفيق الخطيب)
- الدقائق المحكمة في شرح المقدمة فيما يجب على القارئ أن يعلمه (أبو يحيى زكريا الأنصاري)
- الدليل المفهرس لأيات القرآن الكريم (د. حسين محمد فهمي الشافعي)
- الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف (٢ لون) (د. حسين محمد فهمي الشافعي)
- رسم المصحف وضبطه بين الترتيف والاصطلاحات الحديثة (أ.د. شعبان محمد إسماعيل)
- زبدة التفسير من التفسير المنير (د. منير أحمد قاضي)
- شرح السنودي على متن الدورة التامة للقراءات العشر للإمام ابن الجزري (محمد بن حسن بن محمد السنودي)
- شرح الشاطبية (حزب الأمانى ووجه التهانى في القراءات السبع للشاطبي) (فضيلة الشيخ محمد الدسوقي أمين كحيلة)
- شرح متن عقيلة أتراب القصاصد في الرسم القرآني للإمام الشاطبي (الشيخ محمد الدسوقي أمين كحيلة)
- شرح المقدمة في فن التجويد ونحفة الأطفال والعلمان (الشيخ محمد الدسوقي أمين كحيلة)
- شرح منحة مولي البر فيما زاده كتاب النشر في القراءات العشر على الشاطبية والدوة (الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- الشيخ محمد متولي الشعراوي ومنهجه في التفسير (د. عثمان أحمد عبد الرحيم التميمي)
- شرح النظم الجامع لقراءة الإمام نافع (الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- صحيح مختصر تفسير ابن كثير (عهاد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير)
- طية النشر في القراءات العشر (الشيخ محمد بن محمد بن الجزري)
- علم أصول التفسير: محاولة في البناء (د. مولاي عمر بن حماد)
- فتح الرحمن في تفسير القرآن (أ.د. عبد المنعم أحمد تعيلب)
- فتح المعطي وغنية المقرئ شرح مقدمة ورش المصري (العالم العلامة محمد بن أحمد الشهير بالتولي)
- في إشرافة آية (أ.د. عبد الكريم بكار)
- القراءات أحكامها ومصدرها (أ.د. شعبان محمد إسماعيل)
- القراءات في نظر المستشرقين والمحللين (فضيلة الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- القراءات الواردة في السنة (ومعه جزء فيه قراءات النبي) لأبي حفص بن عمر الدوري (أ.د. أحمد عيسى المعصراوي)
- قرأت القرآن فاسترحت (أ.د. محمد عبد المنعم عبد العال)
- القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية (أ.د. الشاهد البوشيخي)
- القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية (إنجليزي) (أ.د. الشاهد البوشيخي)
- القرآن والقراءات والأحرف السبعة (أ.د. عبد الغفور محمود مصطفى جعفر)

- القواعد والإشارات في أصول القراءات..... (القاضي أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرضا الحموي تحقيق / أ.د. عبد الكريم بكار)
- قضايا إعجاز القرآن الكريم في نصوص القرن الأول الهجري..... (جمع وتوثيق ودراسة / د. الحسين زروق)
- الكافي في التجويد (رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق) (٢ لون)..... (أ.د. عبد العلي المشول)
- كيف نحفظ القرآن الوصايا العشر لحفظ كتاب الله..... (أبو الغداه محمد عزت محمد عارف)
- كيف نستفح بالقرآن الكريم؟ • خطوة نحو نديم أمثل •..... (د. أحمد البراء الأميري)
- كيفية الوقف عند حمزة وحشام من طريق الشاطبية..... (جمعها وأعداها/ محمد عبد الحكيم بن سعيد العبد الله)
- متن بهجة اللحاظ بها حفص من (روضة الحفاط) (آيات قصر المنفصل)..... (إبراهيم السنودي، تحقيق / عماد الدسوقي)
- متن الدرّة المتصلة للقراءات العشر..... (الإمام محمد بن محمد بن محمد بن الجزري)
- متن الشاطبية (المسح حرز الأمانى ووجه التهنيت في القراءات السبع)..... (القاسم بن فیره بن خلف الشاطبي)
- مجالس القرآن مدارسات في المفدى المهاجى للقرآن الكريم من التلقى إلى البلاغ (٣/١)..... (فريد الأنصاري)
- مدارسات في الهدى المهاجى لأية الكرمي..... (فريد الأنصاري)
- المدرسة السلفية في التفسير في العصر الحديث..... (د. محمد السبي)
- المرأة في القصص القرآني..... (د. أحمد محمد الشرقاوي)
- معالم في المنهج القرآني..... (أ.د. طه جابر العلواني)
- معاني القرآن (٣/١)..... (أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء علق عليه / أ.د. صلاح عبد العزيز السيد وآخرون)
- معجم مصطلحات علم القراءات القرآنية وما يتعلق به..... (أ.د. عبد العلي المشول)
- الملخص المفيد في علم التجويد (باستخدام الترميز اللوني للأحكام)..... (محمد أحمد معبد)
- مناهل العرفان في علوم القرآن..... (الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني)
- المنح الفكرية شرح المقدمة الجزرية..... (ملا علي بن سلطان محمد القاري)
- منظومة الفرائد الحسان في عداي القرآن..... (فضيلة الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي تحقيق / أشرف محمد فؤاد طلعت)
- منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع..... (د. محمد السيد يوسف)
- موسوعة مدرسة مكة في التفسير (٨/١)..... (أ.د. أحمد العمراني)
- نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه..... (أ.د. طه جابر العلواني)
- نظرة النسخ في الشرائع السأوية..... (أ.د. شعبان محمد إسحاق)
- نقائس البيان شرح الفرائد الحسان في عداي القرآن..... (فضيلة الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- نفعات من علوم القرآن على طريقة السؤال والجواب..... (محمد أحمد معبد)
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه..... (أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي مجموعة رسائل جامعية)
- هداية الرحمن في تجويد القرآن..... (الشيخ عبد الفتاح ديس وزيت)
- هداية الرحمن في تجويد القرآن (إنجليزي)..... (الشيخ عبد الفتاح ديس وزيت، ترجمة / دينا يوسف)
- الواضح في التجويد على مصحف برواية حفص عن عاصم بالرسم العثماني (٣ لون)..... (أ.د. محمد نعيم محمد هادي الساعدي)
- الروائي في شرح الشاطبية..... (الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي)
- الوجيز في الوقف والابتداء..... (الشيخ محمد الدسوقي أمين كحيلية)
- الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية..... (أ.د. رفعت فوزي عبد المطلب)
- ورتل القرآن ترتيباً (وصايا وتبسيهات في التلاوة والحفظ والمراجعة)..... (د. أنس أحمد كرزون)
- وصايا وفوائد لحفظ القرآن الكريم..... (د. أنس أحمد كرزون)
- الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم..... (أ.د. عبد الكريم إبراهيم عوض صالح)

- مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف (د. عبد الكبير حمدي)
مفهوم التقوى في القرآن والحديث (دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي) (د. محمد البوزي)
مفهوم الجهل والجاهلية في القرآن الكريم والسنة النبوية (أ.د. محمد البنيحي)
مفهوم الحرية في مذاهب الإسلاميين (أ.د. محمد عمارة)
مفهوم الحياة في القرآن والحديث (د. محمد الأحدي)
مفهوم السلام في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف (د. الطيب البوهالي)
مفهوم العالمية من الكتاب إلى الرابطة (فريد الأنصاري)
مفهوم النعمة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف (أ.د. عبد الحميد بنمسعود)



رقم الإيداع

٢٠١٤ / ٧٦٦٨

الترقيم الدولي I. S. B. N

978 - 977 - 717 - 181 - 6

الكتاب في سُطورٍ

ارتبطت صحوة الأمة بارتباطها بكتابتها؛ ولذلك فلن تتجدد الأمة إلا بتجدد فهمها للقرآن، ولن يتجدد فهم القرآن حتى يتجدد فهم مصطلحات القرآن مفهوماً ونسقاً؛ ذلك بأن الوحي قرآناً وسُنَّةً مجموعة من المفاهيم إذا حصلت حصلت كَلِّيات الدين.

وبناءً على ذلك وسعيًا مِنَّا في خدمة كتاب الله ﷻ وتقديم خطوة في إعادة تجديد الأمة وإعادة صِلَتها بالقرآن الكريم قمنا بدراسة (مفهوم الاستكبار والاستضعاف في القرآن الكريم) وذلك ببيان دلالة مصطلحات الاستكبار والاستضعاف وعلاقات هذه المصطلحات بغيرها من الألفاظ المؤلفة والمخالفة وضائمتها ومشتقاتها.

ثم تناولنا قضايا الاستكبار والاستضعاف من بيان أسبابها ومظاهرها وبيان جزاء المستكبرين وعلاج داء الاستضعاف في ضوء ما جاء به القرآن الكريم.

The meaning of haughtiness
and weakness in the Holy Qur'an
by Dr. Mustafa 'Oisha | Islamic Studies

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب. ١٦١ القورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٢٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٢٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٢٢٢٠٤ (+٢٠٢)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com



ISBN: 978-977-717-181-6



9 789777 171816 >